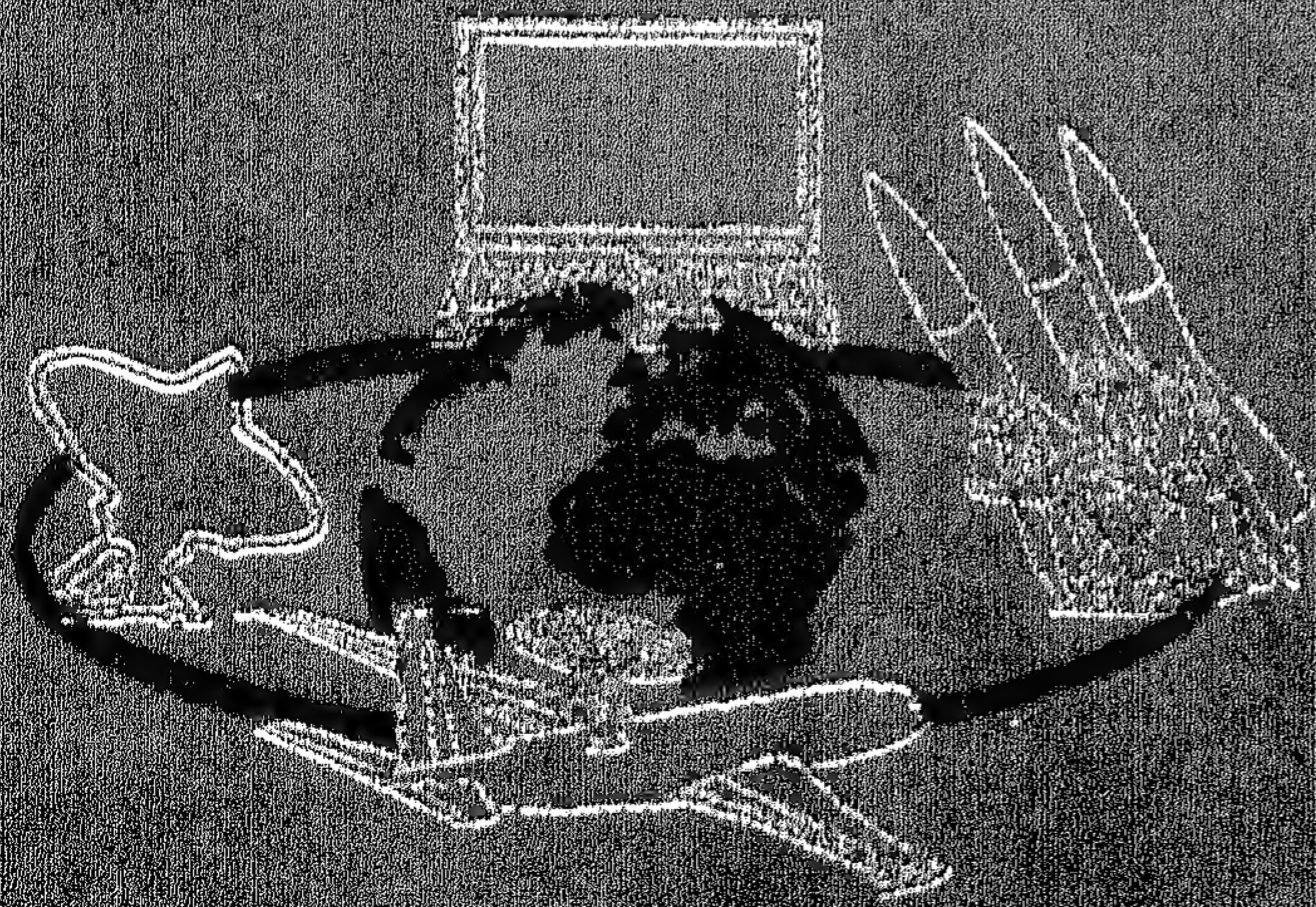
موسوعة

عالم المخابرات

كل شيء عن الجاسوسية والاستخبارات في العالم



NOBILIS

موسوعة عالم المخابرات

كلُّ شيء عن الجاسوسيّة والاستخبارات في العالم

الإستخبارات الإسرائيليّة (٢)

أسعَد مفرِّج

ولجنة من البَاحثين

موسُوعَة

عَالَــــم المُخابَرات

كلُّ شيء عن الجاسوسيَّة والاستخبَارات في العَالَم

الجزء الخَامس عشَر

الإستخبَارات الإسرَائيليَّة (٢)

NOBILIS
MAISON D'EDITION

إسم المَجموعَة : عَالَـــــم المُخابَرات

كُلُّ شيء عن الجاسوسيَّة والاستخبَارَات في العَالَم

إسم الكِتَاب : الإستخبَارات الإسرَائيليَّة (٢)

الجزء : الخَامس عَشَر

المؤلِّف : أسعَد مفرِّج ولجنَة من البَاحثين

قياس الكتَاب : ٢٠ × ٢٨

مَكَان النَّشر : بيروت

دَار النَّشر والتَّوزيع : NOBILIS

تلفاكس : ٩٦١ - ١ - ٥٨١١٢١

: ٩٦١ - ٣ - ٥٨١١٢١

المُوساد وحَرب ١٩٦٧

قبل حرب حزيران - يونيو ١٩٦٧ بمدّة طويلة، كان مائير عميت، رئيس جهاز المخابرات الإسرائيليّة، قد جسّد قدرة الموساد على إحداث البلبلة في نفوس القيّمين على مقدّرات الدول المحيطة بفلسطين المحتلّة. ويعود السبب في ذلك إلى القواعد التي أرساها لاختيار العملاء الميدانيّين الذين أصبحوا سبب نجاح الموساد في تحقيق مآربها. وقد كان معياره لتجنيد العملاء يقول بعدم قبول أيّ عميل ميدانيّ في الموساد إذا كان دافعه الأوّل المال. ولا مكان للصهيونيّ البالغ الحماسة في هذا العمل، فصهيونيّته تعرقل فهمه الواضح لمغزى عمله، وعمله يتطلّب حكمًا هادئًا وواضحًا وبعيد النظر واستشرافًا متوازنًا.

يأتي الناس للانضمام إلى الموساد لأسباب كثيرة. فهناك ما يسمّى السحر. والبعض الآخر يحبّ المغامرة. وبعضهم يظنّ أنّ انضمامهم سيعزّز مركزهم الاجتماعيّ، فهم أناس صغار يريدون القوّة السحريّة التي يعتقدون أنّهم سيمتلكونها إذا هم انضمّوا إلى الموساد...

إلاّ أنّ جميع هذه الأسباب للانضمام إلى الموساد كانت في قاموس عميت مرفوضة. وقد أصرّ على وجوب التأكّد دائمًا من أنّ العميل الميدانيّ يعرف أنّ رئيسه يدعمه دعمًا كاملاً. وأنّه سيهتمّ بعائلته ويجلب السعادة لأطفاله. وفي الوقت نفسه أنّه سيحميه. فإذا بدأت زوجته تشكّ في أنّ له عشيقة فعلى رئيسه أن يطمئنها إلى أنّ الأمر

ليس كذلك. وإذا كانت لـه عشيقة فلا يجوز أن تعلم الزوجة. وإذا شذّت هي يجب إعادتها إلى الطريق القويم دون علم زوجها. فلا يجوز أن يلهيه شيء عن عمله. فإنّ زعيم الجواسيس الناجح في نظر عميت هو من يعامل عملاءه كأفراد أسرته، فيجعلهم يشعرون أنّه دائمًا معهم، ليلاً نهارًا، وفي كلّ وقت. ويعتبر عميت أنّه هكذا يكسب ولاء جواسيسه ويجعل عميل الاستخبارات يفعل ما يريد، وإنّ ما يريده مهمّ.

وأصبح في عهد عميت كلّ عميل استخبارات يخضع لدورة تدريب مكثّفة تستغرق ثلاث سنوات وتتضمّن التعرّض لعنف جسديّ قاس خلال الاستجواب. ويصبح العميل أو العميلة بارعَين في استخدام سلاح الموساد المختار، وهو مسدّس "باريتا" هيار ٢٢,٠.

يقول باحثون في موضوع المخابرات والجاسوسيّة[1] إنّ عميت قد حوّل عمليّة جمع المعلومات السريّة عبر الناس إلى فنّ. ولم تتمكّن أيّ وكالة استخبارات أخرى أن تضاهي عملاءه على الأرض في جمع المعلومات. كان قد جعل له جواسيس كثرًا في كلّ بلد عربيّ وفي أنحاء أوروبّا وفي أميركا الجنوبيّة وفي أنحاء أفريقيا وفي الولايات المتّحدة. واخترق ضبّاط مخابراته صفوف المخابرات الأردنيّة، أفضل أجهزة الاستخبارات العربيّة في ذلك الحين، والاستخبارات السوريّة والمصريّة التي كانت من أعرق المخابرات العربيّة . وقد وصف رجال عميت بأنّهم كانوا يتصرّفون بأعصاب باردة في أقسى الأحوال.

بعد وقت قليل من تعيينه مديرًا عامًّا للموساد، وزّع عميت داخل الجهاز مذكّرة سرقها عميل من مكتب ياسر عرفات، وجاء فيها: "لدى الموساد ملفّ عن كلّ واحد

---

١ ـ طوماس، إنحطاط الموساد، ص٧٢.

منّا. إنّهم يعرفون أسماءنا وعناويننا. ولكلّ منّا صورتان في ملفّه، إحداهما بالكوفيّة والثانية بدونها. ولذا فلا يعجز الموساد عن الوصول إلينا بغطاء الرأس أو بدونه".

ولخلق حالة ذعر أشدّ، جنّد عميت عددًا كبيرًا من المخبرين العرب. وكان يعمل في ضوء مبدإ يقول إنّه وفقًا لقانون المعادلات الوسيطة فلا بدّ من العثور على عدد كاف من الأكفاء. وكانت الرشاوى التي دفعت للعملاء العرب قد ساعدت على كشف هويّة مقاتلي منظّمة التحرير الفلسطينيّة ودلّت على مخابئ أسلحتهم وبيوتهم السريّة وإجراءات السفر. ومقابل كلّ مقاوم فلسطينيّ كان الموساد يقتله، كان عميت يدفع للمخبر المعني جائزة. وفي الحقبة القصيرة التي سبقت حرب حزيران - يونيو ١٩٦٧، كان هناك ضابط استخبارات أو مخبر في كلّ قاعدة جويّة ومقرّ عسكريّ في مصر. وكان هناك ما لا يقلّ عن ثلاثة عملاء في مقرّ القيادة العامّة في القاهرة، جنّدهم مائير عميت. وقد بقيت طريقته التي مكّنته من تحقيق ذلك سرًّا يحافظ عليه جيّدًا: "إنّه من الأفضل بقاء بعض الأمور هكذا".

وأعطى عميت لكلّ مخبر وعميل يوظّفه التعليمات نفسها. بالإضافة إلى "الصورة الاجماليّة"، كان المطلوب معرفة "التفاصيل الصغيرة... كم يستغرق سير الطيّار على قدميه من ثكنته إلى غرفة طعام الضبّاط؟... كم من الوقت يُحتجز ضابط في زحام السير الشهير في القاهرة؟... هل يحتفظ أحد كبار المخطّطين بعشيقة؟" فلقد كان عميت يعرف كيف تُستخدم مثل هذه المواد المتباينة. وقد تمكّن أحد ضبّاط الاستخبارات من الحصول على وظيفة نادل في غرفة الضبّاط في قاعدة للمقاتلات الحربيّة في الجبهة المصريّة. وأسبوعيًّا كان يقدّم تفاصيل عن جهوزيّة الطائرات وأسلوب عيش الضبّاط والتقنيّين. وكانت عاداتهم في تناول الشراب ومتعهم الجنسيّة بين المعلومات التي كان ينقلها عبر اللاسلكي سرًّا إلى تلّ أبيب.

وكان الموساد قد أنشأ حديثًا دائرة للحرب النفسيّة تحت إسم "لاب"، كانت تعمل على مدار الساعة بتحضير ملفّات عن الطيّارين المصريّين والطواقم الأرضيّة وضبّاط الأركان: مهاراتهم في الطيران، وهل حصلوا على الرتبة بالكفاءة أم باستخدام النفوذ، ومن منهم كان يدمن الشراب، ومن يرتاد بيوت الدعارة، ومن له ميول جنسيّة شاذّة... وقد انكبّ عميت على دراسة الملفّات إلى وقت متأخّر من الليل وهو يبحث عن نقاط الضعف وعن أشخاص يمكن ابتزازهم للعمل معه. وهو يقول: "لم يكن عملاً مبهجًا ولكنّ المعلومات السريّة غالبًا شأن قذر".

بدأت عائلات العسكريّين المصريّين تتلقّى رسائل مغفلة كانت ترسل بالبريد من القاهرة، وفيها تفاصيل صريحة عن سلوك من يحبّون. وأفاد المخبرون في تقاريرهم إلى تلّ أبيب عن تفاصيل خلافات عائليّة كانت تؤدّي بطواقم الطيران إلى أخذ إجازات مرضيّة. وتلقّى ضبّاط الأركان مكالمات هاتفيّة مغفلة تشي بمعلومات عن الحياة الخاصّة لأحد الزملاء. وفي إحدى المدارس تلقّى مدرّس مكالمة من امرأة ذات صوت عاطفيّ أبلغته أنّ ما يجعل إحدى التلميذات عنده لا تهتمّ بدروسها هو أنّ لوالدها، وهو ضابط كبير، قصّة مشينة. وقد انتهت القصّة بانتحار الضابط. وقد أدّت هذه الحملة المتواصلة إلى زرع شقاق واسع في صفوف الجيش المصريّ، وأدّت مهمّتها بالنسبة إلى عميت.

في أوائل سنة ١٩٦٧، بات واضحًا من الأدلّة التي زوّدته بها شبكته المصريّة أنّ زعيم البلاد جمال عبد الناصر يحضّر لحرب ضدّ إسرائيل. فجرى تجنيد مزيد من المخبرين بكلّ الوسائل لمساعدة الموساد على معرفة ما تعرفه القاهرة نفسها عن القوّة الجويّة المصريّة وقيادتها العسكريّة. وفي أوائل أيّار - مايو تمكّن عميت من إعطاء قادة القوّة الجويّة الاسرائيليّة التوقيت الدقيق من اليوم المناسب لتوجيه ضربة قاصمة

للقواعد الجويّة المصريّة. وكان محلّلو الموساد قد وضعوا خريطة كاملة عن الحياة في جميع القواعد الجويّة المصريّة. وبين الساعة السابعة والنصف صباحًا والساعة السابعة وخمس وأربعين دقيقة، كانت وحدات الرادار في المطارات في أشدّ مراحل ضعفها. ففي ربع الساعة هذه يكون طاقم الموظّفين الليليّ متعبًا بعد مناوبة طويلة، بينما لا يكون الطاقم البديل قد بلغ أعلى مستويات اليقظة.

وغالبًا ما كانوا يتأخرون في تسلّم مهامّهم بسبب بطء الخدمة في قاعات الطعام. ذلك أنّ الطيّارين يتناولون فطورهم بين الساعة السابعة والربع والساعة الثامنة إلاّ ربعًا صباحًا. بعدها يعودون سيرًا على الأقدام إلى ثكناتهم لجلب معدّات الطيران. وتستغرق الرحلة عادة عشر دقائق. ويمضي معظم الطيّارين بضع دقائق إضافيّة في الحمّامات قبل التوجّه إلى خطوط الطيران. ويصلون إلى هناك في حوالى الساعة الثامنة صباحًا، وهو موعد بدء العمل الرسميّ. عندها تكون الطواقم الأرضيّة قد بدأت تكرّج الطائرات إلى خارج عنابرها لتزويدها بالوقود وتسليحها. ويعقب ذلك ازدحام خطوط الطيران لمدّة خمس عشرة دقيقة بشاحنات الوقود والذخيرة.

وأعدّ برنامج مفصّل مشابه لحركات ضبّاط الأركان في مقرّ القيادة العليا في القاهرة. فالضابط العاديّ يمضي ثلاثين دقيقة وهو يقود سيّارته من منزله عبر إحدى الضواحي ليصل إلى عمله. وغالبًا ما لا يكون المخطّطون الاستراتيجيّون خلف مكاتبهم قبل الساعة الثامنة والربع صباحًا. وربّما أمضوا عشر دقائق أخرى وهم يحتسون القهوة ويتحادثون مع زملائهم قبل أن يستقرّوا. ولا يبدأ ضابط الأركان فعليًّا درس حركة مرور الإشارات خلال الليل بين المركز وقواعد الطيران حتّى حوالى الساعة الثامنة والنصف صباحًا. وأبلغ مائير عميت قائد قوّة الجوّ الإسرائيليّة أنّ أفضل وقت تطير فيه طائراته فوق أهدافها هو بين الثامنة صباحًا والثامنة

والنصف صباحًا. ففي الثلاثين دقيقة هذه سيمكنهم سحق قواعد المصريّين نظرًا لأنّ القيادة العليا في القاهرة لن تتمكّن من استخدام العديد من كبار مسؤوليها في توجيه القتال المضاد.

... وفي الخامس من حزيران - يونيو ١٩٦٧ ضربت قوّة الجوّ الإسرائيليّة عند الساعة الثامنة والدقيقة الواحدة صباحًا بالضبط في مصر، فكانت ضربتها ماحقة، وهبطت إلى علوّ منخفض فوق سيناء لتقصف وتدمّر كما تشاء. وفي لحظات أصبح لون السماء أسود على احمرار من اللهب المتصاعد من شاحنات الوقود المحترقة والطائرات والذخائر المتفجّرة. وقد جلس مائير عميت خلف نافذة مكتبه في تلّ أبيب ينظر إلى الجنوب وهو يعرف أنّ محلّلي الاستخبارات في جهازه قد قرّروا مصير الحرب أو يكادون.

ولا تزال الموساد تحتفظ إلى اليوم في متحفها التابع لنصب شهداء الاستخبارات الاسرائيليّة في تلّ أبيب، إلى جانب جهاز إرسال في قاعدة مكواة للثياب، وجهاز إرسال في إبريق قهوة، وحبر سرّي في زجاجة عطر... بالشريط الأصليّ الذي سجّل سرًا المكالمة الخطيرة بين الملك حسين، ملك الأردن، والرئيس المصري جمال عبد الناصر، نذير حرب حزيران - يونيو ١٩٦٧[١].

---

١ - طوماس، إنحطاط الموساد، ص٧٢ - ٧٥، ٨٩.

لغزُ الهُجُوم الإسرَئيليّ على السَّفينة الأميركيَّة ليبرتي

في واحد من أكثر حوادث الحرب غموضًا وإثارة للجدل، هرع سلاحا الطيران والبحريّة التابعان لإسرائيل إلى الهجوم على سفينة أميركيّة في خلال معمعة تلك الحرب. وكانت "ليبرتي" سفينة تجسّس بحريّة أميركيّة مزوّدة بأجهزة لاسلكي وهوائيّات معقّدة وتعمل لحساب وكالة الأمن القومي الأميركيّة NSA في البحر الأبيض المتوسّط. ويوم الأربعاء في الثامن من حزيران – يونيو ١٩٦٧، كانت ليبيرتي تقف بالقرب من ساحل شبه جزيرة سيناء، لمراقبة تقدّم الاسرائيليّين. وعلى الرغم من أنّها كانت ترفع العلم الأميركيّ بنجومه وأشرطته، إلاّ أنّ الطائرات والسفن الحربيّة الاسرائيليّة قصفت سفينة المراقبة الأميركيّة بالقنابل وقذائف الطوربيد. وأسفر ذلك عن مقتل ٣٤ بحّارًا أميركيًّا وإصابة عدد أكبر من ذلك بكثير بجراح.

بعد عشرات السنين على حصول ذلك الحادث، لم يقدّم أيّ من الولايات المتّحدة الأميركيّة ولا الحكومة الإسرائيليّة إيضاحًا متماسكًا حوله، وبقي الباب مفتوحًا أمام الشائعات والتكهنات والغضب الطبيعيّ الذي انتاب كثيرًا من جنود البحريّة الأميركيّة المتمرّسين. فقد تساءلوا بعجب: كيف يجرؤ الاسرائيليّون على مهاجمة سفينة حليفهم الرئيسي؟ ولماذا فعلوا ذلك؟ واعتقد الناجون وأسر الضحايا أنّ الحادث قد ارتكب عن عمد، وأنّ الاسرائيليّين كانوا يعلمون ما يفعلون لإصابة العيون والآذان الإلكترونيّة لوكالة الأمن القوميّ بالعمى والصمم، وحدث ذلك بالتحديد فور قيام إسرائيل بنقل ركيزة قوّتها المسلّحة من الجبهة المصريّة إلى الجبهة السوريّة.

تمّ تكليف "جون هادين" رئيس مركز وكالة المخابرات المركزيّة، والكابتن "إرنست كاسيل" الملحق البحري الأميركي في تلّ أبيب باكتشاف الحقيقة. وقال الاسرائيليّون إنّ قوّاتهم اقترفت، ببساطة، خطأ. وبعد تحريّات دقيقة اقتنع هادين وكاسيل بكلام الاسرائيليّين. ففي وهج المعركة، تنافس سلاح الطيران وسلاح البحريّة الاسرائيليّان بطريقة مخزية على أن يكون كلّ منهما هو أوّل من يقضي على سفينة ليست موجودة في الخطّة الرسميّة للمعركة. وعندما رأى الاسرائيليّون العلم الأميركي، اعتقدوا، حسب ادّعائهم، أنّه من المحتمل أن يكون المصريّون يتظاهرون بأنّهم أميركيّون... ولم يزعجوا أنفسهم بالتحقّق من ذلك. وقد استاءت الولايات المتّحدة أكثر على مدى سنوات بسبب غطرسة الاسرائيليّين البادية في رفضهم دفع تعويضات لأسر الضحايا[١].

وفي أواسط شهر كانون الثاني ـ يناير ٢٠٠٤، نشر بعض وكالات الأنباء خبرًا مفاده أنّ خبراء من وزارة الخارجيّة الأميركيّة قد بحثوا مساء الإثنين الواقع فيه ١٢ كانون الثاني ـ يناير ٢٠٠٤ في التوصّل إلى حلّ الخلاف حول حقيقة الهجوم الإسرائيليّ على سفينة التجسّس الأميركيّة ليبرتي خلال حرب ١٩٦٧ بين العرب وإسرائيل. وعبّر ثلاثة من أربعة خبراء عن قبولهم بالتفسير الإسرائيليّ بأنّ الهجوم على السفينة كان حادثًا وقع بسبب عدم التعرّف على هويّة السفينة.

وقال مسؤول كبير في وزارة الخارجيّة أنّ واشنطن لم تغيّر رأيها الأوّليّ الذي توصّلت إليه قبل ٣٥ عامًا بأنّ الهجوم كان نتيجة "إهمال كبير" من جانب الجيش الإسرائيليّ ولم يكن نتيجة عمل عدوانيّ متعمّد ضدّ الولايات المتّحدة.

---

١ ـ رافيف دان، وميلمان يوسي، أمراء الموساد، ص٢٢٠ ـ ٢٢١.

إلاّ أنّ معظم الناجين من الحادث وعائلات الضحايا يعتقدون أنّ إسرائيل هاجمت السفينة عمدًا، ويتّهمون وزارة الخارجيّة الأميركيّة بالمساعدة على التغطية على دور إسرائيل في الهجوم. وطالب العديدون بالطعن في التأكيدات الإسرائيليّة وبإجراء تحقيق جديد في غرق السفينة.

وقال المسؤول نفسه في وزارة الخارجيّة إنّ لجنة الخبراء التي تعقد مؤتمرًا يستمرّ يومين، لا تعتزم إعادة تقويم قبول الولايات المتّحدة منذ مدّة طويلة بالتفسير الإسرائيليّ. وقال إنّ أيًّا من الوثائق الجديدة التي كشف عنها الإثنين في الثاني عشر من كانون الثاني ـ يناير ٢٠٠٤ كجزء من التاريخ الدبلوماسيّ الأميركيّ لحرب ١٩٦٧، لم يغيّر من التقييم للتفسير الذي قدّمته إسرائيل في ذلك الوقت. ويؤكّد التقويم الأميركيّ للحادث أنّ الهجوم الذي لم يكن له مبرّر على سفينة ليبرتي يمثّل إهمالاً سافرًا وجسيمًا تتحمّل الحكومة الإسرائيليّة المسؤوليّة الكاملة عنه، على حدّ قول هذا المسؤول.

إلاّ أنّ المسؤول نفسه وغيره من الذين شاركوا في المؤتمر أقرّوا أنّ اللجنة لم تغلق باب الجدل حول هذه المسألة ولم تنه الخلاف حولها. وقال "مارك سوسر" المؤرّخ في وزارة الخارجيّة أمام المؤتمر: "لا أدري إن كنّا قد سوّينا أيّ أمر، ولكنّني أعتقد أنّنا ربّما ألقينا بعض الضوء على مختلف جوانب هذه القضيّة".

ومن أبرز المشكّكين في التفسير الإسرائيليّ للحادث "جيمس بامفور" مؤلّف العديد من الكتب حول الاستخبارات الأميركيّة. ويقول بامفور الذي جدّد دعوته إلى فتح تحقيق جديد في الحادث، "إنّ الإسرائيليّين تعمّدوا إغراق ليبرتي لإخفاء مجزرة ارتُكبت بحقّ أسرى حرب مصريّين في سيناء"، معتبرًا أنّ "إدارة الرئيس "جونسون" التي كانت تحكم آنذاك، أخفت الحقائق للحيلولة دون الإضرار بالعلاقات مع إسرائيل".

وطالب بامفور في كتاب ألّفه عام ٢٠٠١ بنشر البيانات الاستخباراتيّة التي تمّ الحصول عليها من طائرة تجسّس أميركيّة كانت في المنطقة في ذلك الوقت.

وقال "ديفيد هاتش" المدير الفنّي لمركز "تاريخ علم التشفير" إنّ بعض هذه المعلومات على الأقلّ، والتي أصدرتها وكالة الأمن القوميّ، يشير إلى أنّ الإسرائيليّين لم يتعمّدوا استهداف السفينة الأميركيّة. وأضاف أمام اللجنة قوله: "إنّ تلك المعلومات لا ترقى إلى مستوى الدليل لكنّها توحي بقوّة بأنّ المهاجمين الإسرائيليّين لم يكونوا يعلمون أنّهم يطلقون نيران قاتلة على سفينة أميركيّة". وقد وافق المسؤول الأميركيّ على هذا التحليل مع أنّه قال "إنّه لا تزال هناك بعض الوثائق التي يمكن الكشف عن سرّيتها أمام المؤتمر".

واستمع المؤتمر كذلك إلى المؤرّخ الإسرائيليّ "مايكل أورين" والقاضي الفدرالي "جاي كريستول" اللذين نشرا تحقيقات في الحادث تدعم التفسير الإسرائيليّ.

أثار أعضاء اللجنة واستنتاجاتهم استياء بعض الحاضرين الذين يعتقدون أنّ الولايات المتّحدة تسمح لإسرائيل التي دفعت تعويضات عن الخسائر في هذا الحادث قيمتها ١٢ مليون دولار، بالإفلات من العقوبة. وقال "جوزيف لينتيني" أحد الناجين من حادث السفينة بلهجة تنمّ عن الغضب: "تمّ تأليف العديد من أنصاف الحقائق والتصريحات الخاطئة هنا اليوم".

وعندما حاول "سوسر" إنهاء الأسئلة والأجوبة قال لينتيني: "دعونا نستمع إلى ناج آخر... من حقّ ناج آخر أن يتحدّث". مضيفًا "إنّكم تحاولون التغطية على القضيّة[١]".

١ ـ أ.ف.ب.، ١٣ كانون الثاني ـ يناير ٢٠٠٤.

إنعكاساتُ حربِ حزيرَان - يونيو ١٩٦٧

كان لحرب حزيران - يونيو ١٩٦٧ إنعكاسات كبيرة على إسرائيل، أثّرت بدورها على مجمل المؤسّسات التي ترتكز عليها. وتمثّلت هذه الانعكاسات قبل كلّ شيء بالأزمة السياسيّة التي حصلت بين الرئيس الفرنسي الجنرال شارل ديغول وإسرائيل بعد أن أصدر الرئيس الفرنسيّ قراره بحظر شحن قطع الغيار والأسلحة إلى الدولة العبريّة، ما أحدث قلقًا بالغًا في مختلف الأوساط الإسرائيليّة. في ذلك الوقت كانت باريس تعتبر حتّى عام ١٩٦٧ المركز الرئيسيّ لجاز الموساد في أوروبّا. إلاّ أنّ الأزمة التي أثارها ديغول مع إسرائيل بعد الحرب، دفعت بالاستخبارات الاسرائيليّة إلى نقل مقرّها إلى العاصمة البلجيكيّة بروكسيل. وقد تولّى أحد مسؤوليها، الموظّف في السفارة الاسرائيليّة في العاصمة المذكورة، ويدعى "تسادوق أوفير"، مهمّة إدارة مركز التجسّس في أوروبّا، حيث استطاع إحاطة نفسه ومهمّته بالسريّة المطلقة تحت أشكال مختلفة من السواتر، أهمّها عمله الدبلوماسيّ في السفارة الاسرائيليّة في بركسيل، بما يمتّعه به ذلك العمل من حصانة. إلاّ أنّه رغم ذلك تعرّض لمحاولة اغتيال على يد مجموعة الرصد الفلسطينيّة في أيلول - سبتمبر ١٩٧٢، في العاصمة البلجيكيّة بالذات، لكنّه نجا بأعجوبة بعد أن أصيب بجروح متعدّدة. وقد أثارت هذه العمليّة ردود فعل هامّة في إسرائيل كما أثارت كثيرًا من الانتقادات لأجهزة الاستخبارات الإسرائيليّة[1].

١ - زهر الدين د. صالح، الوطن العربي والموساد، في موسوعة الأمن والاستخبارات في العالم، المركز الثقافي اللبناني (بيروت،٢٠٠٣) ص٩٧ - ٩٨؛ راجع: راجع: عمّار نزار، الاستخبارات الإسرائيليّة، المؤسّسة العربيّة للدراسات والنشر (بيروت،١٩٧٦) ص١٥٤ - ١٥٥.

رافي إيتان... وإنجزاته

عمل "رافي إيتان" نائبًا تنفيذيًّا لمدرسة العمليّات في الموساد لما يقارب ربع القرن. لم يكن من طبعه الجلوس خلف مكتبه لقراءة التقارير وإرسال غيره لتنفيذ أوامره. فكلّما سنحت الفرصة كان يدخل إلى الميدان، فيسافر في العالم بغرض واضح، ودافعه فلسفة لخّصها بجملة بليغة واحدة: "إذا لم تكن جزءًا من الحلّ، فلا بدّ أنّك جزء من المشكلة".

وإيتان رجل قصير وثخين وغليظ الصدر وقصير النظر، يكاد يكون أصمًّا في أذنه اليمنى منذ إصابته في حرب ١٩٤٨. لم يكن لأحد مثل قسوته الباردة ومكره وقدرته على الارتجال بسرعة هائلة ومهارته الفطريّة لوضع أفضل الخطط وتعقّبه الملحاح لطريدته. وقد تضافرت كلّ هذه الصفات معًا في عمليّة واحدة خلّدت إسمه: عمليّة المشاركة في اختطاف أدولف أيخمان البيروقراطي النازي الذي كان عنوانًا لبشاعة "الحلّ الأخير" الذي تبنّاه هتلر.

بعد اعتقال أيخمان، استمرّت وظيفة رافي إيتان كنائب رئيس العمليّات في الموساد، تدفعه مشيته المترنّحة نحو أوروبّا للعثور على رجال المقاومة العرب وإعدامهم. وأثناء قيامه بمهامّه استخدم إيتان القنابل الموجّهة عن بعد، ومسدّس الموساد المفضّل "الباريتّا"، وحيث استلزم الأمر السكون استخدم يديه إمّا لخنق ضحيّته بسلك فولاذيّ أو لتوجيه لكمة مميتة إلى أسفل الجمجمة. وكان دائمًا يقتل بلا ندم. وعند

عودته كان يقف لساعات عند موقده القائم في الهواء الطلق المكلّل بالشرر، وقد استغرق اهتمامه كلّه ليّ المعادن وفق حاجاته. ثمّ يرحل ثانية في سفرات غالبًا ما استدعت تغيير طائرته مرارًا قبل أن يصل إلى وجهته الأخيرة. وكان يختار لكلّ سفرة جنسيّة أو هويّة جديدة، معتمدًا على عدد كبير من جوازات السفر المسروقة أو المزوّرة بإتقان والتي حصل عليها الموساد بطول أناة. وبين كلّ عمليّتي قتل، كان رافي إيتان يمارس مهاراته الأخرى وهي تجنيد المتطوّعين. وقد اعتمد طريقة ثابتة استغلّت عصبيّة اليهود. وهو يقول في ذلك : "كنت أقول لهم إنّ شعبنا يحلم منذ ألفي عام... ولألفي عام كنّا نحن اليهود نصلّي من أجل الخلاص... بأغانينا وأشعارنا وفي قلوبنا أبقينا الحلم حيًّا وأبقانا الحلم أحياء... والآن تحقّق الحلم... وحتّى نضمن أن يستمرّ الحلم نحتاج إلى أناس مثلكم".

في المقاهي القائمة على جادات باريس، وفي المطاعم القائمة على ضفاف الراين، وفي مدريد وبروكسيل وحيّ "غولدرز غرين" في لندن، كان يردّد هذه الكلمات المؤثّرة. وكانت رؤيته لمعنى اليهوديّة تلاقي نجاحًا. وحين يواجه المتردّدين كان يتأنّق في مزج الشخصيّ بالسياسيّ فيعيد قصّ الحكايات من أيّام خدمته في عصابة الهاغاناه مع مرويّات عاطفيّة عن بن غوريون وزعماء آخرين. وكانت مقاومة المصغين تنهار. ولم يلبث أن أصبح ينصاع له ما يزيد على مائة رجل وامرأة في أنحاء أوروبّا، كانوا محامين وأطبّاء أسنان ومعلّمي مدارس وأطبّاء وخيّاطين وأصحاب حوانيت وربّات بيوت وسكرتيرين وسكرتيرات... وكان هناك مجموعة يدلّلها بصورة خاصّة وهي اليهود الألمان الذين عادوا إلى إرض محرقتهم المزعومة. ورافي إيتان يسمّي هؤلاء "جواسيسي الناجون". وقد اعتنى رافي إيتان أثناء عمله الجادّ في الجانب التنفيذيّ لعمليّات الموساد بأن ينأى بنفسه عن اللعب السياسيّ الذي استمرّ في إفساد

الاستخبارات الاسرائيليّة. كان على علم بمناورات الاستخبارات العسكريّة الاسرائيليّة أمان، كذلك بمناورات شين بيت، بهدف إضعاف الموساد. وقد بلغ سمعه أمر تشكيل وإعادة تشكيل العصابات السريّة والتقارير البالغة الخطورة التي كانوا يرسلونها إلى مكتب رئيس الوزراء، لكنّ الموساد بقي في عهد مائير عميت ثابتًا وأحبط كلّ محاولات الانقضاض من موقعه المتميّز. وفي أحد الأيّام لم يعد مائير عميت يتولّى القيادة، فقد رحل صوت خطواته الرشيقة في الممرّات، ومعه نظرته المحدّقة الفاحصة والابتسامة التي لم تصل مرّة إلى شفتيه. بعد رحيله، حثّ الزملاء رافي إيتان على السماح لهم بحشد المؤيّدين لحلوله محلّ عميت، مشيرين إلى أنّه يتمتّع بالمؤهلات وبالولاء والشعبيّة داخل الموساد. ولكن قبل أن يتمكّن رافي إيتان من اتّخاذ قراره، عُيّن للمنصب شخص سمّاه حزب العمل: "زفي زامير"، الكتبي الحيادي. واستقال إيتان. لم يكن على خلاف مع رئيس الموساد الجديد، بل شعر أنّه لم يعد يشعر بالراحة في الموساد. ففي عهد عميت كان مسموحًا له أن يتحرّك بلا قيد، وقد أحسّ أنّ زامير سيتقيّد بحرفيّة النظام، ولم يكن ذلك يروق له.

بعد استقالته من الموساد، بدأ رافي إيتان عمله كمستشار خاصّ مقدّمًا مهاراته للشركات التي تريد تعزيز أمنها، أو لأحد الأثرياء الذي كان يرغب في تدريب موظّفيه على طرق حمايته من الهجمات الإرهابيّة. لكن العمل ما لبث أن تراجع. وبعد مرور عام أشاع رافي إيتان أنّه مستعدّ للعودة إلى عمل الاستخبارات وهمومها. وسرعان ما جعله أرييل شارون مساعده الشخصي، وكان شارون يومها مستشارًا لإسحق رابين الذي أصبح رئيسًا للوزراء سنة ١٩٧٤. فوجد إيتان نفسه يعمل عن كثب مع رجل كان يشاركه موقفه الوحشيّ إزاء عمليّات الاستخبارات. وبعد ثلاث سنوات جرى تغيير حكوميّ آخر وأصبح مناحيم بيغن رئيسًا للوزراء، فعيّن إيتان مستشاره

الشخصيّ لشؤون الإرهاب. وكان أوّل أعمال إيتان ترتيب اغتيال أحد كبار المسؤولين الفلسطينيّين.

بدأ رافي إيتان البحث بقصد القتل عن القائد علي حسن سلامة، الذي يعرف في أنحاء العالم العربيّ باسم "الأمير الأحمر". وكان سلامة يعرف بسرعة تنقّله من عاصمة عربيّة إلى أخرى موجّهًا استراتيجيّات المجموعات الثوريّة. ومرّة بعد أخرى، كان رافي إيتان يعدّ العدّة لتوجيه الضربة، لكنّ الأمير الأحمر كان يتابع تحرّكه. واستقرّ أخيرًا في بيروت. وكان إيتان يعرف المدينة جيّدًا، ومع ذلك فقد قرّر أن ينعش ذاكرته فتخفّى بمظهر رجل أعمال يونانيّ وسافر إلى هناك. وفي الأيّام القليلة التالية توصّل إلى معرفة مكان إقامة سلامة وتحرّكاته معرفة دقيقة. ثمّ عاد إلى تلّ أبيب ووضع خططه.

كان ثلاثة عملاء للموساد سيعبرون الحدود إلى لبنان متخفّين كعرب، ويدخلون المدينة. فيستأجر أحدهم سيّارة، ويزرع الثاني سلسلة من القنابل في هيكلها وسقفها ونوافذ أبوابها. ويركنها الثالث على الطريق التي يسلكها سلامة وهو يتّجه إلى مكتبه كلّ صباح. وبالاعتماد على التوقيتات الدقيقة التي قدّمها رافي إيتان، جرى التخطيط لانفجار السيّارة لدى مرور سلامة. وقد نفّذ المخطّط وقتل سلامة.

لقد أظهر إيتان أنّه عاد بقوّة إلى العمل الاستخباراتي الاسرائيلي، لكنّ رئيس الوزراء مناحيم بيغن قرّر أن إيتان أصبح أثمن من أن يخاطَر به في مغامرات مماثلة. فأبلغ مستشاره على الفور بوجوب بقائه في المكتب والتقليل من الظهور. ولكن إيتان لم يهدأ وراح يلحّ على رئيس الوزراء بأن يكلّفه في مهمّة أخرى. وبعد تردّد، نظرًا لكون إيتان كان مستشارًا ممتازًا لشؤون مكافحة الإرهاب، عيّن بيغن إيتان في أحد أدقّ المناصب في أجهزة الاستخبارات، وهو منصب يستدعي منه بذل جهد فكريّ كبير

ويرضي حماسه لعمل يشارك به شخصيًا. كان ذلك منصب مدير مكتب الارتباط العلميّ المعروف باسم لاكام.

ومعروف، كما ذكرنا سابقًا، أنّ لاكام قد أنشئ عام ١٩٦٠ ليكون وحدة تجسّس تستقي المعلومات العلميّة بكلّ وسيلة ممكنة لتزويد وزارة الدفاع بها. وكان هذا يفترض، من حيث المبدأ، القيام بأعمال السرقة والرشوة والحصول على المادّة المطلوبة. ومنذ نشأة لاكام وأعماله يعرقلها جهاز الموساد الذي رأى في وحدة التجسّس هذه "الولد الجديد في الحيّ"، وقد حاول إيسر هاريل وبعده مائير عميت إلغاء لاكام أو ضمّه إلى الموساد، لكنّ نائب وزير الدفاع شمعون بيريز أصرّ بعناد على أنّ وزارته بحاجة إلى وكالة جمع خاصّة بها. ومضى جهاز لاكام يقوم بعمله بجدّ وهدوء، فأقام مكاتب له في نيويورك وواشنطن وبوسطن ولوس أنجلوس وكلّها مراكز رئيسيّة للعلم الحديث. وكان موظّفو لاكام يشحنون أسبوعيًّا وبانتظام صناديق تحوي المجلّات التقنيّة إلى إسرائيل، وهم على علم بأنّ مكتب التحقيقات الفيدرالي FBI يراقب نشاطهم. واشتدّت المراقبة بعد عام ١٩٦٨ عندما تبيّن أنّ أحد المهندسين الذين يجمّعون طائرة "ميراج ٣ س"، وهي المقاتلة الفرنسيّة الصنع، قد سرق ما يزيد على مائتي ألف خريطة. وقد حكم عليه بالسجن لمدّة أربع سنوات ونصف السنة لتقديمه المعلومات إلى لاكام. ولم يعد لاكام منذ ذلك الحين يحقّق أيّ نجاح يذكر.

كانت ذكرى ضربة الميراج هي ما حسم موقف إيتان. ففي عرفه أنّ ما تحقّق من قبل، يمكن أن يتحقّق مرّة أخرى. ولذا فسيتسلّم جهاز لاكام ليجعل منه قوّة لا يستهان بها. وقد كان لاكام يعمل من مكاتب ضيّقة في حيّ منعزل في أحياء تلّ أبيب. وقد ارتاع الموظّفون الجدد عندما علموا أنّ رئيسهم هو تلك الشخصيّة الأسطوريّة القاسية، فأخبرهم إيتان أنّ ما يعرفه عن العلم يقصر عن ملء أنبوب مختبر. ولكنّه أضاف أنّه

تلميذ تجيب. وانغمس رافي إيتان في عالم العلوم وراح يبحث عن مجالات يستهدفها. كان يخرج من بيته قبل الفجر ويعود حوالى منتصف الليل، وهو يحمل رزمًا من الأوراق التقنيّة فيروح يقرأ فيها حتّى الساعات الأولى من الفجر. ولم يكن الوقت يتّسع للاسترخاء، ففي فترات الاستراحة من استيعاب الكميّات الهائلة من المعلومات كان يعمل على إعادة الاتّصال عبر جهازه القديم.

كان مدير الموساد في ذلك الوقت "ناحوم عدموني"، وكان مثل رافي إيتان شديد التشكيك بمقاصد الولايات المتحدة في الشرق الأوسط. بينما استمرّت واشنطن في إظهار التزامها المعلن بإسرائيل، وأبقت وكالة CIA خطّ الاتّصال الخلفيّ الذي أنشأه إيسر هاريل وألن دالاس مفتوحًا. لكنّ عدموني كان يشكو من تفاهة المعلومات التي يستقيها من ذلك المصدر. هذا الموقف زاد في تشجيع رافي إيتان على التفكير جديًّا في استهداف الولايات المتّحدة التي كانت أجهزتها العلميّة الأكثر تقدّمًا في العالم، وتكنولوجيّتها العسكريّة لا تبارى. وكانت العقبة الأولى هي الأصعب: العثور على مخبر في وظيفة كبرى تؤهّله تقديم المعلومات المطلوبة.

استخدم رافي إيتان قائمة المتطوّعين الأميركيّين التي ساعد هو بنفسه في وضعها خلال مدّة عمله في الموساد، فعمّم على أعضائها أنّه يريد أن يتعرّف على شخص في الولايات المتّحدة ذي خلفيّة علميّة ومعروف بميوله نحو إسرائيل. ومرّت أشهر من دون أن يجد ضالّته. وفي نيسان - إبريل ١٩٨٤، حضر "أفييم سيلا"، وهو عقيد في القوّة الجويّة الاسرائيليّة، كان في إجازة لمدّة سنة يدرس في خلالها علم الكومبيوتر في جامعة نيويورك، حفلة أقامها طبيب نسائي يهودي ثري في مانهاتن. كان سيلا شخصيّة مشهورة في صفوف الجالية اليهوديّة في المدينة التي كانت تعرف أنّه الطيّار الذي قاد الهجوم الجويّ قبل ثلاث سنوات لتدمير المفاعل النووي العراقي. وكان بين المدعوّين

شابّ حيي ذو ابتسامة خجولة بدا مرتبكًا وسط مجموعة الأطبّاء والمحامين والمصرفيّين، إسمه "جوناثان بولارد"، وقد أخبر سيلا أنّه ما جاء إلى الحفلة إلاّ للتعرّف إليه. ارتبك سيلا لسماعه مثل هذا التزلّف الفاضح فانخرط معه في حديث مجاملة قصير ثمّ همّ بالابتعاد، فسارع بولارد إلى الكشف عن أنّه ليس صهيونيًا ملتزمًا فحسب، بل يعمل أيضًا في الاستخبارات البحريّة الأميركيّة. ولم يلبث الداهية سيلا أن عرف أنّ بولارد يعمل في "مركز الإنذار لمكافحة الإرهاب" في إحدى مؤسّسات البحريّة البالغة السريّة في "سوتلاند" في "ميريلاند"، وأنّ مسؤوليّات بولارد تشمل رصد جميع المعلومات السريّة عن النشاطات الإرهابيّة العالميّة. وقد كان عمله من الأهميّة بمكان جعلته يخضع لأعلى مستويات التدقيق الأمنيّ داخل أجهزة الاستخبارات الأميركيّة. ولم يصدّق سيلا ما سمعه خصوصًا عندما بدأ بولارد يقدّم تفاصيل دقيقة عن حوادث لم تكن أجهزة الاستخبارات الأميركيّة تنسّق فيها مع نظيرتها الإسرائيليّة. وبدأ سيلا يتساءل عن احتمال أن يكون بولارد جزءًا من خطّة استدراج وتفخيخ وضعها مكتب التحقيق الفدرالي FBI بهدف تجنيد أحد الإسرائيليّين. ومع ذلك، كان هناك شيء ما يوحي الصدق في بولارد الانفعالي. تلك الليلة، اتّصل سيلا بتلّ أبيب وتحدّث إلى رئيس استخبارات القوّة الجويّة، فحوّل بدوره المكالمة إلى رئيس أركان القوّة، فصدرت الأوامر لسيلا بتطوير علاقته ببولارد.

بدأ الرجلان يعقدان الاجتماعات في حلبة التزلّج في مركز "روكفلر بلازا"، وفي مقهى على الشارع الثامن والأربعين، وفي حديقة "سنترال بارك". وفي كلّ مرّة كان بولارد يقدّم وثائق سريّة لتأكيد حقيقة ما يقوله. وكان سيلا ينقل المادّة عبر ساع إلى تلّ أبيب وهو مغمور بشعور الارتياح لكونه على صلة بعمليّة استخبارات مهمّة. ولذلك فقد ذُهل عندما قيل له إنّ رجال الموساد يعرفون كلّ شيء عن بولارد، إذ كان بالفعل

قد عرض قبل عامين أن يتجسّس لحسابهم، لكنّهم رفضوه باعتباره عاجزًا عن ضبط عواطفه. كذلك فإنّ أحد ضبّاط الموساد في نيو يورك وصف بولارد بأنّه متوحّد، ونظرته إلى إسرائيل غير واقعيّة. ولكنّ سيلا كان غير راغب في التخلّي عن دوره في عمليّة كانت أكثر إثارة من الجلوس أمام الكومبيوتر في صفّ مدرسيّ، ولذا فقد راح يبحث عن طريقة لإطالة أمد العمليّة. وخلال إقامته في نيو يورك تعرّف سيلا إلى الملحق العلمي في قنصليّة إسرائيل في المدينة، ويدعى "يوسف ياغور"، وهو يعمل بأمرة رافي إيتان رئيسًا لجميع عمليّات لاكام في الولايات المتّحدة. ودعا سيلا الملحق ياغور إلى تناول العشاء بحضور بولارد، وهناك جرى الحديث عن أنّ إسرائيل محرومة من المعلومات الضروريّة للدفاع عن نفسها ضدّ من دعاهم "الإرهابيّين العرب" لأنّ الولايات المتّحدة لا ترغب في الإساءة إلى علاقاتها مع الدول العربيّة المنتجة للنفط.

في تلك الليلة اتّصل ياغور من هاتف سرّي في القنصليّة برافي إيتان. كان ذلك في الساعات الأولى من أحد الأيّام في تلّ أبيب. ولكنّ إيتان كان لا يزال يعمل في مكتبه. وفيما الفجر يوشك على البزوغ، ألقى إيتان السمّاعة، وبدا مبتهجًا، فقد عثر على المخبر المطلوب. وفي خلال الأشهر الثلاثة التالية واظب ياغور وسيلا على تعزيز صداقتهما ببولارد وزوجة المستقبل "آن هندرسون"، فاصطحباهما إلى المطاعم الفاخرة وعروض المسرح والعروض السينمائيّة الأولى. واستمرّ بولارد في نقل الوثائق المهمّة. ولم يتمالك رافي إيتان نفسه دون إظهار الدهشة إزاء أهميّة المادّة العالية. فقرّر أنّ الوقت حان لمقابلة بولارد. وفي تشرين الثاني - نوفمبر ١٩٨٤، دعا سيلا وياغور بولارد وهاندرسون إلى اصطحابهما في رحلة مدفوعة التكاليف إلى باريس. وأبلغ ياغور بولارد أنّ الرحلة مكافأة صغيرة على كلّ ما تفعلانه من أجل

إسرائيل. وسافروا جميعًا على مقاعد الدرجة الأولى، ومن المطار نقلتهم سيّارة يقودها سائق خاص إلى فندق بريستول حيث كان رافي إيتان في انتظارهم.

مع نهاية الليل كان إيتان قد وضع اللمسات الأخيرة على الترتيبات العمليّة التي سيتابع بولارد بموجبها خيانته. لقد ولّى عهد رفع الكلفة في التعامل. فسيلا سوف يبتعد عن الموضوع بعدما انتهى دوره. أمّا ياغور فسيصبح رئيس بولارد المباشر. وجرى وضع نظام تسليم مناسب للوثائق، بموجبه يوصل بولارد الوثائق إلى شقّة "إيريت إيرب"، وهو يعمل سكرتيرًا في سفارة تلّ أبيب في واشنطن، حيث يجري استنساخ المواد على ناسخة "زيروكس" متطوّرة وضعت لهذا الغرض في مطبخ الشقّة. وسيقوم بولارد بزياراته المتباعدة تباعد زيارات سيّارته إلى مغاسل محدّدة. وبينما يجري غسل السيّارة يسلّم هو الوثائق إلى ياغور الذي تكون سيّارته في الغسل أيضًا. وكانت لوحة القياس تخفي آلة نسخ تعمل على البطّاريّة. وكانت شقّة إيرب ومغاسل السيّارات على مقربة من مطار واشنطن الوطني ممّا يسهّل مجيء ياغور وعودته جوًّا إلى نيو يورك. وفي القنصليّة كان يستخدم آلة "فاكس" سريّة لتنقل الوثائق إلى تلّ أبيب.

عاد رافي إيتان إلى تلّ أبيب لينتظر النتائج. وكانت أعظم ممّا توقّعه بما لا يقاس. فقد تضمّنت المعلومات الواردة تفاصيل شحنات الأسلحة الروسيّة إلى سوريا والدول العربيّة الأخرى، بما في ذلك المواقع الدقيقة لصواريخ "SS 21" أو "SS 5"، وخرائط وصور التقطها الأقمار الصناعيّة لترسانات الأسلحة العراقيّة والسوريّة والإيرانيّة وضمنها مصانع إنتاج الأسلحة الخطيرة. وقد توافرت لرافي إيتان بسرعة صورة واضحة عن أساليب جمع المعلومات السريّة الأميركيّة ليس في الشرق الأوسط وحده، بل وفي جنوب أفريقيا أيضًا. وكان بولارد قد زوّده بتقارير من عملاء الـ CIA قدّمت خريطة لشبكة الاستخبارات الأميركيّة في البلاد بكاملها. واحتوت إحدى الوثائق على

رواية مفصّلة لكيفيّة نجاح جنوب أفريقيا في تفجير قنبلة نوويّة في ١٤ أيلول - سبتمبر ١٩٧٩ في الطرف الجنوبيّ للمحيط الهنديّ. وكانت حكومة بريتوريا قد أنكرت إنكارًا تامًّا أنّها أصبحت دولة نوويّة. ووضع رافي إيتان ترتيبًا ترسل الموساد وفقه نسخًا عمّا لديها من معلومات تتعلّق بجنوب أفريقيا إلى بريتوريا، ما أدّى إلى تدمير شبكة CIA هناك، واضطرّ اثنا عشر عميلاً إلى الإسراع بالرحيل عن البلاد.

في خلال الأشهر الأحد عشر اللاحقة استمرّ جوناثان بولارد في تجريد الاستخبارات الأميركيّة من ممتلكاتها. وبعث إلى إسرائيل ما يزيد على الألف وثيقة بالغة السريّة تشكّل ٣٦٠ قدمًا مكعّبًا من الورق، وفي تلّ أبيب كان رافي إيتان يلتهمها قبل أن يحيل المادّة إلى الموساد. وقد مكّنت المعلومات ناحوم عدموني من إطلاع حكومة شمعون بيريز الائتلافيّة على كيفيّة الردّ على سياسات واشنطن الشرق أوسطيّة بطريقة لم تكن ممكنة من قبل. ويزعم أحد من دوّن ملاحظات عن اجتماعات الحكومة يوم الأحد في القدس "أنّ الإصغاء إلى عدموني كان البديل الممتاز للجلوس في المكتب البيضاوي للبيت الأبيض الأميركيّ. فلم نكن نعرف آخر ما تفكّر به واشنطن في جميع القضايا التي تعنينا فحسب، بل كان لدينا متّسع من الوقت للردّ قبل اتّخاذ القرار"...

أصبح بولارد عاملاً حاسمًا في السبل الغامضة لصناعة السياسة الاسرائيليّة وتعقيدات انتقاء الخيارات. وأجاز رافي إيتان تقديم جواز سفر إسرائيلي لبولارد باسم "داني كوهين" بالإضافة إلى راتب شهريّ سخيّ. وبالمقابل طلب من بولارد تزويده بتفصيلات عن نشاطات التنصّت الإلكتروني في وكالة الأمن القومي NSI وأساليب زرع أجهزة تجسّس في سفارة إسرائيل في واشنطن وعناوينها الدبلوماسيّة الأخرى في الولايات المتّحدة. غير أنّ بولارد قد اعتقل قبل أن يسلّم هذه المعلومات في ٢١ تشرين الثاني - نوفمبر ١٩٨٥ أمام السفارة الاسرائيليّة في واشنطن. وخلال ساعات من ذلك،

كان ياغور وسيلا وسكرتير السفارة في واشنطن جميعهم على متن رحلة "العال" الذاهبة من نيو يورك إلى تلّ أبيب، للإفلات من قبضة رجال الـ FBI. وفي إسرائيل اختفى هؤلاء عن الأنظار ولجأوا إلى الذراعين الواقيتين لأجهزة الاستخبارات الممتنّة. وحكم على بولارد بالسجن مدى الحياة، وعلى زوجته بالسجن لمدّة خمس سنوات. ولم يفرج عنه رغم جميع الضغوطات التي تعرّضت لها الحكومة الأميركيّة من قبل اللوبي الصهيوني في الولايات المتّحدة ورغم جميع الجهود التي بذلتها إسرائيل.

وفي نيسان ـ إبريل ١٩٩٧ بدأ إسم رافي إيتان يظهر إلى جانب اسم جاسوس من الموساد في واشنطن كان مكتب الـ FBI يعرفه باسمه الحركيّ "ميغا". وكان رافي إيتان علم من مصدره الرفيع المستوى في الموساد أنّ مكتب الـ FBI بدأ يبحث في دور "ميغا" المحتمل في طريقة إدارة جوناثان بولارد. هل كان "ميغا" مصدر بعض الموادّ البالغة السريّة التي نقلها بولارد؟ وكان مكتب الـ FBI قد عاود استجواب بولارد في السجن فأقرّ بأنّ مركزه الرفيع لا يؤهّله الحصول على بعض الوثائق ذات السريّة غير العاديّة التي طلبها منه رئيسه المباشر ياغور. وكان الـ FBI يعرف أنّ لمثل هذه الوثائق كلمة رمزيّة خاصّة تستخدم للاطلاّع عليها وهي تتغيّر باستمرار وأحيانًا يوميًّا. ومع ذلك بدا أنّ ياغور قد عرف الكلمة الرمزيّة في غضون ساعات وقدّمها إلى بولارد. فهل كان "ميغا" من زوّده بالكلمة الرمزيّة؟ هل كان "ميغا" الجاسوس الإسرائيلي الثاني في واشنطن الذي ارتاب مكتب الـ FBI به منذ زمن بعيد؟ كم كانت علاقته وثيقة برافي إيتاز؟ كانت هذه الأسئلة الخطيرة التي كانت تطرح في واشنطن ويمكن أن تحطّم العلاقات بين واشنطن وتلّ أبيب. إلاّ أنّ هويّة "ميغا" بقيت مجهولة بفضل الابتزاز الذي مارسته الموساد على الرئيس كلينتون من خلال قضيّة "مونيكا لوينسكي" كما سيأتي لاحقًا.

إثر معرفة مكتب الـ FBI أنّ رافي إيتان هو بطل قضيّة بولارد، وكذلك بطل قضيّة تهريب اليورانيوم إلى إسرائيل من مصنع "تومك" في بلدة "أبولو" في بنسلفانيا والتي جاءت تفاصيلها سابقًا، أقرّ إيتان بأنّ عهده في الاستخبارات الاسرائيليّة قد شارف على النهاية.

انصرف العجوز إيتان إلى مسكنه في ضاحية "أفيكا" الراقية شمال تلّ أبيب، وراح يجمع قطعًا من مواسير المغاسل المهملة وسلاسل الدرّاجات المستعملة وغيرها من الخردة المعدنيّة المتجانسة، ويمارس هوايته في صنع تماثيل سورياليّة منها. وكان بعض الجيران يتساءل عمّا إذا كانت تلك طريقته للهرب الموقّت ممّا اقترفت يداه. فهم يعرفون أنّه مارس القتل من أجل إسرائيل، ليس في معركة مفتوحة، بل في مجابهات سريّة كانت جزءًا من حرب إسرائيل السريّة المستمرّة ضدّ العرب. ولم يكن أيّ من الجيران يعرف بالضبط كم هو عدد الذين قتلهم رافي إيتان مستخدمًا يديه القويّتين القصيرتين الغليظتين. فكلّ ما قاله لهم هو أنّه كلّما كان يقتل، كان ينظر إلى عيون ضحاياه... إلى بياض العيون. عندها يكون هادئًا جدًّا ومركّز التفكير جدًّا، فلا يفكّر إلاّ بما عليه أن يقوم به. ثمّ يفعله... وينتهي الأمر. وكان يرفق هذه الكلمات ببسمة يستخدمها بعض الرجال الأقوياء إذ يطلبون مطاوعة الضعفاء لهم[1].

---

١ ـ طوماس، إنحطاط الموساد، ص٩١ ـ ١٢٠.

قضيّة المَهدي بن بَرَكة وعَودَة ظُهور هَاريل

حلّت المخابرات الاسرائيليّة مكان السفارات في بعض الدول التي لا تستطيع إخراج علاقاتها مع الدولة العبريّة إلى العلن والمجاهرة بها، وإقامة علاقات دبلوماسيّة بينها وبين إسرائيل، حفاظًا على ارتباطاتها مع الدول العربيّة والإسلاميّة. وكان من بين تلك الدول دول أفريقيّة، بالرغم ممّا قدّمته تلك الدول دائمًا من تأييد للقضيّة الفلسطينيّة.

وفي المغرب، شعر النظام بالتهديد في ستّينات القرن العشرين من جانب النظام الراديكالي المناهض للمملكة في الجزائر المجاورة، ومن جانب الرئيس المصري جمال عبد الناصر في مصر. ويقول باحثون متضلّعون في شؤون المخابرات[1] إنّ الموساد قد استغلّ قيام النظام المغربي بحماية اليهود في المغرب، والسماح لمن يرغب منهم بالهجرة إلى إسرائيل.

على أيّ حال، تقول تلك المعلومات إنّ رئيس الاستخبارات الاسرائيليّة مائير عميت قد اتّخذ قرارًا بالعمل على التخلّص من "المهدي بن بركة"، المعارض المغربيّ البارز الذي كان قد حُكم عليه في المغرب بالإعدام غيابيًا. وقد تضمّن قرار عميت القضاء على بن بركة حيثما وُجد هذا الأخير.

---

١ ـ رافيف دان، وميلمان يوسي، أمراء الموساد، ص٢١٣.

سرعان ما راح رئيس الموساد يخطّط لتنفيذ قراره لأنّه خشي أن يؤدّي استمرار بن بركة على قيد الحياة وتمكّنه يومًا من العودة إلى المغرب إلى أن ينعكس ذلك على يهود المغرب.

بدأ عميت يخطّط في فرنسا في بداية خريف عام ١٩٦٥ لوضع التفاصيل النهائيّة لعمليّته. وقامت الموساد بعد ذلك بالعمل على نصب الشرك لبن بركة. ففي ٢٩ تشرين الأوّل ـ أوكتوبر، تمكّن عملاء إسرائيليّون من إغراء بن بركة على مغادرة جنيف والتوجّه إلى باريس لإجراء مقابلة زائفة مع منتج سينمائيّ. وفي باريس، خارج مطعم أنيق على الضفّة اليسرى لنهر السين، قام ثلاثة من ضبّاط الأمن الفرنسيّين باعتقال بن بركة.

عندما رأى الإسرائيليّون أنّ هناك عددًا كبيرًا من العملاء الفرنسيّين ابتعدوا عن المسرح، وكان على أحد كبار ضبّاط الموساد متابعة العمليّة في باريس لأنّ عميت أصرّ عليه بوجوب عدم إغفال عينه عنها. وإنّ العميل الإسرائيليّ الذي سافر إلى باريس بجواز سفر بريطانيّ مزوّر، لم يكن، على ما يبدو، يعرف الغرض الحقيقيّ من المهمّة، ويقول إنّه اندهش عندما تمّ قتل بن بركة رميًا بالرصاص ومن ثمّ دفنه في حديقة فيلاّ خارج باريس. إلاّ أنّه من المؤكّد أن عميت لم يندهش أبدًا جرّاء ذلك إذ كان مدركًا تمامًا لما يجري. واعتقد عميت ورجاله أنّ السرّ قد دُفن مع الجثّة. فمَن سيلقى بالاً إلى حادث اختفاء أو حتّى جريمة قتل فرديّة، وهي أمور تتّفق تمامًا مع القواعد السياسيّة في دنيا المخابرات. لكنّ رئيس جهاز المخابرات الإسرائيليّ لم يضع في اعتباره ردود فعل شخصيّتين لهما وجهات نظر وأمزجة مختلفة جدًّا، وهما رئيس الاستخبارات الإسرائيليّ السابق إيسر هاريل في إسرائيل، والرئيس الفرنسيّ الجنرال ديغول في فرنسا.

أمر الرئيس الفرنسي بسرعة بإجراء تحقيق لكشف كيف يمكن أن يختفي بن بركة في قلب باريس. وقد كشف التحقيق النقاب عن تورّط وكالة الاستخبارات الفرنسيّة المناظرة للموساد في العمليّة.

اجتاح ديغول غضب شديد، خاصّة وأنّه كانت تساوره شكوك حول أنّ وكالة مخابراته ربّما تتآمر ضدّه... وأمر على الفور بإعادة تنظيم وترتيب أوضاع وكالة المخابرات الفرنسيّة. ووجّه غضبه أيضًا إلى إسرائيل... فكيف يمكن لحلفاء فرنسا الذين تعاون معهم ديغول أن يعملوا من وراء ظهره؟ وكردّ فعل على مقتل بن بركة أمر الرئيس الفرنسيّ بإزالة القيادة الأوروبيّة للموساد من باريس، وأمر أيضًا بوقف كافّة أشكال التعاون في مجال المخابرات بين الدولتين الفرنسيّة والاسرائيليّة. وقد شحذ قرار ديغول النصال التي جرّدت في إسرائيل، حيث تجمّعت غيوم الفضيحة حول تورّط الموساد في جريمة القتل.

في تلك الحقبة، كان هناك بالفعل صراعًا داخليًّا كبيرًا على الصعيد السياسيّ في إسرائيل، بالنظر إلى اقتراب موعد الانتخابات العامّة المقرّر إجراؤها في تشرين الثاني - نوفمبر ١٩٦٥. وبدا حزب العمل متأكدًا من الفوز كالمعتاد، لكنّ الحزب كان منقسمًا على نفسه بحدّة بين جماعة رافي بزعامة بن غوريون، وحركة الماباي بزعامة ليفي أشكول وغولدا مائير. ونتيجة استيعاب الدروس من فضيحة لافون والفضائح الأوسع نطاقًا الناجمة عن عمليّات التجسّس الخرقاء في مصر، قرّر قادة الماباي عدم السماح لفضيحة بن بركة بالنموّ أو حتّى بأن تصبح من المعلومات العامّة بأيّ حال من الأحوال. وعلى الرغم من أنّ عمليّة القتل قد أدّت إلى فضيحة مجلجلة في فرنسا، إلاّ أنّ التورّط الاسرائيليّ ظلّ سرًّا تامًّا. وعندما ألمحت مجلّة إسرائيليّة تهتمّ بالفضائح إسمها "بول" إلى إمكانيّة أن يكون هناك إسرائيليّون في قضيّة بن بركة، قامت وكالة

شين بيت بمصادرة نسخ المجلّة البالغ عددها ٣٠ ألف نسخة بالكامل، قبل الموعد المحدّد لتوزيعها مباشرة، ولم يصل سوى خمس نسخ إلى الأسواق. وتمّ وضع المسؤولَين عن المجلّة "شامويل مور" و"ماكسيم جيلان" تحت الحجز الإداري. وجرى تطبيق المادّة ٢٣ من قوانين الأمن الاسرائيليّة، على الرغم من أنّ ذلك لم يستخدم من قبل مطلقًا سوى في حالات التجسّس ضدّ الدولة اليهوديّة. وكانت تلك هي المناسبة الأولى التي يطبّق فيها هذا القانون على صحافيّين يهود في إسرائيل.

كان السؤال الرئيسي، مثلما هي الحال في فضيحة لافون، من الذي أعطى الأوامر؟ وادّعى عميت أنّ رئيس الوزراء ليفي أشكول أعطاه الإشارة بالمضيّ قدمًا، وادّعى رئيس الوزراء أنّه لم يفعل شيئًا من هذا القبيل على الإطلاق. وسرعان ما بدأت المطالبة بإنشاء لجنة تحقيق تحظى بقوّة دفع للتحقيق في ملابسات هذا الموضوع، وانضمّ إلى المطالبين الرئيس السابق للمخابرات الاسرائيليّة إيسر هاريل. وكان صوت هاريل مسموعًا ليس فقط بسبب ماضيه كمسؤول عن المخابرات، ولكن أيضًا لأنّه كان قد عيّن للتوّ في وظيفة جديدة كمستشار لرئيس الوزراء في شؤون المخابرات.

جاءت عودة هاريل المفاجئة للخدمة الفعليّة في أيلول ـ سبتمبر ١٩٦٥، قبل شهر واحد من مقتل بن بركة. وربّما كان أشكول مدفوعًا في تعيين إيسر هاريل مستشارًا له في شؤون المخابرات بالرغبة في أن يظهر كقائد وحيد على المسرح في مواجهة منافسه الدائم ديفيد بن غوريون. وقد بدا الأمر كما لو كان يوجّه رسالة مفادها: أنا ليفي أشكول، قد احتلّيت مكان "الرجل العجوز"، وها أنذا أعيد للمخابرات الاسرائيليّة الشخص الذي كان يومًا يتمتّع بحماية بن غوريون، ولكنّ بن غوريون قد تخلّى عنه وألقى به إلى مقلب القمامة. وقد تجاهل أشكول احتجاجات عميت حول هذا التعيين،

وتجدّدت الحرب القذرة بين عميت وهاريل منذ اللحظة الأولى التي اتّخذ فيها الترتيب الجديد. ووجدت مؤسّسة المخابرات الاسرائيليّة نفسها وقد تنازعتها اتجاهات شتّى متناقضة. ورفض عميت التعاون مع هاريل الذي اكتشف سبلاً لتجاهل عميت وتجاوزه. فعن طرق استخدام الاتّصالات الشخصيّة ومعرفته بملفّات وكالات المخابرات، استطاع هاريل أن يستعير ملفّات سريّة من خزائن الموساد. وأتى برؤساء أقسام الموساد مباشرة إلى رئيس الوزراء لعقد اجتماعات، تضمّنت الموضوعات التي تتولت فيها إعادة تقييم لمقدرة عميت والتركيز على جوانب القصور لديه.

اعترض هاريل على المقترحات بالقيام بعمليّة سريّة قدّمها عميت إلى أشكول، وكان هذا هو مصير خطّة قدّمها عميت في عام ١٩٦٦ للسفر إلى القاهرة لعقد اجتماع سريّ مع المشير عبد الحكيم عامر نائب الرئيس جمال عبد الناصر بدون علم الأخير. وقد اقترح هذه الفكرة رجل أعمال يهوديّ أجنبيّ على علاقة وديّة ببعض كبار المسؤولين المصريّين. واهتمّ عميت بهذه الفكرة إلى أبعد حدّ، لكنّ هاريل حذّر من أنّ مباحثات القاهرة المقترحة يمكن أن تكون شركًا، مضيفًا أنّه من الجنون وعدم الاحساس بالمسؤوليّة بالنسبة إلى رئيس الموساد أن يطير ويقع في أيدي المصريّين.

وأوحى هاريل بأنّه إذا ألقي القبض على عميت، وتمّ استجوابه في مصر، فإنّه قد يكون مرغمًا على كشف النقاب عن الأسرار الاسرائيليّة الحيويّة. وبنتيجة تمزّقه من جرّاء صراع العمالقة، وقف أشكول إلى جانب هاريل، ولم تتمّ المفاوضات المقترحة مع مصر أبدًا. ويعتقد عميت الذي يخالجه شعور بالأسف والمرارة أنّه لو كان قد طار سرًّا إلى القاهرة فإنّ الحرب التي نشبت في حزيرا ـ يونيو ١٩٦٧ ربّما كان من الممكن تجنّبها...

لم يكن هناك وقت لدى مؤسّسة المخابرات للتفكير مليًا في مثل هذه التساؤلات. وازداد التوتّر على طول حدود إسرائيل مع مصر وسوريا بحدّة، واضطرّت وكالات المخابرات لتكريس كافّة مواردها لمواجهة التهديد الجديد. ولم يكن هناك وقت أيضًا لتسوية الجدل الدائر حول من هو المسؤول عن المخابرات الاسرائيليّة، هل هو هاريل أم عميت. كما أنّ اقتراحًا بحلّ وسط يهدف إلى جعل "إيغال ألون" مسؤولاً عن مؤسّسة المخابرات، لم يلقَ الاهتمام الذي يستحقّه، وشبح الحرب يطلّ فوق الأفق. وتمّت تورية أكبر نقطة ضعف لدى عميت، وهي مقتل بن بركة في باريس، تحت التراب في إسرائيل، وكان هذا أكثر ما يمكن أن يتحمّله إيسر هاريل بعد دعواته المتكرّرة لإجراء تحقيق كامل حول هذه الفضيحة، ولقد خاطر بمكانته بطريقة مكشوفة تمامًا وأحسّ أنّه لا خيار أمامه سوى الاستقالة، وقد استقال بالفعل في حزيران ـ يونيو ١٩٦٦. وما أدّى إلى ارتياح عميت الشديد أنّ محاولة هاريل استعادة مركزه القديم انتهت بطريقة مفاجئة وحادّة بعد تسعة شهور فقط في مكتب رئيس الوزراء. فالحملة المسعورة الجديدة للمسؤول الوحيد السابق عن المخابرات لم تحقّق شيئًا البتّة في ما عدا استطاعته إلغاء مهمّة القاهرة، وهذه المرّة غادر هاريل المخابرات نهائيًّا وإلى الأبد[1].

---

١ ـ رافيف دان، وميلمان يوسي، أمراء الموساد، ص٢١٣ ـ ٢١٨.

عمليّة القرصنة الاحتياليّة في شربورغ فرنسا

إكتشفت إسرائيل قابليتها للأذى في الحرب الحديثة في خلال دقائق قليلة رهيبة من بعد ظهر يوم ٢١ تشرين الأول ـ أكتوبر ١٩٦٧. فقد أصيبت إحدى سفنها الكبرى، وهي مدمّرة بريطانيّة من أيّام الحرب العالميّة الثانية أعيدت تسميتها "إيلات". فبينما كانت تقوم بأعمال الدوريّة قرب الساحل المصريّ، أصيبت المدمّرة بثلاثة صواريخ "ستيكس" الروسيّة الصنع أُطلقت من ميناء بور سعيد، فقُتل ٤٧ بحّارًا إسرائيليًّا وجُرح ٤١ آخرين من طاقم يبلغ عدد ضبّاطه وأنفاره ١٩٧. وغرقت إيلات في أكبر كارثة بحريّة لحقت بإسرائيل، وكانت تلك المرّة الأولى في تاريخ الحرب البحريّة تدمّر فيها سفينة بهجوم صاروخيّ طويل المدى.

عندما تجاوزت إسرائيل الآثار المباشرة للكارثة، أمرت حكومة ليفي أشكول باستخدام كلّ الوسائل المتاحة لتنفيذ برنامج لتزويد البحريّة بنوع جديد من السفن يحلّ محلّ إيلات القديمة. وفي خلال أسابيع أنجز المصمّمون سفينة حربيّة سريعة وذات قدرة عالية على المناورة ومجهّزة بأجهزة إلكترونيّة مضادّة تتيح لها خلال ثوان ثمينة فرصة تجنّب أيّ هجوم صاروخيّ يقع عليها. وتقدّمت إسرائيل بطلب لصنع سبع سفن من هذا النوع من حوض "شانتير دو كومستروكسيون ميكانيك دو نورمندي CCM" في "شربورغ" في فرنسا. وفيما كانت السفن تُبنى كان العملاء في ديمونة يصنعون الصواريخ التي ستحملها والمعدّات المتطوّرة التي ستزوّد بها لدى وصولها إسرائيل.

سارت الأمور بهدوء في شربورغ حتّى أمر الرئيس الفرنسيّ شارل ديغول بفرض حظر شامل على بيع الأسلحة لإسرائيل بعد غارة الكومندوس على مطار بيروت في ٢٦ كانون الأوّل ـ ديسمبر ١٩٦٨. وشمل الحظر السفن الحربيّة التي تقرّر ألاّ تسلّم إلى إسرائيل.

أدّى ردّ الفعل الفرنسيّ إلى إنهاء تحالف مع إسرائيل استمرّ عقدًا من السنوات. كان التحالف قد نشأ خلال الثورة الجزائريّة التي أدّت إلى حصول المستعمرة العربيّة السابقة على استقلالها من فرنسا عام ١٩٦٢. وكان من أسباب التحالف وجود عداء مشترك لدى الجانبين تجاه الرئيس المصريّ جمال عبد الناصر. وقد أمدّ الموساد في خلال تلك الحقبة فرنسا بالمعلومات السريّة عن جبهة التحرير الوطنيّ الجزائريّة المناهضة لفرنسا. وباعت فرنسا إسرائيل الأسلحة وطائرات الميراج المقاتلة كما ذكرنا في غير مكان. وبعد استقلال الجزائر، أسرع ديغول إلى إعادة علاقات فرنسا التقليديّة مع الدول العربيّة الأخرى، وسمح لمنظّمة التحرير الفلسطينيّة بفتح مكتب لها في باريس. وقد اعتبر ديغول أنّ الغارة على مطار بيروت تمثّل تجاهلاً علنيًّا صارخًا لمطلبه عدم شنّ إسرائيل ما أسماه الرئيس الفرنسيّ "هجمات إنتقاميّة" على جيرانها العرب.

كان الحظر الفرنسيّ على السلاح يعني عمليًّا أنّ إسرائيل لن تحصل بعده على ما يكفي من قطع غيار لطائرات ميراج للهيمنة على فضاء الشرق الأوسط، ولن تتمكّن من الدفاع عن نفسها كما يجب في حال تعرّضها لهجوم بحريّ. وعلى عكس ما تمنّت، جاء الحظر حين كانت إسرائيل تتشبّث بما عاد عليها به نصرها في حرب حزيران ـ يونيو ١٩٦٧. فقد استولت على الضفّة الغربيّة والقدس الشرقيّة وقطاع غزّة، وصار تحت حكمها مليون عربيّ غالبيّتهم العظمى تكنّ لها العداء.

طلبت رئيسة الوزراء الجديدة غولدا مائير من رئيس الموساد مائير عميت أن يضع خطّة لإخراج السفن الحربيّة التي أنهى الفرنسيّون صنعها في فرنسا. ويتذكّر عميت تلك الحقبة فيقول: "كان الاقتراح الأوّل أن نبحر إلى شربورغ مع عدد كاف من البحّارة المسلّحين ونستولي على السفن ونعود إلى إسرائيل. وزير الدفاع الاسرائيليّ يومئذ موشي دايان عارض ذلك بشدّة، مشيرًا بحقّ إلى أنّه سيكون لردّ الفعل الدوليّ عواقب هائلة وستتمغ إسرائيل بتمغة اللصوصيّة. فإذا كنّا نريد أن نفعل شيئًا فليكن قانونيًّا. ينبغي أن ندّعي لأنفسنا حقًّا لا لبس فيه بالإبحار إلى خارج المياه الإقليميّة الفرنسيّة، ومتى صرنا في أعالي البحار، اختلف الأمر".

وتختلف الآراء بصدد قانونيّة ما حدث في ما بعد. فعلى رغم إلحاح موشي دايان على احترام منطوق القانون فإنّ ما جرى تدارسه كان تحايلاً صريحًا وأكيدًا.

في تشرين الثاني - نوفمبر ١٩٦٩، وضع عميت المرحلة الأولى من عمليّة أطلق عليها اسم "سفينة نوح" قيد التنفيذ. فطلبت كبرى شركات الشحن الإسرائيليّة "ماريتايم فروت"، التي تشحن منتجات إسرائيل من الفاكهة إلى جميع أنحاء العالم، من مكتب محاماة مقرّه لندن، تسجيل شركة جديدة باسم "ستاربوت" أي "زورق النجمة" نسبة إلى نجمة داود. كان كبير حملة الأسهم في تلك الشركة "ميلا برينر" مدير "ماريتايم فروت"، أمّا حملة الأسهم الأخرون فكانوا وكلاء عن مائير عميت نفسه. وسارت المرحلة الثانية من الخطّة بالسهولة نفسها. كان الأميرالاي "موردخاي ليمون" هو ضابط الارتباط بين البحريّة الإسرائيليّة وحوض بناء السفن في شربورغ في صفقة بناء السفن الحربيّة لإسرائيل. وكان قد صرف أشهرًا في بحث سبل التعويض المترتّب لإسرائيل بسبب إخلال الشركة الفرنسيّة بشروط العقد. وفي كلّ مرّة يقترب الفرنسيّون من الاتّفاق على التعويض كان ليمون يثير نقطة جديدة لإثارة الجدل. وفي العاشر من

تشرين الثاني - نوفمبر أبلغ ليمون الشركة الفرنسيّة بأنّ إسرائيل باتت مستعدّة لمناقشة القضيّة. واتّصل ميلا برينر من تلّ أبيب بأحد أشهر الشخصيّات في عالم الشحن وهو "أولي مارتين سيام" المقيم في أوسلو، وأقنعه بالانضمام إلى مجلس إدارة شركة "ستاربوت" لإنجاز عمليّة شراء السفن الحربيّة.

وبخفّة يد لاعب ورق محترف قام ليمون بخطوته؛ فاجتمع في ١١ تشرين الثاني – نوفمبر بالمسؤولين عن حوض بناء السفن، وأصغى إلى عرض التعويض المحسّن وقال إنّه لا يزال غير راض. فدُهش المسؤولون الذين اعتبروا العرض سخيًّا. وفيما كانوا يتدارسون الخطوة التالية سافر ليمون بسرعة إلى باريس حيث كان "أولي سيام" ينتظره. وبعد لقائهما اتّصل ليمون هاتفيًّا بمسؤولي حوض السفن ليقول إنّه سيعاود الاتّصال "في غضون أيّام قليلة". وبعد قليل كان سيام يجلس في مكتب الجنرال "لويس بونتي" مسؤول مبيعات الأسلحة في الحكومة الفرنسيّة، ويقول إنّه بلغه أنّ هناك "بعض السفن الحربيّة المعروضة للبيع ويمكن تحويلها للتنقيب عن النفط". وفي توقيت مدروس بدقّة اتّصل ليمون في تلك اللحظة ببونتي ليقول له إنّه في باريس وإنّه مستعدّ لقبول عرض أخير للتعويض. واقترح ليمون رقمًا هو نفسه ما كان مسؤولو حوض السفن في شربورغ قد عرضوه. فأبلغه بونتي أنّه في "خضمّ مفاوضات" وأنّه سيعاود الاتّصال به متى انتهى، ثمّ عاد إلى سيام ليكشف له العرض الذي وافق عليه ليمون، ولكنّه قال إنّ المبلغ كبير جدًّا ولن توافق الحكومة على دفعه. وعلى الفور زاد سيام مبلغ خمسة في المئة على عرض ليمون، فاتّصل بونتي بليمون وأبلغه الموافقة على عرضه. وقد ظنّ بونتي أنّه عقد صفقة موفّقة بتخليص فرنسا من مشكلة شائكة. أمّا إسرائيل فستحصل على التعويض، وأمّا فرنسا فستحقّق ربحًا بمقدار خمسة في المئة. لكنّ بونتي سأل سيام سؤالين: هل الزوارق للنروج؟ وهل يضمن سيام أنّها لن تصدّر

إلى طرف ثالث بعد إنجاز عملها في التنقيب عن النفط؟ وقدّم سيام تعهّدًا قاطعًا في إجابته، ووافق بونتي على طلب إخراج الزوارق من شربورغ بصورة سريّة وذلك لتجنّب تساؤلات الصحافة عن موقع حقول النفط، وهذا شأن تجاريّ دقيق في صناعة تشتهر بسريّة نشاطاتها. وحدّدت عشيّة يوم الميلاد لعام ١٩٦٩ موعدًا لرحيل الزوارق مع بدء عطلة الميلاد ورأس السنة في شربورغ.

كانت مدّة شهر تفصل بين عقد الاتّفاق وموعد تنفيذه. وكان مائير عميت يخشى أن تفسد الخطّة خلال هذا الوقت الطويل. فيحتاج الأمر إلى انتداب ١٢٠ بحّارًا إسرائيليًّا كطواقم للزوارق في الرحلة من شربورغ إلى حيفا البالغة ثلاثة آلاف ميل. ومن المؤكّد أن يسترعي انتباه الاستخبارات الفرنسيّة وصول مثل هذا العدد الكبير من الرجال. ومرّة أخرى وجد مائير عميت الحل، إذ قرّر أن يكون سفر البحّارة على دفعات، كلّ منها مؤلّفة من بحّارين يسافران معًا إلى مدينة أوروبيّة مختلفة قبل متابعة الرحلة إلى شربورغ. وكانت التعليمات تقضي بألاّ يقيم البحّارة لأكثر من ليلة واحدة في أيّ من فنادق الميناء. وقد استخدم البحّارة جميعًا جوازات سفر إسرائيليّة حتّى إذا انكشف أمر مهمّتهم لا توجّه لهم تهمة حيازة وثائق سفر مزوّرة. ومع ذلك كان مائير عميت يعرف أنّ المخاطر لا تزال كبيرة، "فلا يحتاج الأمر إلى أكثر من شرطيّ فرنسيّ واحد تساوره الشكوك بشأن كثرة عدد الاسرائيليّين اليهود الذين وصلوا إلى شربورغ في عطلة الميلاد فتُحبط الخطّة كلّها".

في ٢٣ كانون الأوّل ـ ديسمبر اكتمل عدد البحّارة الواصلين إلى شربورغ. وانتشروا في أنحاء المدينة يستمعون إلى أغاني الميلاد التي لا تتوقّف، وشارك بعضهم ممّن وُلد في القدس وعاش فيها في الغناء. وفي تلّ أبيب راقب مائير عميت الموقف وأبدى ارتياحه لدى حلّ كلّ مشكلة طارئة. إحدى تلك المشاكل كانت تأمين التموين

الكافي لمدّة الأيّام الثمانيّة التي تستغرقها الرحلة، وقد تولّى هذا الأمر مسؤول التموين في العمليّة الذي زار كلّ متاجر المدينة. ولكن كلّما عرض أصحاب المتاجر عليه "الجانبون" الخاص بالميلاد، والمصنوع من لحم الخنزير، كان يعتذر بتهذيب. وقد اشترى ربع مليون ليتر من الوقود جرى نقلها خلسة إلى السفن. أمّا ما استحال التحسّب له فكان الطقس.

يمرّ طريق السفن عبر خليج "بيسكاي" في طقس شتويّ قد يؤدّي إلى غرقها. ويتذكّر مائير عميت ذلك في تلّ أبيب فيقول: "كنّا نتطلّع بشوق إلى طقس ملائم. أرسلنا عالمًا بالأرصاد الجويّة إلى شربورغ فرصَد كلّ نشرة عن الطقس صدرت في إنكلترا وفرنسا وفي شربورغ وإسبانيا". وأخيرًا حلّت ليلة عيد الميلاد بعد انتظار مملّ. كانت تنبّؤات الطقس تتوقّع انهمار الأمطار من الجنوب الغربيّ. وعلى رغم ذلك صدرت الأوامر بالإبحار في الساعة الثامنة والنصف من تلك الليلة. وعند الساعة السابعة والنصف صعد جميع البحّارة إلى متن السفن، لكنّ أحوال الطقس ازدادت سوءًا، فتأجّل الإقلاع إلى العاشرة والنصف ليلاً. ومرّة أخرى أوقفت أحوال الطقس الالتزام، فجاءت من تلّ أبيب إشارات مرمّزة عاجلة: أبحروا مهما تكن أحوال الطقس. غير أنّ ضابط البحريّة الإسرائيليّ الرفيع في شربورغ تجاهل الضغط الذي يتعرّض له، فعنده أنّ حياته وحياة رجاله أهمّ. وجلس صامتًا في سفينة القيادة وهو يراقب العالم بالأرصدة الجويّة بينما كان يدرس باهتمام خرائط الطقس.

عند منتصف الليل، أعلن خبير الأحوال الجويّة "أنّ الرياح ستنخفض وتميل شمالاً في خلال ساعتين. ولن تكون قويّة وستكون وراءنا. فيمكننا أن نبحر".

في تمام الساعة الثانية والنصف من صباح يوم الميلاد أُديرت محرّكات السفن وانطلقت ببطء نحو البحر. وبعد سبعة أيّام، في يوم رأس سنة ١٩٧٠، دخلت ميناء

حيفا. وكان مائير عاميت يقف وسط الحشد المنتظر على رصيف الميناء. كان سعيدًا بهذه البداية للسنة الجديدة، لكنّه كان يعلم أنّ الرئيس شارل ديغول لن يسامح إسرائيل على ما اقترفت يداها. وهكذا حصل.

عندما جاء الموساد لملاحقة المناضلين العرب في باريس ومدن فرنسيّة أخرى، كانت أجهزة الأمن الفرنسيّة تخضع ضبّاطه للمراقبة الشديدة التي تخصّ بها الإرهابيّين. والأخطر من ذلك أنّ بعض ضبّاط الأمن الداخليّ "سديس" كانوا أحيانًا كثيرة ينبّهون رجال منظّمة التحرير الفلسطينيّة إلى أنّ الموساد يوشك أن يشنّ هجومًا مضادًّا. وكثيرًا ما أنقذ ذلك المناضلين المستهدفين[1].

لقد كانت عمليّة سحب الزوارق من شربورغ عمليّة بارعة التخطيط، ولكنّها على أيّ حال كانت عمليّة احتيال دوليّة. حتّى أنّ بعض المسؤولين الفرنسيّين الديغوليّين قد علّق على العمليّة بقوله: "ليست إسرائيل مؤهّلة خلقيًّا لأن تكون دولة بين الأمم".

---

١ ـ طوماس غوردون، إنحطاط الموساد، إغتيالات وأكاذيب وارتزاق، ترجمة د. محمّد معتوق، دار بيسان (بيروت،٢٠٠٠) ص٣١٤ ـ ٣١٩.

قضيّة اختفاء الغوّاصة داكار

قبل نهاية ولاية مائير عميت على رأس الموساد بنحو ثمانية أشهر، وتحديدًا في ٢٥ كانون الثّاني - يناير ١٩٦٨، وقعت حادثة اختفاء الغوّاصة الاسرائيليّة "داكار" أمام الشواطئ المصريّة، وهي الحادثة التي شكّلت لغزًا وهاجسًا وكابوسًا أثقل كاهل المخابرات الإسرائيليّة.

كانت الغوّاصة داكار واحدة من ثلاثة غوّاصات حصلت عليها إسرائيل من بريطانيا بعد إدخال بعض التجديدات عليها. وقد فقد سلاح البحريّة الاسرائيليّة الاتّصال مع هذه الغوّاصة في الخامس والعشرين من شهر كانون الثاني - يناير ١٩٦٨ بينما كانت في طريقها من بريطانيا إلى ميناء حيفا في فلسطين المحتلّة، وعلى متنها طاقم مكوّن من تسعة وستّين ضابطًا وجنديًا. وعبثًا حاولت الأجهزة الإسرائيليّة المعنيّة كافّة إيجاد أيّ أثر للغوّاصة داكار رغم محاولاتها المستميتة.

كانت الغوّاصة الاسرائيليّة المفقودة قد أجرت تدريبات في بريطانيا وأبحرت إلى إسرائيل في التاسع من كانون الثاني - يناير ١٩٦٨، ورست يومًا واحدًا في جبل طارق في ١٥ كانون الثاني - يناير، كما كان مقرّرًا. وكان من المتوقّع وصولها إلى ميناء حيفا في ٢٩ كانون الثاني - يناير. وكان الاتّصال مستمرًّا معها بانتظام. وفي الساعة السادسة وعشر دقائق من صباح ٢٤ كانون الثاني - يناير أبرقت الغوّاصة لقيادة البحريّة الاسرائيليّة تحدّد موقعها بأنّها على درجة عرض ٦١ ، ٣٤ شمالاً وخطّ

طول ٢٦، ٢٦ شرقًا. وفي اليوم نفسه أرسلت الغواصة برقيّتين عاديّتين. وفي الساعة الثانية عشرة ودقيقتين من ظهر ٢٥ كانون الثاني - يناير التقط مقرّ القيادة البحريّة الاسرائيليّة اتّصالا لاسلكيًّا متقطّعًا اعتقد خطأ أنّه من الغوّاصة. وفي الساعة الثامنة من صباح اليوم التالي كانت قيادة سلاح البحريّة في انتظار اتّصال لاسلكيّ اعتياديّ من الغوّاصة داكار، إلاّ أنّه لم يتمّ. فتمّ تركيز الاستماع ونادى عليها مرارًا، دون نتيجة. فقامت وحدات بحريّة وطائرات من كلّ من إسرائيل وبريطانيا والولايات المتّحدة واليونان بالبحث عن الغوّاصة المفقودة حتّى ٣٠ كانون الثاني - يناير حيث أعلن مركز البحث في قبرص أنّه لا يوجد أمل في العثور على طاقم الغوّاصة على قيد الحياة. واستمرّت إسرائيل وحدها في أعمال البحث حتى الرابع من شباط - فبراير، أُعلن بعده عن فقدان الغوّاصة داكار، وتمّ تعيين الجنرال "إسرائيل طلّ" نائب رئيس الأركان الاسرائيليّ رئيسًا للجنة العسكريّة التي شكّلت للتحقيق في ملابسات حادثة الغوّاصة. لكنّ نتائج تحقيق هذه اللجنة لم تنشر إلى اليوم. واضطرّ حاخام الجيش الصهيوني في إسرائيل لإصدار شهادات وفاة لأفراد طاقم الغوّاصة المفقودين.

في بداية تقصّي أسباب اختفاء الغوّاصة داكار، طرح "جدعون راز" نائب قائد البحريّة الاسرائيليّة آنذاك فرضيّة تقول "إنّ الغوّاصة داكار التي تمّ بناؤها عام ١٩٥٤ قد أُدخلت عليها تجديدات في ترسانة البحريّة البريطانيّة لتتوافق مع احتياجات سلاح البحريّة الاسرائيليّة، وقد تسبّبت هذه التجديدات في إضعاف هيكل الغوّاصة، ما أضعف من قدرتها وإمكاناتها على مواجهة ضغط المياه في الأعماق، وقيّد من كفاءاتها على الغوص". وقد استند إلى هذه الفرضيّة "بناء على الاختبارات والفحوص التي خضعت لها الغوّاصة "الهركول" بعد اختفاء داكار، والتي أدخلت عليها تجديدات مماثلة في الترسانة البريطانيّة. وقد ظهرت نقاط ضعف كانت هناك ضرورة لإصلاحها". لكن

لم تكن نقاط الضعف هذه سببًا مباشرًا في مصيرها. بل إنّ هذه الفرضيّة ترجّح احتمال أن يكون ضعف الهيكل الخارجيّ لداكار عنصرًا إضافيًا للعوامل الأخرى التي أودت بها... إلاّ أنّ قائد الغوّاصة "الهركول" "زئيف ألموج" قد دحض ما ادّعاه راز بقوله: "إنّ ما يدّعيه راز من أنّ التجديدات التي أدخلت على الغوّاصة داكار كانت سببًا في غرقها، إدعاء يفتقر للصحّة والحقيقة... وبما إني كنت قائدًا للهركول، الغوّاصة الشقيقة لداكار، فإنّني أؤكّد أنّ ما أدخل من تجديدات على الغوّاصات الثلاث قد تمّ فحصه نظريًّا، وعمليًّا، وكان طاقم الغوّاصة ملمًّا بكلّ ما أُدخل عليها". وهكذا انهارت بشهادة الاسرائيليّن أنفسهم كافة النظريّات التي صاغوها لتفسير اختفاء الغوّاصة داكار.

بعد مرور نحو ثلاثة عشر شهرًا على اختفاء الغوّاصة الاسرائيليّة داكار، عثر أحد مواطني خان يونس العرب على شاطئ البحر على عوّامة الطوارئ الخاصّة بالغوّاصة، والمزوّدة بجهاز إرسال يعمل دوريًّا كلّ عشر دقائق بإرسال استغاثة إنقاذ ورقم هويّة الغوّاصة. وبعد فحص حالة عوّامة الطوارئ حدّد الخبراء الاسرائيليّون المنطقة التقديريّة التي فقدت فيها الغوّاصة داكار بالمنطقة الوسطى شرقًا للبحر الأبيض المتوسّط وعلى بعد ما بين ٤٠ و٧٠ ميلاً بحريًّا من شواطئ ميناء حيفا[١].

مع الإدراك التامّ بأنّ الكشف عن ملابسات اختفاء الغوّاصة الاسرائيليّة داكار في خلال الأشهر القليلة المتبقّية من ولاية مائير عميت في رئاسة الموساد، لم يكن من الاختصاصات المباشرة للموساد، غير أنّ الارتباك الاسرائيلي وكثرة الاحتمالات التي لم يغب عنها احتمال أن يكون الغرق قد حصل نتيجة عمل معاد... قد فرض على

---

١ ـ راجع: زهر الدين د. صالح، ملفة الاستخبارات الإسرائيليّة، في موسوعة الأمن والاستخبارات في العالم، المركز الثقافي اللبناني (بيروت،٢٠٠٣) ص٩٧ ـ ١٠٢.

الموساد أن تطلب إلى عملائها في الدول العربيّة التركيز على تنسّم أيّ معلومة حول هذا الموضوع، بيد أنّ جميع جهود المخابرات الاسرائيليّة في هذا المجال قد ذهبت أدراج الرياح، ولم يتمكّن عميت من إثبات وجود الموساد على الإطلاق في هذا المجال، وكان نجمه قد بدأ بالأفول.

نِهَايَةُ دَوْر مائير عميت وتوسيعُ شين بيت

على العموم، كانت عمليّة بن بركة وراء عدم التجديد لمائير عميت إثر انتهاء السنوات الخمس لولايته على رأس الموساد في أوّل أيلول ـ سبتمبر ١٩٦٨، بالرغم من أنّ عميت قد طلب من أشكول مدّ خدمته لولاية أخرى، غير أنّ رئيس الوزراء رفض الطلب، بسبب إحساسه جزئيًّا بالمرارة إزاء عمليّة بن بركة التي تصرّف فيها عميت باستقلاليّة زائدة عن الحدّ. بعد ذلك عاشَ وحيدًا في مزرعته ولم ينجب أطفالاً.

من جهة أخرى، فإنّ نتيجة حرب ١٩٦٧ التوسّعيّة الاسرائيليّة التي أدّت إلى استيلائها على الأراضي الهائلة إذ سيطرت على الضفّة الغربيّة للأردن وعلى سيناء المصريّة وقطاع غزّة، بالإضافة إلى مرتفعات الجولان، قد أدّت إلى إزالة الفكرة التي كانت سائدة عنها في العالم بأنّها الدولة اليهوديّة الصغيرة، التي تسعى بالكاد للعيش وسط الدول العربيّة الكبيرة والقويّة، إلى الأبد. وكان انتصار إسرائيل في حرب ١٩٦٧ علامة خطّ فاصل في تاريخ إسرائيل، ولم تكن مؤسّسة المخابرات محصّنة في مواجهة التغييرات الكاسحة التي تبعت ذلك.

أمّا المسؤوليّة المخابراتيّة داخل الأراضي التي احتلّتها إسرائيل في حرب ١٩٦٧، بحسب التنظيم المخابراتي الاسرائيلي، فكانت تقع على جهاز شين بيت وليس على عاتق الموساد. غير أنّ شين بيت لم تكن مهيّأة لاستيعاب مثل هذه المسؤوليّة بمفردها، خاصّة مع بوادر أعمال المقاومة الفلسطينيّة التي ظهرت في تلك الأراضي المحتلّة. إزاء هذا الواقع، شكّلت مؤسّسة المخابرات الاسرائيليّة قوّة عمل من "ديفيد كيمحي" من الموساد، ومن رجال آخرين من شين بيت ومن أمان، لاستكشاف الاتّجاهات السياسيّة للسكّان العرب. وقد اقترحت المجموعة منح الفلسطينيّين الحكم الذاتيّ الذي يقود إلى قيام دولة فلسطينيّة منفصلة، إلاّ أنّ ليفي أشكول وحكومته تجاهلا النصيحة. فكان أن تنامت أعمال المقاومة الفلسطينيّة داخل الأراضي المحتلّة بشكل تصاعديّ.

ويقول مائير عميت رئيس الموساد "إنّ المشكلة التي واجهتها إسرائيل كانت بالغة الخطورة، فقد أصبح داخل حدودنا آلاف "الإرهابيّين" الذين يساندهم السكّان العرب عمومًا، على الأقلّ بتسهيل هربهم وتوفير المخابئ لهم. وكان أوّل عمل قمت به هو زيادة تركيز الموساد على المنظّمات الفلسطينيّة واختراقها جميعًا[١]".

كان "يوسف هارميلين" قد تولّى رئاسة شين بيت في الأوّل من كانون الثاني ـ يناير ١٩٦٧ خلفًا لـ"عاموس مانور" الذي شعر بالإحباط لعدم إحلاله محلّ إيسر هاريل كرجل وحيد مسؤول عن مؤسّسة المخابرات الاسرائيليّة في العام ١٩٦٣.

يوسف هارميلين هذا كان فارع الطول، صاحب وجه جامد، كان من أبرز مميّزاته قدرته على الاحتفاظ بملامح لا تحمل أيّ تعبير، فإخفاء الملامح الشخصيّة يُعتبر من الصفات المميّزة لرجل المخابرات، ولعلّه ولد بهذه الموهبة عندما أبصر النور في فيينّا

---

١ ـ طوماس غوردون، إنحطاط الموساد، ص٣١٦.

عام ١٩٢٣. وعقب "الأنشيلوس" في عام ١٩٣٨، عنما ضمّت ألمانيا النازيّة النمسا، هرب والدا هارميلين إلى المكسيك، غير أنّ يوسف المراهق، الذي كان أكثر صهيونيّة من والديه، اتّجه إلى فلسطين، ودرس في مدرسة "بن شيمين" الزراعيّة التي خرّجت زعماء إسرائيليّين للمستقبل أمثال شيمون بيريز، وجواسيس أمثال فولفغانغ لوتز. وانضمّ هارميلين، مثله في ذلك مثل إيسر هاريل ومائير عميت، إلى أحد الكيبوتزات قبل أن يتطوّع في الجيش البريطانيّ في خلال الحرب العالميّة الثانية، ثمّ اضمّ بعد ذلك إلى الهاغاناه حيث التقى مع إيسر هاريل. وعقب التقسيم بسنوات قليلة، جنّدت شين بيت هارميلين الذي شقّ طريقه فيها بالتدرّج إلى أن وصل إلى قمّتها.

كانت علاقة هارميلين برئيس الوزراء ليفي أشكول، الذي عيّنه رئيسًا للوكالة، رسميّة للغاية، بالرغم من أنّ أشكول كان يريد شيئًا مختلفًا تمامًا، وحاول بوصفه المسؤول المباشر عن الموساد وشين بيت أن يقيم علاقات حميمة شبه أبويّة مع هارميلين. وقد وجد أشكول في هارميلين شخصًا مخلصًا، ومن جهة أخرى جامدًا بالنسبة لأشكول السياسي الذي يجيد تدبير المكائد الحزبيّة. لكنّ روح الدعابة التي يتمتّع بها أشكول لم تستطع كسر حاجز الجليد بينه وبين هارميلين، بالرغم من محاولاته المتكرّرة بثّ الحيويّة في محادثاتهما.

وفي إحدى المناسبات، عندما اكتشفت شين بيت دلائل على وجود تهديد باغتيال أشكول، قامت بمضاعفة الحراسة على رئيس الوزراء، وكانت هناك تهديدات تصل كلّ أسبوع تقريبًا بأنّ أشكول قد يتعرّض للقتل. وبصفة عامّة، تمّ تجاهل تلك التهديدات لأنّ الإسرائيليّن كانوا يعتقدون دائمًا أنّ القتلة الحقيقيّين لا يكتبون رسائل تحذير، إلاّ أنّه بعد مصرع الرئيس الأميركي جون كينيدي في تشرين الثاني - نوفمبر ١٩٦٣، لم تكن شين بيت راغبة في مواجهة أيّ مصادفات غير مسؤولة. وأبلغ هارميلين أشكول،

بوصف الأوّل مسؤولاً عن حماية رئيس الوزراء والمسؤولين الحكوميّين الآخرين، عقب اغتيال كينيدي مباشرة، أنّه بعد استعراض حالة الأمن سيجري تخصيص رجلين بدلاً من واحد لحراسته على مدى الأربع وعشرين ساعة. ووعد هارميلين رئيس الوزراء بأنّه يمكنه أن يثق فيهما تمام الثقة، وذلك في إشارة إلى أنّ أشكول أرمل وقد يحتاج إلى نوع من الخصوصيّة عند اصطحاب إحدى النساء، وأوضح هارميلين لأشكول أنّه حتّى إذا كانت لك لقاءات حميمة، فلن ينبسا بكلمة واحدة. غير أنّ أشكول قد ردّ عليه مبتسمًا بقوله: "على العكس... دعهما يخبران". ولم يضحك هارميلين، فلم يكن يضحك على مثل هذه النكات، فقد كان يأخذ عمله بجديّة صارمة، وهو الأمر الذي استمرّ بالأخذ به عندما أوكلت إليه المهمّة الجديدة: الأراضي المحتلّة.

قبل ذلك التاريخ، وقبل ثوان معدودة من اقتحام القوّات الاسرائيليّة ورجال الأمن الفيلاّ المكوّنة من ثلاث طبقات في رام الله بالضفّة الغربيّة، تمكّن زعيم منظّمة التحرير الفلسطينيّة ياسر عرفات من الهرب إذ قفز من نافذة الطبقة الثانية واختبأ في سيّارة قريبة من المكان، وعندما غادر المغيرون سارع إلى الاتّجاه شرقًا، وعبر نهر الأردن... كان ذلك في أولسط أيلول ـ سبتمبر ١٩٦٧ عقب انقضاء ستّة شهور على استيلاء إسرائيل على هذه المنطقة من الأردن. وقد شعر يومها يوسف هارميلين مدير شين بيت بخيبة أمل، فقد كانت تلك هي المرّة السابعة التي لم يتمكّن فيها رجاله من الإيقاع بزعيم منظّمة التحرير الفلسطينيّة، وهي المنظّمة التي ستشكّل متاعب أساسيّة لإسرائيل، والتي غدت منذ تأسيسها في العام ١٩٦٤ مركز اهتمام المخابرات الاسرائيليّة.

لم تكن معظم الأراضي التي استولت عليها إسرائيل في شهر حزيران ـ يونيو ١٩٦٧ تمثّل صعوبات تُذكر للحفاظ عليها بالنسبة لإسرائيل. وتحدّدت المشكلة الحقيقيّة

التي تواجه إسرائيل كقوّة محتلّة في الضفّة الغربيّة وقطاع غزّة حيث يوجد الناس. فالضفّة الغربيّة التي تقلّ مساحتها عن ثلاثة آلاف ميل مربّع، كانت موطناً لحوالى ستمائة ألف فلسطيني، بينما كان هناك حوالى أربعمائة ألف شخص في قطاع غزّة الفقير المكتظّ بالسكّان، والذي لا تزيد مساحته عن حوالى مائة ميل مربّع.

وفيما كان بعض الأعيان العرب لا يطلبون من الإسرائيليّين سوى تمكينهم من العودة السريعة للحياة الاقتصاديّة واليوميّة العاديّة، غير أنّه كان من الواضح أنّ غالبيّة سكّان الضفّة الغربيّة كانوا يفضّلون العودة إلى الإدارة الأردنيّة للملك حسين، وكان سكّان غزّة يفضّلون حاكمًا عربيًّا مصريًّا على إسرائيل. وقد خطّطت منظّمة التحرير الفلسطينيّة والمجموعات الأخرى من الفدائيّين العمل على غرار ما يقوم به الـ"فيت كونغ" الذين كانوا يواجهون بنجاح القوّات الأميركيّة الجبّارة في فييتنام، وعلى غرار جبهة التحرير الوطنيّة الجزائريّة التي طردت الفرنسيّين من الجزائر، ودعا عرفات ورفاقه السكّان الفلسطينيّين إلى الثورة ضدّ الاحتلال الاسرائيليّ الصهيونيّ. وكانت خطّتهم عقب الخامس من جزيران - يونيو ١٩٦٧ تقوم على ألاّ يستطيع الإسرائيليّون حكم هذه الأراضي. فمنظّمة التحرير الفلسطينيّة سوف تسيطر على الحياة اليوميّة في قرى وبلدات الضفّة الغربيّة البالغ عددها خمسمائة قرية وبلدة. وأعرب المنظّرون اليساريّون من بين الفدائيّين عن اعتقادهم بأنّه من المحتّم أن تقوم حكومة ثوريّة فلسطينيّة في أعقاب ذلك. وعقب حرب الأيّام الستّة، قامت منظّمة التحرير الفلسطينيّة على الفور بتوزيع كتيّب في الضفّة الغربيّة جاء فيه:

"يجب علينا أن نفرض المقاومة السريّة في كلّ شارع، وحيّ، وقرية... فواجب كلّ فرد أن يقاتل العدو... وعلينا دحرجة الصخور الضخمة من فوق قمم الجبال لقطع شرايين مواصلات العدو... حاولوا إضرام النيران في سيّارات العدو... علينا مقاطعة

المؤسّسات الاقتصاديّة والثقافيّة لقوى الاحتلال"... وانتهى الكتيّب بتقديم المعلومات حول كيفيّة صنع قنابل كوكتيل مولوتوف.

وسرعان ما أخذ عشرات الفدائيّين المسلّحين بالمدافع والمتفجّرات التابعون لمنظّمة التحرير الفلسطينيّة يتسرّبون إلى داخل الأراضي المحتلّة، فأقاموا مراكز للقيادة تحت أنف الإدارة الاسرائيليّة الجديدة. وأرسلت الخلايا الفدائيّة للقيام بعمليّات كرّ وفرّ ضدّ الدوريّات والسيّارات العسكريّة الاسرائيليّة، ولنصب الكمائن في الشوارع الضيّقة لبلدات الضفّة الغربيّة. كما قام الفلسطينيّون داخل الأراضي المحتلّة منذ ١٩٤٨ بتفجير القنابل في العمق الإسرائيلي.

أمام هذا الواقع، ألقى رئيس الوزراء ليفي أشكول ووزير الدفاع موشي دايان على الجيش مسؤوليّة الاضطلاع بالشؤون اليوميّة للإدارة العسكريّة والمدنيّة في الأراضي المحتلّة، وكلّفا وكالة شين بيت بالحفاظ على الأمن والنظام. غير أنّ الكثيرين سواء في الحكومة أو الجيش كانوا يشكّكون في مقدرة شين بيت على إنجاز المطلوب منها، ذلك أنّ الوكالة في ذلك الوقت، كانت هيئة عمل صغيرة منغلقة على ذاتها، تعمل في سريّة تامّة، وكان الرأي العام لا يعرف شيئًا عن شين بيت، وقد فرض الحظر على نشر تفاصيل عمليّاتها في الصحف، كما منع الكشف عن أيّ من عناصرها أو مسؤوليها.

كان عدد عناصر شين بيت لا يتعدّى الخمسمائة عنصر، يعرفون بعضهم البعض، ولم يكن مسموحًا لهم بالبوح بأسرار المؤسّسة لأيّ كان في الخارج. وكانت مهام شين بيت المحدّدة قبل ذلك التاريخ تقتصر على مراقبة الجواسيس الأجانب داخل إسرائيل، ومتابعة الفدائيّين المحليّين. وكان من مهمّات شين بيت قبل حرب ١٩٦٧ منع العرب من العمل كطابور خامس لمساعدة إخوانهم عبر الحدود.

في التاسع عشر من حزيـران – يونيـو ١٩٦٧، عقـدت لجنـة "فـاراش" التـي تضـمّ رؤساء كافّة أجهزة المخـابرات الاسـرائيليّة اجتماعًـا تقـرّر فـي خلالـه إلقـاء مسـؤوليّة الحفاظ على القانون والنظام في الأراضــي العربيّـة المحتلّـة علـى شـين بيـت ورئيسـها يوسف هارميلين. وكانت حرب الأيّام الستّة قد انتهـت منـذ أسبوع واحـد فقـط. وطبقًـا لتقاليد لجنة فاراش، فقد رأس الاجتماع مائير عميت مدير الموساد، وجلـس حولـه إلـى طاولة الاجتماع رئيس أمان "أهارون ياريف"، ورئيـس البوليـس الوطنـي، ومديـر عـام وزارة الخارجيّة، بالإضافة إلى يوسف هارميلين رئيس شين بيت.

يقول باحثون غربيّون في هذا الشأن أنّ الحكومـة الاسـرائيليّة قـد وجـدت أنّـه مـن الصعب عليها اتّخاذ قرار بشأن وضع الأراضي المحتلّـة والخطـط المسـتقبليّة تجاهها، وهي الأراضي التي تمّ الاستيلاء عليها في حزيران ١٩٦٧. فهل تعتبر تلك الأراضـي قطاعـات "محـرّرة" مـن "أرض إسـرائيل المقدّسـة"، أم أنّهـا أجـزاء "محتلّـة" مـن أرض أجنبيّـة معاديـة؟ ومـع الافتقـار لوجـود قـرار سياسـيّ حـول تلـك الأراضـي، اضطـرّت فـاراش لتبنّـي سياسـة إداريّـة تتمثّـل فـي "العصـا والجـزرة"، أو سياسـة "التـرهيب والترغيب"، بهدف الحفاظ على الوضع القـائم مـع الاحتفـاظ بالنظـام كأولويّـة قصـوى، وفي محاولة لدقّ إسفين بين غالبيّة الفلسـطينيّين وبيـن الأقليّـة الخطـرة الفدائيّـة، وقـرّر رؤساء المخابرات الاسرائيليّة السماح للسكّان بممارسة حياتهم اليوميّة بصورة طبيعيّة، وكانت تلك هي الجزرة، أمّـا العصـا فكـانت سياسـة العقـاب القـويّ والمؤكّـد لكـلّ مـن يشترك في أعمال فدائيّة. وكان يتمّ عقاب الفلسطينيّين الذين يساعدون الفدائيّين بالسـجن أو بنسف منازلهم بالديناميت عادة في انفجارات صاخبة لتكون أمثولة للآخريـن. وهـذا ما يدخل عمليًا في سياسة الدولة الإرهابيّة. وقد شكّل فقدان المرء لمنزله عقابًـا قاسـيًا. إلاّ أنّ أكثر العقوبات حسمًا وخطورة، التي كانت متاحة لوكالـة شـين بيـت، فقد كـانت

الطرد. ومنذ الأسابيع الأولى لإشراف إسرائيل على ما أسمته بالأراضي المدارة، كان يتمّ اصطحاب السكّان العرب الذين يُعتقد أنّهم على صلة بالفدائيّين من منظّمة التحرير أو غيرها من الفصائل عبر الجسور إلى الأردن، وتُحظّر عليهم العودة ثانية.

بدات شين بيت بمساعدة المخابرات العسكريّة في حرب سيكولوجيّة إرهابيّة لنشر الشائعات حول مدى صرامة الخطّ الذي ستتّبعه إسرائيل ضدّ الفدائيّين، إلاّ أنّ هذا لم يؤدّ إلى بثّ الخوف في نفوس الفلسطينيّين بشكل حاسم. وبعد أن أصبح واضحًا أنّ تصميم إسرائيل على البقاء في الأراضي المحتلّة قد أضحى معروفًا من قبل سكّانها، انتقلت شين بيت إلى المرحلة الثانية والحاسمة وهي: منع محاولات الانتفاضة الفلسطينيّة ومحاربة الأعمال الفدائيّة. وقد عهد هارميلين بالمهمّة إلى "أفراهام أحيتوف" رئيس قسم العربيّة الصغير في شين بيت. وبعد سدّ بعض الثغرات المتبقّية من إلغاء الإدارة العسكريّة في الجليل في عام ١٩٦٥، كان قسم أحيتوف قد قام بتأمين عدم مشاركة "عرب الـ ٤٨" في الأعمال الفدائيّة، أو أعمال التحريض أو العنف.

كان أحيتوف محاميًا بالممارسة، وبالرغم من أنّ عمله كان غير شرعيّ وغير قانونيّ، إلاّ أنّه حظي بالإشادة من زملائه في شين بيت بعد أن أقام شبكة واسعة من المخبرين. وبات واضحًا أنّ شيئًا لم يفت عن أعين رجاله. ووصف تقرير سريّ لوكالة المخابرات المركزيّة الأميركيّة CIA أحيتوف بأنّه "شديد الذكاء، طموح، متمكّن من عمله"، إلاّ أنّه أيضًا "عنيد، حادّ الطباع، ومغرور". وكان أحيتوف مسؤولاً من قبل عن عمليّات شين بيت في قطاع غزّة بعد أن استولت عليه إسرائيل من مصر في عام ١٩٥٦، وذاعت شهرته من هناك بعد أن تمكّن من وضع الفلسطينيّين هناك تحت السيطرة... وفي عام ١٩٦٧ طُلب منه استخدام "مواهبه" لتحقيق نتائج مشابهة في كافّة

الأراضي المحتلّة، كتلك التي حققها في غزّة، وفي قطاع "العرب الإسرائيليّين" أي "عرب الـ ٤٨".

كان أكثر مساعدي أحيتوف مقدرة رجل يدعى "يهودا إربيل"، وهو قصير القامة رماديّ الشعر ذو عينين شديدتي الزرقة، إلاّ أنّهما باردتين كالثلج. وكان محبًّا للنساء والخمرة. وبالرغم من أنّه كان متميّزًا بفرديّته، إلاّ أنّ سيرته كانت مشابهة لسيرة الآخرين في مؤسّسة المخابرات الاسرائيليّة. فقد وُلد في "ترانسلفانيا" التي كانت جزءًا من المجر، وأصبحت جزءًا من رومانيا، ثمّ انتقل إلى فلسطين وخدم في الجيش البريطانيّ واشترك في حرب إسرائيل في العام ١٩٤٨. ثمّ عمل ضابطًا في البوليس حتّى عام ١٩٥٥ حيث التحق بوكالة شين بيت. وعندما اندلعت حرب ١٩٦٧، كان رئيسًا لقسم شين بيت في القدس، وهو قسم صغير لا يتميّز بالأحداث الهامّة، ولا يتطلّب إلاّ عملاً قليلاً يرتكز بصفة عامّة على مكافحة الجاسوسيّة، ومراقبة الدبلوماسيّين الأجانب، حيث لم يكن في القطاع الغربي من القدس الخاضع لإسرائيل حتّى ذلك الوقت سوى أعداد قليلة من العرب. وكان إربيل يشعر بملل شديد إلى درجة أنّه فكّر في وقت ما بتقديم استقالته، إلاّ أنّ دوره الجديد عقب حرب الأيّام الستّة، كمناهض للعمليّات الفدائيّة، كان باعتراف الجميع واحدًا من أهمّ الأدوار التي أدّتها مؤسّسة المخابرات. وكان هذا الدور بمثابة مشجّع لإربيل الذي بدا وكأنّه قد ولد من جديد. فأخذ يتنقّل بصورة متواصلة بين قرى الضفّة الغربيّة لتجنيد مخبرين، ولتنسيق عمليّات اختراق خلايا المقاومة الفلسطينيّة.

تغلّبت شين بيت على محاولات تصعيد المقاومة الفلسطينيّة الانتفاضة الشعبيّة في الأراضي المحتلّة الجديدة. فقد حصلت المخابرات الاسرائيليّة على معلومات بالغة الأهميّة من الداخل، وكان هذا هو سلاحها الرئيسيّ في شنّ حرب ضدّ المعارضة

الفلسطينيّة السريّة. وتمكّن أحيتوف وأربيل من نشر شبكة العملاء السريّين والمخبرين في كافّة أنحاء الضفّة الغربيّة وقطاع غزّة، وكان بعضهم من العرب الذين تمّ تجنيدهم غالبًا بالإرهاب، وبعضهم الآخر من اليهود الذين يجيدون التحدّث باللغة العربيّة، وقد زوّد هؤلاء العملاء شين بيت بمعلومات مسبقة عن الهجمات التي يخطّط لها الفدائيّون الفلسطينيّون، ما مكّن شين بيت من الانقضاض على الاجتماعات السريّة التي كان يعقدها الفدائيّون، ومن نصب الكمائن للقبض على فرقهم وهي في طريقها لشنّ هجماتها. وأصبحت الطريقة التي حقّقت هذه النجاحات معروفة باسم "التجسّس الوقائيّ". وبحلول شهر كانون الأوّل ـ ديسمبر ١٩٦٧ كانت شين بيت قد حقّقت العديد من الانجازات، فانهارت معظم خلايا منظّمة التحرير الفلسطينيّة داخل الأراضي المحتلّة، وأُجبرت قياداتها داخل الضفّة الغربيّة على التراجع إلى داخل الأردن. كما لقى مائتا فدائي فلسطيني مصرعهم في معارك مع الجيش الاسرائيلي ووحدات شين بيت، وألقي القبض على أكثر من ألف شخص آخرين. أمّا السبب الرئيسيّ في عدم تمكّن المقاومة الفلسطينيّة من الصمود في وجه العمليّات الإسرائيليّة، ومن تصعيد أعمال الانتفاضة الفلسطينيّة يومذاك، فيعود إلى افتقار المقاومة الفلسطينيّة في ذلك التاريخ للخبرات التي يتّسم بها الحرفيّون. فبوصفهم كانوا في بداية طريق الكفاح، لم يخضعوا لقواعد تقسيم العمل، وهي القواعد الأساسيّة في الحركات السريّة ومهنة التجسّس. وبدلاً من ذلك نظّموا أنفسهم في مجموعات كبيرة نسبيًّا، تعرف بعضها البعض، وكان ياسر عرفات نفسه وكبار قادته يعرفون غالبيّة أعضاء الخلايا، وذلك في انتهاك كامل لقواعد العمل المقاوميّ الصحيح. كذلك اتّسمت أنظمة اتّصالاتهم بالبادئيّة، وكانت شيفراتهم بسيطة وغير معقّدة، كما لم يخطّطوا لطرق المقاومة، ومخابئهم لم تكن آمنة، بالإضافة إلى أنّ أعضاء الفرق الفدائيّة الناشئة لم يكونوا

مدرّبين على الصمود طويلاً عند التحقيق معهم في حالة القبض عليهم من قبل شين بيت.

وهكذا أصبحت شين بيت محلّ الثقة الكاملة في الدولة الاسرائيليّة المحتلّة، وازدادت أهميّة هارميلين داخل مؤسّسة المخابرات، وأصبح الضبّاط المسؤولون مع أحيتوف يعرفون باسم "ملوك الأراضي المحتلّة". وكما يحدث على نحوٍ ما في الأنظمة الاقطاعيّة، حدّدت لكلّ ضابط إسرائيليّ منطقته الخاصّة المكوّنة عادة من إحدى القرى أو مجموعة منها. وتعيّن على هذا الضابط أن يكون بمثابة عين إسرائيل وأذنها، يعرف كلّ ما يحدث في إقطاعته، وتمّ تدريب كلّ ضابط على أن يتعرّف على أكبر عدد ممكن من الفلاّحين بأسمائهم في الوقت الذي لا يعرفون هم عنه سوى اسمه المستعار، الذي كان في العادة إسمًا عربيًّا. وقد أنيطت بضبّاط شين بيت هؤلاء مسؤوليّات استثنائيّة ومنحوا سلطات غير عاديّة، فإذا أراد أحد الفلسطينيّين الحصول على ترخيص بالبناء فإنّ الإدارة الاسرائيليّة العسكريّة في الأراضي المحتلّة كانت تراجع الأمر أوّلاً مع الضابط المحليّ المسؤول في وكالة شيت بيت، وإذا رغب تاجر عربيّ في تصدير محصوله من الموالح من غزّة أو من زيت الزيتون من الضفّة الغربيّة، فلا يمكنه الحصول على ترخيص بذلك إلاّ بموافقة شين بيت. فكلّ دقيقة من دقائق حياة الفلسطينيّين وكافّة الانشطة اليوميّة كانت خاضعة لسيطرة شين بيت التي تتّخذ من تعاملها شكل الصفقات التجاريّة، فعلى العرب التقدّم بالمعلومات في مقابل منحهم الأمان، وهامش من الربح...

ويقول باحثون إنّه كان لنجاح شين بيت ثمنه أيضًا، فالمجتمع الاسرائيليّ كان يحكم عليه بما يتبدّى من سياسته الأمنيّة، فقد سحق العمليّات الفدائيّة يومذاك داخل الأراضي المحتلّة، لكن على حساب سمعة إسرائيل في العالم بأسره. فبدلاً من أن ينظر إليها

عالميًّا على أساس أنّها دولة تثير الإعجاب، أصبحت الدولة اليهوديّة هي إسرائيل القبيحة، وأصبح ينظر إليها بوصفها محتلاً بشعًا لأراضي شعب آخر. ومثلما تعكس معظم وكالات المخابرات قيم وأخلاقيّات مجتمعها، كذلك فإنّ التغييرات التي لحقت بصورة إسرائيل، ألحقت بوكالة شين بيت أضرارًا جسيمة. فحتّى حرب الأيّام الستّة، كان أفراد الوكالة يمثّلون أسرة صغيرة لها خلفيّة مشتركة: فقد عملوا في الجيش البريطانيّ أو في الهاغاناه، وكانوا يتشكّلون أساسًا من الأوروبيّين، أي القطاع اليهوديّ المعروف باسم "الأشكنازي". وعقب حرب ١٩٦٧، حُوّلت شين بيت إلى قوّة للقمع تلعب دورًا رئيسيًّا في حكم الأراضي المحتلّة وسكّانها، وأصبحت الوكالة السريّة قوّة استعماريّة بوليسيّة تشعر بالثقة المتزايدة وبالغرور، ولمّا كان عليها أن تغطّي مجالات أوسع بكثير، فقد حلّ العمل المرتجل المتسرّع محلّ العمل المتّسم بالدقّة. وإذ احتاجت شين بيت إلى توسيع نطاق قوّة العمل فيها، وذلك بهدف إقامة شبكات واسعة للجاسوسيّة، تمّ تشييد مجمع من المباني الحديثة والجديدة في الضاحية الشماليّة لتل أبيب، كمقرّ جديد لقيادتها بدلاً من المقرّ القديم في يافا. وأصبحت معايير التجنيد أكثر سهولة، وأقلّ تأكيدًا على المستويات المتميّزة، وتغيّر الوجه الاجتماعي لوكالة شين بيت، فقد كان كلّ شيء يتمّ بعجلة شديدة. وأمكن العثور على المتحدّثين بالعربيّة الذين أصبحت الوكالة في أمسّ الحاجة إليهم، من بين سكّان القطاع الشرقيّ من اليهود المعروفين باسم "السفرديم"، الذين يشكّلون بغالبيّتهم رجالاً أقلّ مستوى في التعليم، ويعتمدون في حياتهم على قوّتهم العضليّة أكثر من اعتمادهم على قوّتهم الذهنيّة.

حتّى ذلك الوقت، كان الذين يتمّ اختيارهم من جنود الوحدات الخاصّة في الجيش. كما أضافت شين بيت إلى صفوفها في اندفاعها المتسرّع لتوسيع صفوفها، جنودًا من الوحدات المعاونة الذين لا يتمتّعون إلاّ بأقلّ القليل من الأخلاقيّات والسلوك الحميد.

وحتّى كبار القادة في شين بيت، الذين يتميّزون عادة بالاختيار السليم لمنفّذي العمليّات، قد ارتكبوا أخطاء كبرى.

لقد تمكّن هارميلين ونائبه أحيتوف من قمع العمل الفدائيّ، إلاّ أنّه كان عليهم تحقيق ذلك باستخدام ما كان رجال شين بيت يطلقون عليه اسم "الأسلوب". والأساليب الأمنيّة كانت تتسم في الواقع بإقامة معيار مزدوج للعدالة بطريقة نظاميّة: أحد المعيارين ديمقراطيّ ويطبّق على اليهود، والثاني مختلف تمامًا، ويجري تطبيقه في "المنطقة الرماديّة"، في المجال الممتدّ بين ما هو مسموح به وبين ما هو محظور، وكان يستخدم ضدّ المشتبه بهم من الفلسطينيّين في الأراضي المحتلّة. وخلق "الأسلوب" بمعياره المزدوج حدودًا جديدة أطلق عليها اسم "بلاد شين بيت"، حيث تمتلك الوكالة مراكز الاعتقال الخاصّة بها، بالإضافة إلى أجنحة منفصلة من السجون المدنيّة الاسرائيليّة تعمل تحت إدارة شين بيت، وعندما كان يلقى القبض على الفلسطينيّين، كانوا يساقون مباشرة إلى الأجنحة الخاصّة ومراكز الاعتقال، ولم يكن مسموحًا للبوليس أو لسلطات السجون بإلقاء ولو نظرة واحدة على ما يجري داخل الزنزانات خلف هذه الجدران. وتعرّض المتّهمون العرب لتحقيقات وحشيّة بأساليب من القمع والقهر لا تترك أيّ آثار، فبمجرّد أن تغلق بوّابات شين بيت على المسجونين الفلسطينيّين كانت تغطّى رؤوسهم بأكياس سوداء، ويبقون بعد ذلك معرّضين للشمس الحارقة أو للشتاء والبرد القارس، في انتظار المحقّقين. ويستمرّ الاستجواب بعد ذلك عدّة ساعات، ويحرم المشتبه به عادة من النوم، ويغرقونه في بعض الأحيان في الماء البارد[1].

---

١ ـ رافيف دان، وميلمان يوسي، أمراء الموساد، ص٢٢٣ ـ ٢٣٩.

تلك كانت مآثر شين بيت التي جعلت منها في نظر الاسرائيليّين وكالة أمنيّة ناجحة، وفي نظر العالم عصابة خارجة على الأعراف الدوليّة لا تستحقّ سوى الذمّ.

المُمَارَسَاتُ الوحشيَّة

عدّد باحثُون أساليب التعذيب التي تجري مع المعتقلين السياسيّين والأمنيّين في السجون الإسرائيليّة على الشكل التالي:

عمليّات التعذيب التي لا تترك آثارًا واضحة على أجسام المعتقلين:

وقوف المعتقل عدة أيّام لإنهاكه وتحطيمه جسديًّا؛ مصاحبة عمليّة الوقوف بوضع كيس مملوء بمادّة ثقيلة على رأس المعتقل؛ وضع المعتقل في الشمس الحارقة ووضع أثقال على رأسه؛ ضرب أعضاء معيّنة من الجسم؛ الضغط على خصية المعتقل وأعضائه الجنسية؛ شدّ الشعر؛ الإغراق في الماء؛ عصب العينين لأيّام طويلة؛ وضع المعتقل في زنزانة مضاءة طوال الليل والنهار...

ومن من أساليب التعذيب البدني أيضًا:

التعليق من الأيدي لساعات طويلة؛ التعليق من الأرجل؛ عضّ الكلاب؛ إستخدام الكهرباء على الرأس والفم والصدر والأعضاء التناسلية؛ استخدام الماء البارد والساخن؛ إطفاء السجاير في مواقع مختلفة من الجسم؛ ضرب الرأس على الحائط؛ خلع الأظافر؛ رش الغاز في وجه المعتقل وإصابته بالحروق.

ومن أساليب التعذيب المعنوي:

التهديد بممارسة الشذوذ الجنسي مع المعتقل؛ إحضار أقرباء المعتقل للضغط عليه وتهديد المقرّبين إليه، خاصّة الزوجة والأم والأخت والأبنة، بالإعتداء عليهن في حضوره لتحطيمه معنويًا؛ ممارسة عمليّات الإذلال والإهانة للمعتقل؛ ترك المعتقلة عارية في الزنزانة عدّة أيّام؛ عمليّات الإعدام الوهميّة...

يتمّ ذلك للحصول على اعترافات من المعتقل بأنّه قد قام بأعمال هو براء منها، لتقديمها كأدلّة إلى القضاء لتصدر عليه أحكامًا قاسية دون أن يكون هناك أيّ دليل على إدانته سوى تلك الاعترافات المنتزعة منه من خلال عمليّات التعذيب أثناء التحقيق معه. وغالبًا ما تكون التهم ملفقة[1].

---

١ ـ صالح محمود عابدين، المخابرات والأمن والجاسوسيّة، مكتبة مدبولي (القاهرة،٢٠٠٣) ص٢١٣ ـ ٢١٤.

الحقبة الرّابعة من تاريخ الموساد

زفي زمير يخلف مائير عميت

بالرغم من أنّ مائير عميت قد طلب من أشكول مدّ خدمته لولاية أخرى، إثر انتهاء السنوات الخمس لولايته على رأس الموساد في أوّل أيلول ـ سبتمبر ١٩٦٨، فإنّ رئيس الوزراء رفض الطلب، بسبب إحساسه جزئيًّا بالمرارة إزاء عمليّة بن بركة التي تصرّف فيها عميت باستقلاليّة زائدة عن الحدّ. بعد ذلك عاشَ عميت وحيدًا في مزرعته ولم ينجب أطفالاً.

تولّى الجنرال "زفي زامير" رئاسة الموساد في تشرين الثاني ـ نوفمبر ١٩٦٨، بناء على اقتراح "آلون" لرئيس الوزراء ليفي أشكول، رغم أنّ زامير لم يكن معروفًا من قبل وليس لديه من الإنجازات ما يؤهّله لهذا المنصب. وكان الجميع، بمن فيهم أشكول، يعترفون ببراعة عميت، ومن الجائز أنّه أُجبر على التخلّي عن منصبه بسبب كفاءته البالغة، حيث بدأ أشكول وغولدا مائير وكبار القادة الآخرين في حزب العمل يخشون من تزايد سلطته، مثلما كان شعر بن غوريون في النهاية بالارتياب إزاء السلطات التي تركّزت في يدي إيسر هاريل. وعلى العموم فإنّ الزعماء الجدد للحزب

كانوا لا يرغبون في وجود رئيس للمخابرات بمثل هذه القوّة. وكان هناك سبب آخر وراء شكوك أشكول تمثّل في تآمر عميت مع صديقه القديم موشي دايان وزير الدفاع الذي أراد في شهر آذار ـ مارس ١٩٦٨ القيام برحلة سريّة إلى إيران لمقابلة الشاه، فلجأ دايان إلى عميت لترتيب الرحلة إذ إنّ الموساد كانت مسؤولة عن العلاقات مع إيران، وعندما اكتشف أشكول الأمر شعر كما لو أنّ لطمة قد وجّهت إليه، وطلب تفسيرًا من عميت. فسأل أشكول رئيس الموساد: "ما الذي يجري هنا؟ وكيف تجرؤ على فعل أمر كهذا؟ إنّ الموساد وأنت شخصيًّا خاضعان لسلطتي أنا وليس لوزارة الدفاع أو لموشي دايان". وإذ لم يستطع عميت أن يقدّم جوابًا مقنعًا، بدا أنّ هذا الصدام الصغير قد حوّل مكانته في السلّم البيروقراطيّ وأنهى مستقبله. فعندما طلب عميت بعد ذلك بزمن قصير مدّ خدمته كرئيس للموساد لولاية أخرى أوضح له أشكول بطريقة مهذّبة أنّه قرّر أن يضع مكانه الميجور جنرال زفي زامير".

شعر عميت والعديدون غيره بالدهشة لحصول زامير على هذا المنصب، ذلك أنّه لم تكن له خبرة سابقة في أعمال الجاسوسيّة، ما أثار حتّى دهشته هو نفسه. أمّا السبب الذي أدّى إلى اختيار زامير لرئاسة جهاز الموساد فعائد إلى أنّ زعماء حزب العمل قد اعتبروا زامير واحدًا منهم.

مثل العديد من شخصيّات حزب العمل الهامّة، ولد زامير في بولندا عام ١٩٢٥، ووصل إلى فلسطين وعمره سبعة شهور مع أسرته، وكان لقب الأسرة "زارزيفسكي"، وانضمّ إلى البالماخ وهو في الثامنة عشرة من عمره، وقاتل في حرب ١٩٤٨، وواصل حياته في الجيش الاسرائيلي إلى أن وصل إلى رتبة ميجور جنرال، وأصبح مسؤولاً عن الجبهة الجنوبيّة. ولتتويج حياته في الجيش، عيّن مستشارًا عسكريًّا إسرائيليًّا في لندن عام ١٩٦٦.

ويقول باحثون إنّ هناك سبب آخر وراء قرار أشكول تعيين زامير رئيسًا للموساد، فقوّة زامير يمكن أن تتمثّل في ضعفه، فبعد عقدين من سيادة أساتذة الجاسوسيّة الأقوياء المفرطين في الثقة بأنفسهم، أراد أشكول تعيين شخصيّة مختلفة تمامًا. وكان زامير وافيًا بالغرض، فمنصبه في لندن يعني أنّه تخلّف عن الاشتراك في حرب الأيّام الستّة وعن بريق المجد الذي شمل الجنرالات الإسرائيليّين الآخرين، فزامير يفتقر للجاذبيّة، وكان واحدًا من الوجوه التي لا لون لها في الجيش الإسرائيليّ[1].

المُوسَاد وشين بيت يتجنَّدان ضدَّ المقَاومَةِ الفلسطينيَّة

نجح زامير في التعاون مع هارميلين في القتال ضدّ العمليّات الفدائيّة الفلسطينيّة، ودفعت جهودهما المشتركة بوكالة الأمن، التي تبدو في الظاهر أنّها داخليّة، إلى خوض المعارك الخارجيّة أكثر من ذي قبل.

فقد عمدت الاستخبارات الاسرائيليّة إلى ملاحقة المقاومة الفلسطينيّة خارج الأراضي الفلسطينيّة المحتلّة، وزرعت العملاء والجواسيس في مختلف الأقطار العربيّة التي تتواجد فيها قواعد المقاومة بهدف الحصول على معلومات حول تحرّكاتها ومراكزها وتسلّحها وتنقّلات قادتها، كما لجأت في الوقت ذاته إلى إيجاد شبكات تجسّس في كلّ من العراق ومصر ولبنان تهدف إلى تهريب اليهود وتهجيرهم إلى إسرائيل،

---

١ ـ رافيف دان، وميلمان يوسي، أمراء الموساد، كلّ جاسوس أمير، تعريب ممدوح لطفي، دار الكتاب العربي (دمشق،١٩٩١) ص٢٤٥ ـ ٢٤٧.

بالإضافة إلى إحداث عمليّات تخريبيّة، سياسيّة وطائفيّة، لبلبلة الأوضاع الداخليّة في كلّ من هذه البلدان، توجّه بعدها أصابع الاتّهام إلى المقاومة، فتولّد ضدّها موجة من العداء والكراهية تستهدف عرقلة مسيرتها.

وكانت المخابرات الاسرائيليّة قد كثّفت نشاطها في ملاحقة المقاومة الفلسطينيّة خاصّة في الأردن، حيث كانت أسرائيل تتلقّى ضربات من قبل رجال المقاومة الفلسطينيّة في مناطق العمق من الأرض المحتلّة بعد أنّ مثّل الأردن قاعدة الارتكاز الهامّة والمنطلق نحو الداخل، وبصورة خاصّة نحو قطاع غزّة، حيث تصاعدت حدّة الهجمات إلى الحدّ الذي اعترف فيه الجنرال موشي دايان في أيلول ـ سبتمبر ١٩٦٩ قائلاً بأنّ غزّة يحكمها جيش الدفاع الاسرائيلي في النهار، بينما يحكمها الفدائيّون في الليل. ولم تنفع أساليب الردع الاسرائيليّة في قهر المقاومة، حتّى كانت أحداث أيلول ـ سبتمبر ١٩٧٠ في الأردن، ومن ثمّ أحداث ١٩٧١، حيث أدّى ذلك إلى تصفية المقاومة عسكريًّا هناك، فنقلت مركزها وكلّ ما يتعلّق بوضعها إلى لبنان، حيث راحت توجّه ضربات هامّة للعدوّ الصهيونيّ في الداخل والخارج على السواء، حقّقت من خلالها تحطيم نظريّة "الأمن الإسرائيليّة" وأظهرت هشاشتها.

إثر ذلك، ركّزت الاستخبارات الاسرائيليّة في بادئ الأمر جهودها على القرى اللبنانيّة الحدوديّة، وهي التي كان يتسلّل عبرها الفدائيّون الفلسطينيّون لتنفيذ عمليّاتهم ضدّ مؤسّسات العدوّ ومنشآته وأفراده. وقد نجحت هذه الاستخبارات في تجنيد بعض العملاء من سكّان هذه القرى الحدوديّة التي تمثّل نقطة عبور إلى الأراضي الفلسطينيّة المحتلّة. وكان من بين هؤلاء العملاء على سبيل المثال "نايف المصطفى" وهو من قرية لبنانيّة حدوديّة، تزعّم شبكة جاسوسيّة لصالح المخابرات الصهيونيّة مقابل المال، إلاّ أنّ أجهزة الأمن اللبنانيّة اعتقلته في بداية سبعينات القرن العشرين حيث اعترف

بتعامله مع إسرائيل، وجمع معلومات سريّة تمّ إرسالها عبر جهاز لاسلكيّ قامت الاستخبارات العدوّة بتدريبه على استخدامه لإبلاغها عبر مشاهداته ومراقبته للحدود عن توقيت تحرّك المجموعات الفدائيّة ومكان عبورها إلى الأراضي المحتلّة. وبتاريخ السادس من شباط ـ فبراير ١٩٧١، اعتقلت أجهزة الأمن اللبنانيّة كلاً من "أحمد ضاهر" و"نايف البدوي"، وهما من بلدتين جنوبيّتين حدوديّتين، اعترفا بتعاملهما مع الاستخبارات الاسرائيليّة، وتبيّن أنّ أحدهما "ضاهر" كان يدير شبكة تجسّس لصالح الاستخبارات الاسرائيليّة ويعاونه في مهمّته المعتقل الثاني "البدوي". وقد أمدّت تلك الشبكة الاستخبارات الاسرائيليّة بمعلومات تفصيليّة عن نشاط الفدائيّين الفلسطينيّين في المنطقة الحدوديّة[1].

ويقول باحثون[2] إنّ المخابرات الاسرائيليّة لم تحصر نشاطها بمراقبة تحرّكات الفدائيّين فقط، بل لجأت أيضًا إلى تشكيل شبكة جاسوسيّة هامّة أوكلت قيادتها إلى أحد عملائها المدعو "خميس أحمد بيومي"، وحدّدت مهمّتها بالتجسّس والتخريب. وقد استطاع بيومي تجنيد عميل رئيسيّ في شبكته هو "جميل القرح"، الذي تولّى شراء عدد من ضعفاء النفوس واستخدمهم في عمليّات خطّط لها ضابط الاستخبارات الاسرائيليّة في حيفا. وعلى الأثر توالت التفجيرات في جميع أنحاء لبنان، وكان بعضها ذا طابع سياسيّ، كتفجير قنبلة في السفارة العراقيّة ببيروت بغية تأجيج الخلاف بين العراق وسوريا، وتفجير قنبلة أخرى في مكاتب المنظّمات الفلسطينيّة للوقيعة بين اللبنانيّين والفلسطينيّين، وعمليّات أخرى ذات طابع طائفيّ كإلقاء القنابل على الكنائس والمساجد

---

١ ـ عمّار نزار، الاستخبارات الإسرائيليّة، ص٦٤ ـ ٦٥.

٢ ـ زهر الدين د. صالح، الوطن العربي والموساد، في موسوعة الأمن والاستخبارات في العالم، المركز الثقافي اللبناني (بيروت،٢٠٠٣) ص١٠١؛ راجع: عمّار نزار، الاستخبارات الإسرائيليّة، ص٩٢.

بغرض إثارة النعرات الطائفيّة. وقد تمكّنت أجهزة الأمن اللبنانيّة من اعتقال الشبكة، واعترف أفرادها بتعاملهم مع المخابرات الاسرائيليّة.

وفي مصر، كثّفت الاستخبارات الاسرائيليّة عملاءها وشبكاتها التجسسيّة باعتبارها مركز الثقل الأساسيّ في الوطن العربيّ. كما أوعزت لعملائها هناك بالحصول على المعلومات المتعلّقة بأسرار الدفاع الجوّي المصري، والبحريّة التجاريّة المصريّة، وتصوير ميناء الاسكندريّة، ومعرفة عمق الماء، بالإضافة إلى معلومات عن السفن الحربيّة في المنطقة، وعن الشيوعيّة وانتشارها، والأوضاع السياسيّة والاقتصاديّة.

كان من أهمّ هؤلاء العملاء المهندس البحري المصري "محسن الراهب"، وقبطان السفينة السويديّة "جيلبيرت أرسون"، والسويديّة "ماريا ليك"، و"محمّد ابراهيم فهمي كامل"، و"سمير وليم باسيلي" ووالده، والمقدّم "مايوغا" الذي كان يشغل منصب الملحق العسكري لسفارة الفيليبّين في القاهرة، وقد أبعدته أجهزة الأمن المصريّة في ١٧ شباط ـ فبراير ١٩٧٠ بعد أن كشفت نشاطه التجسّسيّ لصالح الاستخبارات الاسرائيليّة. وتلى ذلك إبعاد "هربرت فرغسون" الملحق الزراعي الأميركيّ بعد أن وجّهت إليه تهمة التعامل مع إسرائيل والتهريب لصالحها[١]. بالإضافة إلى قبطان السفينة الاسبانيّة "أنطونيو كاناليس"، و"محمّد القدسي"، و"منير عبد الغني"، و"سليمان سليمان"، و"فوزات شفيق"، و"شاكر فاخوري"، و"نبيل النحّاس"، و"عبدالله أبو ندا"، و"جمال حسنين"، وسواهم[٢].

---

١ ـ راجع: عمّار نزار، الاستخبارات الإسرائيليّة، ص٦٧.

٢ ـ الفالوجي فريد، جواسيس الموساد العرب، مكتبة مدبولي (القاهرة،٢٠٠٣)

وجنّدت المخارات الاسرائيليّة من جملة من جنّدت، المصري "محمّد عمر حمّـودة" الذي عرض بنفسه خدماته على المخـابرات الصهيونيّـة بعد أن اتّصل بقنصليّتهـا فـي اسطنبول، واستقبله معـاون الملحـق العسكريّ الاسـرائيليّ والمسؤول عـن التجسّـس والمخابرات فيها وهو النقيب سامي، فكلّفه بكتابة تقرير عن كـلّ مـا يعرفـه عـن وطنـه وعن المقاومة، فنفّذ ذلك في ستّ صفحات أعجبت أسياده لما فيها من دقائق الأسـرار، فنُقل من فندقه إلى فندق درجة أولى وخضع لدورة تجسّس ثمّ أرسـل إلـى لبنـان لجمـع المعلومات عن الفدائيّين الفلسطينيّين ومنظّماتهم. وفي بيروت قدّم نفسه لمندوب إحـدى المنظّمات، وهذا بدوره قدّمه إلى قائد المنظّمـة عارضًـا خدماتـه، فقُبـل وخضـع لـدورة تدريبيّة في أحد معسكرات المنظّمة دامت شهرًا. ثمّ بدأ تنفيذ مهمّته مسجّلاً كلّ صغيرة وكبيرة في ما يتعلّق بالمقاومة ومسؤوليها ومواقعها وعناصرها وأسلحتها. ثمّ استأذن منظّمته بالسفر إلى القاهرة بحجّة تصديق الشهادة الثانويّة العامّة التي يحملها ليتسنّى له الالتحاق بجامعة بيروت العربيّة بغيـة زيـادة ثقافتـه خدمـة للمقاومـة علـى حدّ تعبيره، فوافقوا له. عندها سافر إلى اسطنبول حيث قدّم معلوماته إلـى المخـابرات الاسرائيليّة، فأعطاه النقيب سامي مبلغ خمسمائة دولار ثمن هذه المعلومات القيّمة. ثمّ كُلّف بعدها العمل في القاهرة بعد أن حُدّدت مهمّته على ورقة سجّل عليها الطلبات المفروض عليه تقديمها وتتضمّن ١٢ طلبًا. إلاّ أنّ المخابرات المصريّة قد اعتقلته بعد أن حـاول تجنيد طلاّب من رفاق أخيه في الجامعة للعمل معـه لصـالح المخـابرات الاسرائيليّة بعد أن استضافوه وأكرموه بسبب غياب أخيه. فحُكم عليه بالسجن المؤبّـد مـع الأشغال الشـاقّة مدّة ٢٥ سنة.

يرى باحثون أنّ السبب الرئيسيّ الذي أدّى إلى سقوط بعض الأفـراد العـرب فـي مصيدة المخابرات الاسرائيليّة هـو ضعف الحالـة الماديّـة التـي سيطرت علـى مصر

خصوصًا إثر حرب ١٩٦٧. في المقابل، كـانت المخـابرات الاسرائيليّة تنفق الأموال الطائلة على عملائها، وتغرقهم أيضًا في بحور الرغبة وتُشبع فيهـم نزواتهم... وبذلك كانت تتمّ السيطرة عليهم. وعند استشراء ظاهرة التجسّس لصالح العدوّ من قبل بعض الشبّان المصريّين بعد حرب ١٩٦٧، أعلنت الخـابرات المصريّـة فـي كـانون الثـاني ـ يناير ١٩٦٨ عن أنّها ستسـاعد كلّ مـن تـورّط مـع العدوّ، ووقـع فـي فخّ الجاسوسيّة بالإغراء والتهديد، وأنّهـا علـى استعداد للتغاضي عن كلّ مـا أقدم عليـه أيّ مواطن عربيّ، إذا ما تقدّم بالإبلاغ عن تورّطه مع الموساد مهمـا كـان منغمسًا فـي التجسّس، وذلك لتفويت الفرصة على المخابرات الاسرائيليّة. ووعد الرئيس جمـال عبد النـاصر صراحة بحماية كلّ متورّط بالتجسّس لأيّ سبب. وقد أسفرت هذه الخطّـة عن تقدّم سبعة مصريّيـن إلـى جهاز المخـابرات المصريّـة حيث اعترفوا بتورّطهم وشـرحوا ظروف سقوطهم[١]. بيد أنّ الكثيرين منهم قد استمرّوا فـي ضلالهـم، إلـى أن سقطوا بأيدي أجهزة الأمن المصريّة، فكـان جزاء بعضهم الإعدام، وبعضهم الآخر السجن لمدد مختلفة تبعًا لماهيّة الجرم الذي اقترفوه.

أمّا العـراق، فقد اتّخذت منـه الاستخبارات الاسرائيليّة مركزًا للحصـول علـى المعلومـات المتعلّقـة بـدول الخليج وعلاقتهـا بـالعراق، وكذلـك عـن الثـورة العمانيّـة والمعدّات السوفياتيّة التي تمّ تجهيز الجيش العراقي بها، كالرادار والدبّابـات السـوفياتيّة من طراز "ت ـ ٥٤" و"ت ـ ٥٥"، ومعلومات تفصيليّة عن تمـرّد الأكراد فـي الشـمال. وقد كانت تلك الشبكة بإدارة المدعو "يعقوب يوسـف"، وبعد اكتشـافها علـى يـد أجهزة الأمـن العراقيّـة اعترف أعضاؤها أنّ مينـاء "عبدان" كـان مركـز الاتّصـال وجمـع

---

١ ـ الفالوجي فريد، جواسيس الموساد العرب، ص٨٠.

المعلومات. وكان هناك شبكة أخرى بقيادة ملازم أوّل في الجيش العراقيّ، ولكنّه طـرد منه، هو "جواد الحدّاد"، الذي جنّدته المخـابرات الاسرائيليّة للحصـول علـى معلومـات عسكريّة عن الجيش العراقيّ. وقد اكتشفت السلطات العراقيّة هذه الشبكة بتاريخ الثالث عشر من أيّـار ـ مـايو ١٩٦٩ حيث اعترف أعضاؤها بـأنّ الأرض الإيرانيّـة كـانت المنطلق لكلّ تحرّكاتهم. كما أنّ الرؤوس التي كانت تدير تلك الشبكة كانت تتّخـذ أيضًـا من إيران مراكز انطـلاق واتّصـال. كمـا جـاء فـي اعترافـات أعضـاء هـذه الشـبكة أنّ إسرائيل أرسـلت سـتّة عشر ضابطًـا للاسـتخبارات إلـى إيـران بمهمّـة لإدارة عمليّـات التجسّس في منطقة الخليج العربي والعراق[١].

على أيّ حال، فإنّ تغلغل المخابرات الاسرائيليّة في الدول العربيّة عمومـًا قد أدّى عمليًا إلى تمركز المقاومة الفلسطينيّة في لبنان بشكل كثيف.

---

١ ـ عمّار نزار، الاستخبارات الإسرائيليّة، ص٦٧.

تشكّل المنظّمات السرّيّة اليهوديّة لتهجير الفلسطينيّين

تشكّلت في هذه الحقبة في إسرائيل منظّمات إرهابيّة صهيونيّة بهدف تهجير الفلسطينيّين وإقامة المستوطنات اليهوديّة في الأراضي المحتلّة. أبرز تلك النظّمات "جمعيّة جوش إيمونيهم"، و"رابطة أمانا"، و"رابطة الأمن على طريق يهوذا والسامرة"، و"منظمة ماعتس"، و"حركة الإرهاب للإرهاب"...

جمعية "جوش إيمونيهم"، تكوّنت عام ١٩٦٧ من حاخامات خرّيجي مدرسة "مركاز هاريّا". وتهدف لزرع الخوف والهلع والفزع في نفوس العرب بهدف ترك أراضيهم حتى يتمكن اليهود من إقامة المستوطنات لتحقيق دولة خالصة بلا عرب، وقد انضمّت هذه الجمعيّة إلى حزب "المفدال" أو "المتديّنين الوطنيّين"، ثمّ انفصلت عن المفدال بعد حرب ١٩٧٣. تُدعَم هذه المنظّمة بشكل مباشر وغير مباشر من الحكومة الإسرائيليّة وتموّل من أرباب الصناعة ورجال البنوك الأغنياء. وقُدّمت مكافأة للمنظمة بعد اعتداءتها على مدينة الخليل. ولها مموّلون خارج فلسطين المحتلّة من إدارة الكازينوهات وبعض دور القمار في لندن، ومن تجارة الأسلحة.

وهناك قاعدة تنطلق منها المنظمات الارهابيّة، مثل منظّمة "أمانا"، تلك القاعدة هي كناية عن تنظيم يقيم المستوطنات في قطاع غزة ومنطقتي الخليل ونابلس. وهو تنظيم يؤمن بضرورة استخدام العنف للاستيطان في الأرض العربيّة المحتلّة. ولهذه الجماعات الإرهابية صحيفة إسمها "نكودا"، تطرح الأفكار الصهيونيّة الارهابيّة ضدّ

العرب وتدعو لقتلهم وطردهم من فلسطين. ومن أبرز قادتها الحاخام الإرهابي "تسفي يهودا كوك" ووالده، والحاخامات "موشي ليفيجي" و"حاييم دور" و"حنان يورات".

هذه الجمعية هيّ أوّل من أقام مستوطنة في الأراضي العربيّة المحتلّة وهي مستوطنة "ألون موريه".

أمّا "رابطة الأمن على طريق يهوذا والسامرة" فقد تكوّنت عام ١٩٦٧. وتُعدّ من أشهر المنظّمات الارهابيّة السريّة. وهي تهدف لطرد العرب وإقامة المستوطنات، وتقوم بأعمال الإغتيالات. وقد نفّذت الإغتيالات في إحدى قيادات حركة السلام "اميل غربنسفايغ". كما تقوم بتسليح نفسها بسرقة أسلحة من الجيش الاسرائيلي عن طريق عناصرها في داخله. وهي تتمتّع بالسريّة في تحرّكاتها ونشاطاتها وزعاماتها وعناصرها من المدرّبين على العمليّات الارهابيّة، وقد نفّذت عمليّات عنف ضدّ السكّان العرب في الأرض المحتلة.

منظمة "ماعتس": منظّمة إرهابيّة أهدافها كأهداف منظمة "جوش ايمونيم" الإرهابيّة، وتضيف لأهدافها هدفًا جديدًا هو ضرب الذين ينادون بالسلام في إسرائيل أو الذين يطالبون بإعطاء الحقوق الإنسانيّة للسكّان العرب، وتقوم بعمليّات سطو كثيرة داخل تل أبيب وغيرها من المدن. وهي تساند الإرهابيّ الحاخام "كاهانا". أمّا تمويلها فيتمّ عن طريق سرقة الشركات والمزارع. وقد شكّل رئيسها "يوسف عانوا" حكومة من المجرمين المطلوبين للشرطة، وعيّن فيها وزيرًا للزراعة، ما يعني أنه مسؤول عن السرقات الزراعيّة، ووزيرًا للمواصلات، لسرقة السيّارات، ووزيرًا للماليّة، لسرقة البنوك... وهكذا قامت المنظّمة بالعديد من العمليّات الارهابيّة ضدّ العرب.

أمّا "حركة الإرهاب للإرهاب"، فتكوّنت في العام ١٩٦٩، ويُعتقد أنّ منظّمة "الإرهاب للإرهاب" هي الجناح العسكري لحزب "كاخ" الذي يتزعّمه الحاخام "مائير

كاهانا"، وهو إرهابي دوليّ، لـه علاقـات بألمانيـا وعصابـات الإجـرام وتجـارة السـلاح والماريجونا وتزوير جوازات السفر، وتقول هذه المنظّمة بضـرورة إبـادة العـرب عن طريق تنظيم جماعات مسلحة تهدم بيوتهم، وبضرورة ضمّ الضفّة الغربيّة، وبلا سـلام مـع العـرب، بمـا فـي ذلـك مصـر، وبإقامـة حـدود مملكــة إســرائيل الثالثــة، وبإقامــة المستوطنات في الضفّة وغزّة، وبضرب الذين ينادون بالسلام مع العـرب مـن الشـعب اليهودي، وبالاستيلاء على الحكم لتنفيـذ برنامجهـا السياسـيّ. وتضـمّ فـي قيادتهـا "إيلـي هازئيق" و"يوال لاتـر". وقـد قـامت بأبشـع أعمـال التفجير والإبـادة والقتـل والاغتيـال. ويعرف عن قيادتها العداء السافر للعرب، وتاريخها حافل بالإرهاب والإجرام[١].

---

١ ـ عابدين، المخابرات والأمن والجاسوسيّة، ص١١٧ ـ ١١٨، ١٢٠.

المُناضِلون الفَلسطينيّون في كافّة الأقطَار

في هذا الوقت، انتقل المناضلون الفلسطينيّون بمعركتهم إلى مواقع أخرى. فقد تلقّت المخابرات الاسرائيليّة في عام ١٩٦٨ تقارير متفرّقة من الأجهزة السريّة الصديقة في أوروبا تفيد بأنّ الفرق الفلسطينيّة ضاعفت جهودها لاجتذاب المتطوّعين من الدوائر اليساريّة الراديكاليّة في أوروبّا، وأنّ "جورج حبش" زعيم الجناح الماركسي اللينيني في منظّمة التحرير الفلسطينيّة المعروف باسم "الجبهة الشعبيّة لتحرير فلسطين" هو الذي يقوم بالقسم الأكبر من عمليّة التجنيد. وقام مبعوثون يعملون لحساب ياسر عرفات وجورج حبش وآخرين بجولات في إيطاليا وهولندا وفرنسا وألمانيا الغربيّة، مستخدمين الأيديولوجيّة الرفاقيّة والحوافز الماليّة، لدفع الشباب الأوروبيّ للحضور إلى الشرق الأوسط ومحاربة الاحتلال الصهيونيّ وحلفائه الإمبرياليّين. وقد استجاب العشرات من المتطوّعين لنداء منظّمة التحرير الفلسطينيّة، وأتوا إلى الأردن ولبنان حيث تلقّوا تدريباتهم في معسكرات الفدائيّين، واشتركوا في بعض العمليّات ضدّ إسرائيل. وفي الوقت الذي كانت فيه المخابرات الاسرائيليّة تحاول رسم تصوّر لما يجري في عقول الفلسطينيّن خارج الشرق الأوسط، فجّر المقاومون من أتباع جورج حبش مفاجأة لها بوضع شركة الطيران الاسرائيليّة "العال" كهدف لهم.

وفي أوّل تقرير من نوعه، أبلغ رئيس شين بيت هارميلين رئيس الوزراء ليفي أشكول أنّ طائرة "بوينغ ٧٠٧" تابعة لشركة العال، قد اختطفت، وهي في طريقها من

روما إلى تـلّ أبيب، وهبطت في الجزائر. جرى الاختطاف في ٢٣ تمّوز "يوليو" ١٩٦٨ بواسطة ثلاثة من العرب، في اليوم نفسه الذي كانت تشنّ فيه الجبهة الشعبيّة لتحرير فلسطين حملة فدائيّة واسعة. وقد عجزت شين بيت وبقيّة مؤسّسات المخابرات الاسرائيليّة عن القيام بأيّ ردّ فعل على الفور سوى مراقبة التطوّرات.

ظلّ ركّاب طائرة العال وطاقمها محتجزين في الجزائر لمدّة ثلاثة أسابيع، ولم يفرج المختطفون الفلسطينيّون عن الرهائن إلاّ بعد أن وافقت إسرائيل على الإفراج عن اثني عشر فدائيًّا فلسطينيًّا من السجون الاسرائيليّة.

وهكذا بدا أنّ المقاومين الفلسطينيّين قد أخذوا زمام المبادرة في أيديهم. وفي ٢٦ كانون الأوّل - ديسمبر ١٩٦٨ ألقى اثنان من الجبهة الشعبيّة لتحرير فلسطين قنابلهما وفتحوا نيران أسلحتهما على طائرة تابعة لشركة العال في مطار أثينا، وقتلوا راكبًا إسرائيليًّا وجرحوا مضيفتَين. وحدث هجوم مماثل في مطار زوريخ في ١٨ شباط - فبراير التالي، عندما قتل أربعة رجال من الجبهة الشعبيّة قائد طائرة تابعة لشركة العال وجرحوا خمسة من الركّاب. وأصبحت الطائرات الأخرى المتّجهة إلى إسرائيل هدفًا للاختطاف والتفجير. وبدا أنّ الكرة الأرضيّة بأسرها قد تحوّلت إلى قرية كونيّة للعمليّات الفدائيّة، ولم يعد هناك أيّ هدف خارج نطاق العمليّات وبصفة خاصّة إذا ما كان مرتبطًا بإسرائيل.

كانت المنافسات الداخليّة بين وكالات المخابرات الاسرائيليّة في تلك الأثناء على أشدّها رغم أنّه كان هناك اتّفاق في ما بينها يقضي بالتعاون على محاربة المقاومة الفلسطينيّة. ذلك أنّ الموساد أرادت أن تحتكر العمليّات الخارجيّة. ولكنّ الوكالة قد اضطرّت في النهاية أمام تعاظم ضربات المقاومة للقبول على مضض بأن يكون لوكالة شين بيت الحقّ في توسيع نشاطها إلى الخارج في الملاحقة الساخنة للعمليّات

الفدائيّة. وانطلاقًا من هذا الواقع، تمّ إلحاق ضبّاط وعملاء شين بيت بمراكز الموساد التي تتّخذ من السفارات الاسرائيليّة مقرًّا لها، على سبيل الإعارة، أو أنّه كان يتمّ تعيين مثل هؤلاء الضبّاط والعملاء في أوروبّا من جانب شين بيت بصورة مستقلّة.

لعب عملاء إسرائيل مع الفلسطينيّين لعبة القطّ والفأر السريّة المميتة التي دارت بدون أيّ حدود. وتركّزت مسؤوليّات شين بيت على تطوير الوسائل الدفاعيّة لمناهضة العمليّات الفدائيّة. ويذكر رئيس وكالة شين بيت "هارميلين" أنّ الإسرائيليّين كانوا على حافّة اليأس المطبق، وبحسب تعبيره، "فإنّ النضال ضدّ الإرهاب، وبخاصّة الإرهاب الجويّ، بدا كما لو كان مستحيلاً". وتعيّن على وكالته أن تبني نظامًا فعّالاً لمواجهة المشكلة، من خلال حماية الأهداف الاسرائيليّة في الخارج المتمثّلة في السفارات والبنوك ومكاتب السياحة وشركة الطيران الاسرائيليّة، التي لم يتوقّف الدفاع عنها على حماية أسطول الطائرات، بل شمل أيضًا التسهيلات الأرضيّة التي أصبحت من أهداف العمليّات الفدائيّة. واضطرّت إسرائيل إلى وضع مُرافق مسلّح على كلّ رحلة طيران، يجلس متخفّيًا في المقاعد العاديّة مع سائر الركّاب، مرتديًا ملابس مدنيّة. وكان جميع هؤلاء المرافقون المسلّحون من عناصر الوحدات الخاصّة الذين يجيدون سرعة استخدام السلاح، كما كانوا من الناحية الرسميّة يعملون كموظّفين في شركة الطيران. إلاّ أنّ شين بيت هي التي قامت بتدريبهم وتحديد أهدافهم.

مع إنفاق ملايين من الدولارات أصبحت العال أكثر أمنًا. ولم يعرف العالم بهذا الإجراء إلاّ بعد أن ردّ أحد المرافقين المسلّحين النيران أثناء الهجوم الذي وقع في زوريخ في شباط - فبراير ١٩٦٩، فقد شهر رجل العال المسلّح "موردخاي راشاميم" مسدّسه خلال الهجوم الذي شنّته الجبهة الشعبيّة لتحرير فلسطين، وقتل واحدًا من الفلسطينيّين على أرض مطار "كلوتين". وألقت السلطات السويسريّة القبض على

راشاميم وثلاثة من الفدائيّين الجرحى، وقضى الإسرائيليّ بضعة شهور في السجن قبل عودته إلى إسرائيل. ولأنّ شخصيّته انكشفت بعد نشر صورة لـه في الجرائد العالميّة وعلى شاشات التلفزة، قامت شين بيت بتعيينه كحارس شخصيّ لغولدا مائير التي أصبحت رئيسة للوزراء في آذار ـ مارس ١٩٦٩ بعد وفاة ليفي أشكول، وهي وظيفة لا تتطلّب إخفاء صاحبها.

وعلى العموم، فعندما بدأت منظّمة التحرير الفلسطينيّة بالهجوم على السفارات والدبلوماسيّين الاسرائيليّن في أوروبّا وآسيا، كانت شين بيت قد أصبحت مستعدّة للردّ عليها، وتحولّت السفارات والمكاتب القنصليّة الاسرائيليّة إلى قلاع، وأصبحت أبواب الصلب السميكة تحمي مداخلها، ووضعت كاميرات تلفيزيونيّة لفحص كلّ الزوّار، وأحيطت مسطّحات المباني بأجهزة الإنذار الإلكترونيّة، وعُهد إلى حرّاس من شين بيت بمراقبة المباني وحماية أطقمها. وبذلت إدارة "الأمن الوقائي" في شين بيت كلّ ما في وسعها للدفاع عن المكاتب الاسرائيليّة في الخارج.

إلاّ أنّ رؤساء الأجهزة السريّة كانوا يعرفون أنّهم بحاجة إلى إجراءات أقوى لردع الأعمال الفدائيّة. ولتحقيق ما هو أبعد من الدفاع السلبيّ، انطلقت المخابرات الاسرائيليّة بأقصى سرعتها إلى القيام بعمليّات هجوميّة. غير أنّ تلك الهجمات قد جعلت من إسرائيل دولة إرهابيّة بنظر العالم قاطبة، خاصّة عندما هاجمت قوّاتها مطار بيروت الدولي في الثامن والعشرين من كانون الأوّل ـ ديسمبر ١٩٦٨، ونسفت ثلاث عشر طائرة ركّاب مدنيّة تابعة لشركة طيران الشرق الأوسط اللبنانيّة ولشركات عربيّة أخرى، وذلك بحجّة أنّ الفدائيّين الذين قاموا بعمليّة الهجوم على مطار أثينا في ٢٦ كانون الأوّل ـ ديسمبر قد انطلقوا من مطار بيروت. علمًا بأنّ قرار الهجوم على مطار بيروت قد اتُخذ في اجتماع خاص عقده مجلس الوزراء الاسرائيلي في مكتب رئيس

الوزراء ليفي أشكول بحضور قادة الخابرات والقادة العسكريّين. وقد أصيب العالم بأسره بالصدمة جرّاء هذه العمليّة الإرهابيّة التي قامت بها دولة. وأدانت الدول إسرائيل لتورّطها في ما يسمّى بإرهاب الدولة. وقد برّر رئيس الوزراء الاسرائيليّ موقفه بحجّة واهية تقول بأنّه لم يكن على علم بكافّة الأشياء، وبأنّ وزير الدفاع موشي دايان قد خدعه عندما ذكر له أنّ أربع طائرات فقط سيتمّ نسفها في العمليّة.

وتحوّلت الحرب ضدّ العمليّات الفدائيّة إلى صورة أكثر بشاعة في عام ١٩٧٢، بعد أن خطف أربعة فلسطينيّين طائرة ركّاب بلجيكيّة تابعة لشركة "سابينا" في الثامن من أيّار - مايو كانت في طريقها من بروكسل إلى تلّ أبيب. واستولى الخاطفون عليها في موعد هبوطها بمطار اللد، واحتجزوا حوالى مائة من الركّاب وطاقم الطائرة تحت تهديد السلاح داخل طائرة الـ"بوينغ ٧٠٧"، وطالبوا إسرائيل بالإفراج عن ٣١٧ من الفدائيّين المعتقلين. وقد أجرى الجنرال "أهارون ياريف" رئيس أمان مفاوضات مع الرجلين والسيّدتين الذين استولوا على الطائرة، واستخدم براعته في الحديث في الوقت الذي كانت القوّات الإسرائيليّة تعدّ العدّة لردّ الفعل الحقيقيّ.

وبناء على أوامر الوزراء، بدأت وحدة خاصّة مدرّبة على اقتحام الطائرات عملها في الرابعة والدقيقة الثانية والعشرين من صباح التاسع من أيّار - مايو. واقتحم الطائرة الكوماندوس الذين كانوا يرتدون ألبسة رجال صيانة الطائرات، وقتلوا الفدائيّين وجرحوا راكبتين، وتوفّي راكب إسرائيليّ خلال تبادل إطلاق النيران[١].

---

١ ـ رافيف دان، وميلمان يوسي، أمراء الموساد، ص٢٤٣ ـ ٢٤٥؛ ٢٤٧ ـ ٢٤٨؛ ٢٥٢؛ كاتس شموئيل، إسرائيل في مواجهة جبريل، حرب الثلاثين عامًا ضدّ أخطر قائد فلسطينيّ، ترجمة تحسين حلبي، تقديم ومراجعة اسماعيل دبج، دار بيسان (بيروت،١٩٩٧) ص٤٨.

إغتيَال الكَاتِب غسَّان كنفاني

بعد مرور نحو عشرين يومًا على عمليّة طائرة "سابينا" في مطار اللد، وتحديدًا في ٣٠ أيّار ـ مايو ١٩٧٢، قتل ثلاثة من رجال الجيش الأحمر الياباني ٢٧ راكبًا، أغلبيّتهم من الحجّاج المسيحيّين من بورتوريكو، كانوا قد وصلوا لتوّهم إلى مطار اللدّ. وبعد فترة وجيزة من الارتباك، ردّ حرس الأمن على الهجوم وقتلوا اثنين من المهاجمين، وألقوا القبض علىّ "كوزو أوكاموتو" الذي اعترف أثناء المحاكمة بأنّه وزميله ارتكبوا عملهم كنوع من التضامن لصالح الجبهة الشعبيّة لتحرير فلسطين، وأنّ العمليّة جاءت انتقامًا من الفشل الذي أحاق بعمليّة الطائرة التابعة لسابينا قبل ثلاثة أسابيع في مكان لا يبعد إلاّ مئات قليلة من الأمتار عن مكان العمليّة التي قام بها اليابانيّون على أرض مطار اللد. ولم يطلق سراح أوكاموتو إلاّ بعد سنوات في خلال عمليّة تبادل للأسرى، وجاء إلى منطقة البقاع اللبنانيّ.

وبعد مضيّ أسابيع، حلّ الدور على الاسرائيليّين للانتقام، حيث قتلت سيّارة مفخّخة في بيروت، الكاتب الفلسطيني "غسّان كنفاني" المتحدّث باسم الجبهة الشعبيّة والذي اتّهمه الإسرائيليّون بالتخطيط لعمليّة اللد. وبعد يومين اثنين، انفجرت رسالة ملغومة بين يدي مسؤول آخر في الجبهة الشعبيّة لتحرير فلسطين وهو "بسّام أبو شريف"، الذي فقد عينًا وعددًا من أصابعه. وكانت تلك الرسالة على غرار الطرود الملغومة التي قتل بها الاسرائيليّون الضبّاط المصريّين في خمسينات القرن العشرين، والرسائل الملغومة التي أرسلت من قبل العملاء الإسرائيليّين للعلماء الألمان في مصر في بداية ستّينات القرن العشرين.

أمّا الأديب والشاعر الذي اغتالته المخابرات الإسرائيليّة، فهو من مواليد عكّا بفلسطين عام ١٩٣٦، في تلك السنة التي شهدت أطول إضراب عربيّ في التاريخ ضدّ الاستعمار البريطانيّ والصهاينة.

ولد في عائلة متوسّطة، وانتقل مع أبويه إلى يافا حيث تلقّى دراسته الابتدائيّة في مدرسة تابعة لإرساليّة فرنسيّة، وقبل أن يكمل عامه الثاني عشر، قامت العصابات الصهيونيّة بمهاجمة المدن الفلسطينيّة وارتكبت فيها المذابح التي تقشعرّ لها الأبدان، فاضطرّ غسّان إلى النزوح مع عائلته المكوّنة من أبويه وجدّه وسبعة أشقّاء إلى جنوب لبنان، حيث أقاموا هناك حقبة قصيرة من الزمن، قبل أن تنتقل العائلة إلى دمشق.

وفي بداية خمسينات القرن العشرين التحق غسّان كنفاني بحركة "القوميّين العرب" المناهضة للاستعمار والاحتلال. وفي عام ١٩٥٣ كتب قصّته الأولى "أنقذتني الصدفة" وأرسلها إلى برنامج أسبوعيّ كانت تبثّه إذاعة دمشق تحت إسم "ركن الطلبة". وبالفعل أذيعت القصّة مساء ٢٤ تشرين الثاني ـ نوفمبر ١٩٥٣. ثمّ نشر قصّته الثانية "شمس جديدة" في جريدة "الرأي" عام ١٩٥٣، وتدور أحداث القصّة حول طفل صغير من غزّة. وفي العام ١٩٥٦ سافر غسّان إلى الكويت ليعمل مدرّسًا للرسم والرياضة في مدارسها الرسميّة. وكان في هذه الأثناء يعمل في الصحافة، كما بدأ إنتاجه الأدبيّ في الحقبة نفسها بالنضوج. وهناك من خلال مشاهدته للصحراء، ولأبناء شعبه، وللعلاقات السائدة، راح يختزن في ذهنه مئات الصور والفواجع الإنسانيّة، ليستفيد منها بعد سنوات في روايته الشهيرة "رجال في الشمس" التي كتبها عام ١٩٦٣.

انتقل كنفاني إلى بيروت عام ١٩٦٠، حيث عمل محرّرًا أدبيًا في جريدة "الحريّة" الأسبوعيّة، ثمّ أصبح عام ١٩٦٣ رئيسًا لتحرير جريدة "المحرّر". كما عمل في جريدة

"الأنوار" تحت إسم "فارس فارس"، وكذلك في مجلّة "الحوادث" حتّى عام ١٩٦٩، والتي نشر فيها روايتين شهيرتين بعنوان "من قتل ليلى الحايك؟"، و"عائد إلى حيفا". ثمّ أصدر مجلّة "الهدف" الأسبوعيّة الناطقة بلسان الجبهة الشعبيّة لتحرير فلسطين، وبقي رئيسًا لتحريرها حتّى استشهاده.

يمثّل غسّان كنفاني نموذجًا خاصًّا للكاتب السياسيّ والروائيّ والقاصّ والناقد. فكان مبدعًا في كتاباته كما كان مبدعًا في حياته ونضاله. وقد نال سنة ١٩٦٦ جائزة "أصدقاء الكتاب في لبنان" لأفضل رواية عن روايته "ما تبقّى لكم". كما نال بعد استشهاده جائزة منظّمة الصحافيّين العالميّة عام ١٩٧٤، ونال عام ١٩٧٥جائزة "اللوتس" التي يمنحها اتّحاد كتّاب آسيا وأفريقيا.

وفي صباح الثامن من تمّوز - يوليو ١٩٧٢، وبعد دقائق معدودة على خروج غسّان كنفاني من منزله في الحازميّة، الضاحية الشرقيّة لبيروت، كعادته إلى مركز عمله في مجلّة "الهدف"، وبرفقته "لميس حسين نجيم" إبنة شقيقته، دوّى انفجار كبير اهتزّت له منطقة الحازميّة، وسمع في مختلف أنحاء العاصمة بيروت. وتطاير على أثره غسّان كنفاني كما تتطاير الشظايا في الفضاء.

استشهد غسّان كنفاني على أيدي عملاء إسرائيل عندما زرعوا عبوة ناسفة في سيّارته الخاصّة من نوع "أوبل"، وهي كناية عن قنبلة بلاستيكيّة ومعها خمسة كيلوغرامات من الديناميت انفجرت بدورها لتفجّر السيّارة ومن فيها.

وفي هذا الإطار، تقول زوجته الدانماركيّة ورفيقة نضاله السيّدة آني: "بعد دقيقتين من مغادرة غسّان ولميس، سمعنا انفجارًا رهيبًا وتحطّمت كلّ نوافذ البيت. نزلت السلّم راكضة لكي أجد البقايا المحترقة لسيّارته. وجدنا لميس على بعد بضعة أمتار. ولم نجد

غسّان. ناديت عليه... ثمّ اكتشفت ساقه اليسرى. وقفت بلا حراك، في حين أخذ إبننا فائز يدقّ رأسه بالحائط، وابنتنا ليلى تصرخ: بابا .. بابا.. لقد قتلوك".

وجد المحقّقون إلى جانب السيّارة المنسوفة ورقة كتب عليها: "مع تحيّات سفارة إسرائيل ـ كوبنهاغن". هذه الورقة لها معناها المحدّد. وهي تكشف عن جانب هامّ من جوانب نضال غسّان كنفاني السياسي. فهو كان متزوّجًا من الدانماركيّة "آني" التي التقى معها لأوّل مرّة وهي تقوم بزيارة لبعض الدول العربيّة لإعداد دراسة عن اللاجئين الفلسطينيّين، وقد تعرّفت إلى غسّان باعتباره كاتبًا فلسطينيًّا يمكن أن يساعدها في إعداد بحثها وتقصّي الحقائق. وانتهت هذه المعرفة إلى الزواج. وكان لها دور كبير في حياة غسّان وفي نضاله السياسيّ ونشاطه الثوريّ. وقد اعتمد عليها في توثيق صلاته بكثير من الأوساط الأوروبيّة، وعلى مساعدتها له في الحصول على كثير من الوثائق المتّصلة بواقع العرب في الأرض المحتلّة.

في اليوم التالي لاستشهاد غسّان كنفاني، صدرت مقالات كثيرة في الصحف الاسرائيليّة تتحدّث عن علاقة الرحل بأعضاء الجيش الأحمر الياباني الذين قاموا بعمليّة مطار اللد. ومن جملتها تعليق كتبه "زئيف شيف" في جريدة "هآرتس" في عددها الصادر بتاريخ ٩ تمّوز ـ يوليو ١٩٧٢ جاء فيه:

"إنّ كنفاني هو الرجل الثالث في المنظّمة بعد جورج حبش والدكتور وديع حدّاد... وبينما كانت هناك حراسة مشدّدة على حبش وحدّاد، كان كنفاني مكشوفًا أكثر بسبب مهمّته كناطق باسم الجبهة، وكرئيس تحرير لمجلّتها "الهدف"... ويعتبر عسكريّون وخبراء بشؤون الفلسطينيّين مقتل كنفاني ضربة قاسية[١]".

---

١ ـ زهر الدين د. صالح، ملفّ الاستخبارات الإسرائيليّة، ص١٢٣ ـ ١٢٧.

عمليّة "أيلول الأسوَد" في ميونيخ وتداعياتها

وصلت الدائرة المفرغة من العنف والانتقام بين المقاومة الفلسطينيّة والاحتلال الإسرائيليّ إلى ذروتها في دورة الألعاب الأوليمبيّة التي جرت في ميونيخ في الخامس من أيلول ـ سبتمبر ١٩٧٢، عندما قام سبعة من الفدائيّين العرب باحتجاز أحد عشر من الرياضيّين الإسرائيليّين في القرية الأولمبيّة، وكان الفدائيّون من منظّمة أيلول الأسود"، نسبة إلى الشهر الذي سحق فيه الملك الأردني حسين المسلّحين الفلسطينيّين في عام ١٩٧٠. وكان الهدف الرئيسيّ لمنظّمة أيلول الأسود، وهي فرع سرّي لمنظّمة التحرير الفلسطينيّة، رغم تظاهرها بأنّها مجموعة منفصلة، هو الانتقام من الملك حسين. وهكذا تعرّضت الأهداف الأردنيّة لعدد من الهجمات، إلاّ أنّ أيلول الأسود سرعان ما أدارت بنادقها ضدّ إسرائيل.

وكما حدث في حوادث الاحتجاز الأخرى، طلبت المجموعة الفلسطينيّة في أوليمبياد ميونيخ فدية من إسرائيل، تتمثّل في الإفراج عن ٢٥٠ معتقلاً من المناضلين الفلسطينيّين في السجون الإسرائيليّة، ورفضت الحكومة الإسرائيليّة التزامًا منها بسياستها الثابتة وامتنعت عن الإفراج عن الفدائيّين. وفي الوقت الذي كانت فيه وسائل الإعلام في العالم تذيع الأنباء عن عمليّة الاحتجاز والمطالب الفلسطينيّة، مثيرة بذلك موجة من التعاطف مع الرياضيّين اليهود المحتجزين على أرض أمانيا، ألقت غولدا مائير رئيسة الوزراء الإسرائيليّة مسؤوليّة ما يحدث في ميونيخ على زفي زامير

رئيس الموساد الذي كان يحظى بثقتها، والذي طار على الفور إلى أرض العمليّة، وأجرى مشاورات عاجلة مع المسؤولين عن الأمن في ألمانيا الغربيّة. وبناء على الأوامر المباشرة لرئيسة مجلس الوزراء، ومسلّحًا بخبرته في إنقاذ الركّاب على متن الطائرة البلجيكيّة المختطفة التي اخطفت قبل أربعة شهور فقط، ناشد زمير الألمان الغربيّين السماح لمجموعة من "سايريت" المدربّة تدريبًا خاصًّا على التعامل مع مثل هذه الحالة، وكان من المحتمل أن يوافق المستشار "ويلي برانت" على هذا الطرح، إلاّ أنّ الدستور الألمانيّ الاتّحاديّ كان يضع اتّخاذ القرار في أيدي المسؤولين المحليّين عن الولاية، وقد رفض هؤلاء السماح بذلك.

وترتيبًا عليه، بقي زامير في برج المراقبة بمطار ميونيخ العسكري، يشاهد وهو بلا حول ولا قوّة الرماة الألمان غير المدرّبين على التعاطي مع مثل هذه الحالة والسيّئي التجهيز، وهم يفتحون النيران ويفشلون في قتل كلّ الفدائيّين في خلال الوابل من الطلقات، فقد ظلّ ثلاثة منهم أحياء، وقد أطلق هؤلاء نيران رشّاشاتهم وألقوا قنابلهم اليدويّة لتقتل الرهائن المكبّلين وهم جالسون في طائرات مروحيّة على ممرّ المطار. وتردّدت موجات من الصدمة في أنحاء العالم الذي رأى في العمليّة مأساة إنسانيّة تنذر أيضًا بأنّ العمليّات الفدائيّة بدأت تخرج عن السيطرة.

في إسرائيل قرّرت لجنة التحقيق فصل رئيس قسم الأمن الوقائي في شين بيت، الذي كان مسؤولاً عن حراسة الرياضيّين في الأولمبياد، ورفض رئيس شين بيت "هارميلين" بشدّة إلقاء اللوم على رئيس القسم، وهدّد لأوّل مرّة في خلال عمله بتقديم استقالته، إلاّ أنّ غولدا مائير أصرّت على أنّ ذلك الفصل يُعتبر ثمنًا بيروقراطيًّا بخسًا يتعيّن عليه أن يدفعه، وقام هارميلين بفصل مرؤوسه وهو مستاء.

بعد خمسة أيّام من وقوع الحادث، وفي الوقت الذي كانت فيه التحقيقات مستمرّة، تلقّى الدبلوماسي "زادوك أوفير" مكالمة هاتفيّة عاجلة في مكتبه بالسفارة الاسرائيليّة في بروكسيل. وهرع أوفير مسرعًا إلى مقهى "كافيه برنس" حيث أطلق عليه النار من مسافة جدّ قريبة عنصر في منظّمة "أيلول الأسود" يحمل جواز سفر مغربيًا. وقد اتّضح بعد ذلك أنّ أوفي كان ضابطًا في شين بيت يعمل تحت غطاء دبلوماسيّ بصفة السكرتير الأوّل في السفارة الاسرائيليّة في بروكسيل. أصيب أوفي في بطنه إلاّ أنّه نجا من الموت. وسرعان ما تبيّن أنّ إسرائيل تعرف الجاني، وهو عميل مزدوج كان أوفير الضابط المسؤول عنه في السفارة التي كانت مركزًا لنشاط الجاسوسيّة الإسرائيليّة في أوروبّا، وهو الدور الذي أنيط بها بعد أن طرد الرئيس الفرنسيّ شارل ديغول الموساد من باريس إثر اغتيال بن بركة.

أثار إطلاق النار في بروكسيل أضواء تحذير هائلة في قيادة الموساد وشين بيت في إسرائيل. فلأوّل مرّة يتعرّض ضابط مخابرات إسرائيليّ لإطلاق النار عليه أثناء قيامه بعمله. إلاّ أنّ عمليّة ميونيخ كانت تطغي على كلّ باقي الأحداث والاعتبارات، إلى درجة أنّ زامير بعد عودته من ميونيخ لم يقدّر أهميّة الهجوم على أوفير. فقد هرع زامير فور عودته من مطار اللدّ إلى القدس حيث أبلغ رئيسة الوزراء بالكارثة التي كان شاهدًا عليها، وبدت الدموع في عيني غولدا مائير المعروفة بصلابتها، إلاّ أنّها قد شعرت بالتمزّق بين المنطق الهادئ وبين الرغبة في الانتقام لحياة القتلى الإسرائيليّين، ولم يمض وقت طويل حتّى إندمجت الرغبتان في قرار يقضي بقتل من قاموا بالتخطيط لعمليّة القتل.

أنشأت مائير منصبًا جديدًا هو "مستشار رئيس الوزراء لشؤون مكافحة الإرهاب"، واختارت الجنرال "أهارون ياريف" للمنصب. وكان ياريف قد تقاعد لتوّه عقب قضائه

ثماني سنوات مديرًا لوكالة المخابرات العسكريّة أمـان، بعد أن أكّد مكانته في خلال حرب الأيّام الستّة في عام ١٩٦٧.

أصبح العمل الفدائيّ الفلسطينيّ الانتقاميّ الذي تدعوه إسرائيل إرهابًا يشكّل هاجسًا لمائير وزامير وياريف الذين دفعوا مجلس الوزراء لتشكيل لجنة سريّة للغاية برئاسة غولدا مائير وموشي دايان لتقرير كيفيّة الردّ على ميونيخ، وهي اللجنة التي عرفت فقط باسم لجنة "إكس"، حتّى لا تُعرف أهدافها من قبل أيّ كان، بمن فيهم أعضاء الحكومة وأعضاء الكنيست وكبار الموظّفين. واتّخذت لجنة إكس القرار السرّي للغاية القاضي باغتيال أيّ عضو في منظّمة أيلول الأسود. وكلّ من اشترك بشكل مباشر أو غير مباشر في تخطيط أو تنفيذ الهجوم الذي وقع في خلال دورة الألعاب الأولمبيّة في ميونيخ، وقد تضمّن القرار أيضًا قتل كلّ من قدّم أيّ مساعدة في هذا المجال. وكان القرار صريحًا بحيث أنّه ليس المطلوب القبض على أيّ كان من هؤلاء لمحاكمته، بل المطلوب هو الانتقام بالقتل لترويع الفدائيّين... وعهدت مائير بالمهمّة إلى الموساد.

استدعى زامير "مايكل هراري"، وهو أحد كبار العملاء في قسم العمليّات، وعهد إليه بمسؤوليّة فرق الاغتيال. وقد انتقى هراري مجموعة من المنفّذين، رجالاً ونساء، وأقام مركزًا لقيادته الأوروبيّة في باريس، وانتحل شخصيّات مزيّفة عديدة من بينها شخصيّة رجل أعمال فرنسيّ يدعى "إدوار ستانيسلا لاسكيه". وأصبح هراري ومساعده "أفراهام غيهمر"، الذي عمل في البداية سكرتيرًا أوّل للسفارة الإسرائيليّة في باريس، مسؤولَين عن التخطيط للعمليّة. وقد جمع الإسرائيليّون في البداية قائمة بأسماء العرب الذين اشتركوا في عمليّة ميونيخ، وبدأ فريق الاغتيال بعد ذلك في تتبّع الرجال "المطلوبين" على قائمتهم، وكان معظم هؤلاء قد بقي في أوروبا حيث كانوا يعملون في مهن علنيّة مختلفة ويقومون بنشاطات فدائيّة سريّة.

عندما شعر هراري وفرقته أنّهم أصبحوا على استعداد للهجوم، إتّصلوا بزامير في تلّ أبيب، الذي عاد بدوره إلى لجنة إكس للحصول على الإذن بالبدء في العمل، فقد كان على رئيسة الوزراء غولدا مائير ولجنتها السريّة الموافقة على قتل أيّ فرد. وكان أوّل الضحايا، في تشرين الأوّل ـ أكتوبر ١٩٧٢، "عادل وائل زعيتر"، وهو مثقّف فلسطينيّ يعيش في روما، ويعمل مع "أيلول الأسود". وفي غضون شهرين، قتل هراري وفرقته من الرجال والنساء ١٢ فلسطينيًّا من الذين لهم صلات بالعمل الفدائيّ ضدّ الإسرائيليّين. وقد قُتلوا بمسدّسات كاتمة للصوت، أو أطلقت عليهم النيران من سيّارات أو درّاجات بخاريّة في باريس وروما، أو بواسطة قنابل تفجّر عن بعد عن طريق نغمة عالية تنقل عبر التلفزيون أو الراديو في نيقوسيا وباريس.

حاولت منظّمة "أيلول الأسود" بعد أن شاهدت البارزين من رجالها وهم يُقتلون، أنّ تردّ على العمليّات. وفي الثالث عشر من تشرين الثاني ـ نوفمبر ١٩٧٢، قُتل الصحافيّ العربيّ في باريس "خضر كانو" بالرصاص بوصفه عميلاً للإسرائيليّن. وفي ٢٦ كانون الثاني ـ يناير ١٩٧٣ قُتل رجل الأعمال الإسرائيلي "هانان إشعيا" بالرصاص أثناء وقوفه أمام مدخل منزله في شارع "غران فيا" وهو الشارع الرئيسيّ في مدريد، وبعد موته تكشّف أنّ اسمه الحقيقيّ هو "باروخ كوهين" وأنّه وصل إلى مدريد قادمًا من بروكسل في مهمّة للمخابرات الإسرائيليّة.

كان باروخ كوهين من أسرة يهوديّة معروفة في حيفا، يرتبط معظم أفرادها بالأحزاب السياسيّة اليمينيّة في إسرائيل، فأحد أشقّائه، "مائير كوهين"، كان نائبًا لرئيس البرلمان الإسرائيلي بوصفه عضوًا في حزب "ليكود" الذي كان يرأسه مناحيم بيغن. وقد اتّخذ باروخ وحده مسارًا مختلفًا، حيث عاش في أحد الكيبوتزات، وارتبط بالاشتراكيّة، وانضمّ إلى شين بيت، وعمل حتّى حرب ١٩٦٧ في قسم الشؤون العربيّة

الذي يرأسه "أحيتوف" كعميل ميدانيّ في منطقة الجليل الأعلى. وعقب الحرب، عمل في الضفّة الغربيّة بفضل معرفته باللغة العربيّة، وبالرغم من أنّه كان مجرّد رقيب في قوّات الاحتياط، إلاّ أنّه تمّت ترقيته بسرعة إلى رتبة نقيب ليتولّى منصب الحاكم العسكريّ لأكبر مدن الأراضي المحتلّة، وهي مدينة نابلس حيث كان يركّز عمله على قمع العمل الفدائيّ. وكان قد أوشك، بمجرّد استلامه عمله الجديد، في تمّوز - يوليو ١٩٦٧، على إلقاء القبض على ياسر عرفات الذي تنكّر ليتمكّن من الإفلات من كوهين ورجاله. وفي عام ١٩٧٢، شارك كوهين في الكشف عن حلقة من الجواسيس اليهود - العرب تعمل بناء على أوامر من المخابرات السوريّة، ثمّ أرسل بعد ذلك إلى أوروبّا لتشغيل شبكة من المخرّبين الشبّان. وكان أحدهم عميلاً مزدوجًا، إلاّ أنّه كان من الواضح أنّ ولاءه المطلق كان لمنظّمة "أيلول الأسود"، فقد أطلق النار على الضابط الإسرائيلي المسؤول عنه: باروخ كوهين.

كان "كوهين" وزميله "أوفير" قد نجيا من هجمات مماثلة قبل أربعة شهور، إلاّ أنّ كوهين أصبح أوّل ضابط مخابرات إسرائيليّ يعمل في أوروبّا، ويُقتل على يد فلسطينيّ. وقد ذكر عدد من أفراد أسرته بعد ذلك أنّه كان من الممكن الحيلولة دون مقتله. ففي انتهاك احتياطات الأمن، نُشرت صورة كوهين في ألبوم رسميّ للجيش احتفالاً بنصر ١٩٦٧، وأظهرت الصورة كوهين في زيّه العسكريّ مع صديقه الحميم "زادوك أوفير"، الذي كان يرتدي أيضًا الزيّ العسكريّ. ومن المعروف أنّ المخابرات العربيّة تجمع مثل هذه القصاصات. ومن الأمور الحاسمة للعملاء الإسرائيليّين ألاّ يظهروا وجوههم أبدًا. فعملاء العرب يمكنهم أن يستنتجوا من واقع ما يحصلون عليه حقيقة أمرهم. فحتّى لو كان كوهين قد أخفى شخصيّته كإسرائيلي، أثناء إدارته للشبكة في أوروبّا، فإنّ هذه الصورة كان من شأنها أن تفضح شخصيّته. وكانت الصحف

العربيّة قد نشرت قبل مقتله بشهور قليلة أنّ "أيلول الأسود" حكمت على عميل إسرائيليّ بالإعدام. وهو النبأ الذي كان ينبغي أن ينبّه شين بيت إلى أنّ باروخ كوهين قد افتضح أمره، وأنّه يجب عدم الخاطرة بحياته بإرساله إلى مدريد.

ومن الأمور السلبيّة أيضًا أنّه في الوقت الذي كان عملاء إسرائيل يقومون بتغطية كوهين من خلال متابعتهم لتحرّكاته، فإنّهم لم ينطلقوا للعمل عندما أطلقت عليه النيران، خوفًا من انكشاف أمرهم. ولم تشعر أسرة كوهين، التي تعتقد أنّه راح ضحيّة اتقصير رؤسائه، بالسعادة نتيجة الإيماءات بأنّ الموساد كان يعدّ العدّة للانتقام لموته. وقد كشفت أرملته "توريت" عن أنّ الضبّاط العاملين في المخابرات كانوا يتردّدون عليها من حين إلى آخر ويسألونها: "هل قرأت في الصحف أنّ هذا الشخص أو ذاك قد قتل؟ وأنّ هذا أو ذلك قد تمّ نسفه؟". وكانت قد انتشرت أنباء عن أنّ ثلاثة من "أيلول الأسود" الذين شاركوا في قتل كوهين قد تمّت تصفيتهم. وتقول نوريت: "ماذا كان في وسعي أن أقول؟ هل هذا يواسيني؟".

ويقول خبراء في شأن الأعمال الاستخباراتيّة إنّه كان ينبغي أن يكون مقتل كوهين بمثابة تحذير لإسرائيل، فقد كان يتعيّن على مؤسّسة المخابرات أن تربط بين اغتيال كوهين ومحاولة قتل أوفير ومصرع كانو. ومن المفروض أنّ الموساد كان ينبغي أن يستنتج أنّ الخصم الفلسطينيّ يبدي درجة عالية من مهارة المحترفين في اختراق قلب عمليّات المخابرات الاسرائيليّة في الخارج. وبدلاً من ذلك، اتّسمت تصرّفات المخابرات الإسرائيليّة بالشعور بالإحباط، وتبنّت الانتقام كعقيدة لها. وتمّ قتل أعضاء من "أيلول الأسود" في أوروبّا، الواحد تلو الآخر[١].

---

١ ـ رافيف دان، وميلمان يوسي، أمراء الموساد، ص٢٥٤ ـ٣٦٠.

عمليّة "فردان" بيروت

بعد مضيّ سبعة شهور على عمليّة ميونيخ، نقل القتلة الإسرائيليّون فريقهم الانتقاميّ إلى داخل العالم العربيّ، وحدّدت أهدافهم باغتيال اثنين من قادة "أيلول الأسود" هما: "محمّد النجّار" و"كمال عدوان"، بالإضافة إلى "كمال ناصر" المتحدّث باسم منظّمة التحرير الفلسطينيّة.

وفي ليلة العاشر من نيسان - إبريل عام ١٩٧٣، قُتل الثلاثة بالرصاص، كلّ في مسكنه في شارع فردان الواقع بقلب مدينة بيروت، على أيدي مسلّحين من القوّات الخاصّة الاسرائيليّة تحت قيادة رجال الموساد. وقد تمّ ذلك من خلال عمليّة إنزال ليليّ عسكريّ لمجموعة من أفضل عناصر الكوماندوس من وحدة "سايريت" على الشاطئ جنوب بيروت، في نموذج فريد للتخطيط الإجراميّ.

كان الإعداد للعمليّة الذي نظّمته المخابرات الإسرائيليّة شبيهًا بإعداد المافيا لعمليّات السطو. فقد كانت عناوين مساكن القادة الثلاثة مع الكوماندوس الذين تمكّنوا من النزول في مواقع ليست بعيدة عن بيروت، في حين كانت سيّارات المرسيديس المستأجرة تنتظر على الشاطئ الجنود الذين كانوا يرتدون ملابس مدنيّة. وتكشف العمليّة عن درجة عالية من التعاون بين عملاء جهاز أمان وعملاء الموساد في عاصمة عربيّة لا توجد فيها سفارة إسرائيليّة، يمكن أن تقدّم الغطاء الدبلوماسيّ للجواسيس، ولا يمكن لأيّ إسرائيليّ زيارتها بسبب حالة الحرب والقطيعة المعلنة

رسميًا. وقد مثّلت هذه العمليّة ثاني هجوم على بيروت في خلال أربعة أعوام ونصف العام، إذ كان قد سبقها عمليّة الهجوم على مطار بيروت الدولي في الثامن والعشرين من كانون الأول ـ ديسمبر ١٩٦٨، كما ذكرنا سابقا. وقد أطلق على هذه العمليّة الأخيرة إسم "أفيف نيوريم"، أي "ربيع الشباب"، ومن بين الرجال الذين شاركوا في العمليّة اثنان من الضبّاط الشباب سوف يترأسا وكالة المخابرات العسكريّة أمان بعد ذلك، وهما "أيهود باراك"، و"أمنون ليبكين شاحاك".

غير أنّ الزهو بهذا الانتصار لن يستمرّ أكثر من ثلاثة شهور، إذ إنّه سينطفئ في مكان يسمّى "ليليهامر" في النروج[١].

أدّت عمليّة فردان في حينها إلى استقالة رئيس الحكومة اللبنانيّة صائب سلام بعد أن فشل سلام في إقناع رئيس الجمهوريّة سليمان فرنجيّة بإقالة قائد الجيش اللبناني كثمن بيروقراطيّ تدفعه الدولة اللبنانيّة مقابل فشلها في تجنّب مثل هذا العمل الاختراقيّ الاسرائيليّ. وكان موقف الرئيس فرنجيّة واضحًا لجهة عدم وجوب تحميل الجيش اللبنانيّ مسؤوليّة حماية القادة الفلسطينيّين الذين كانوا يتولّون أمنهم من خلال منظّماتهم الذاتيّة.

---

١ ـ رافيف دان، وميلمان يوسي، أمراء الموساد، ص٢٦٠ ـ ٢٦١.

العَمَليَّةُ التي أطاحَت بمَايكِل هرَارِي

بدأ القلق ينتاب الموساد من نجاح منظّمة التحرير الفلسطينيّة في بناء علاقة وديّة مع وكالة الاستخبارات المركزيّة الأميركيّة CIA، وكان وزير الخارجيّة الأميركيّ السابق هنري كيسينجر هو من عيّن بالضبط، في ما بعد، تاريخ بدء الاتّصالات بين الولايات المتّحدة الأميركيّة ومنظّمة التحرير الفلسطينيّة. فقد كشف في مذكّراته "سنوات الجيشان" عن أنّه بعد ستّة أسابيع من مقتل السفير الأميركي في الخرطوم على يد مسلّحي "أيلول الأسود"، عُقد اجتماع سرّيّ في ٣ تشرين الثاني ـ نوفمبر ١٩٧٣ بين نائب مدير وكالة الاستخبارات المركزيّة الأميركيّة CIA "فرنون ولترز" وياسر عرفات رئيس منظّمة التحرير الفلسطينيّة. وتوصّل الرجلان إلى عقد "اتّفاق عدم اعتداء" بين الولايات المتّحدة الأميركيّة ومنظّمة التحرير الفلسطينيّة. وكتب كيسنجر على أثر ذلك "إنّ الهجمات على الأميركيّين توقّفت على الأقلّ من جانب عرفات في منظّمة التحرير".

إسحق حوفي، الذي خلف زفي زامير في رئاسة الموساد عام ١٩٧٤، استشاط غيظًا عندما علم بأمر الاتّفاق قائلاً إنّه لم يسبق أن عرف في تاريخ النفعيّة مثالاً أسوأ من هذا. وعبر القناة الخاصّة التي تربطه بوكالة CIA حاول حوفي أن يحمل ولترز على إلغاء الاتّفاق. فقال نائب رئيس الوكالة الأميركيّة إنّ هذا غير ممكن، وحذّر حوفي من أنّ واشنطن ستعتبر إذاعة أخبار الاتّفاق "عملاً غير ودّيّ". كانت تلك طلقة

تحذيريّة من إرخاء الحبل لقسم الحـرب السيكولوجيّة فـي الموسـاد لا ستخدام خدمـات الصحافيّين الموالين.

وسوف يصل غضبُ حوفي إلى ذروته عندما سيعرف من هو الشخص الذي كلّفه عرفات متابعة الاتّفاق مع الأميركيّين: علي حسن سلامة الملقّب بـ"الأمير الأحمر"، أحد قادة منظّمة "أيلول الأسود".

عام ١٩٧٣ كان سلامة يحظى بالاحترام داخل منظّمـة التحرير الفلسطينيّة، ولم يتردّد عرفات في تعيينه كصلة وصل مع وكالة الاستخبارات المركزيّة الأميركيّة. وما أصاب الموساد بالصدمة هو قبول CIA بـ"الأمير الأحمر" بعد سنة على عمليّة ميونيخ ومقتل السفير الأميركي في الخرطوم، وقد قامت بالعمليّتين منظّمة أيلول الأسود.

سرعان ما صار سلامة من زوّار الـ CIA المتردّدين على مقرّها فـي "لانغلي". كان "الأمير الأحمر" يصل عادة برفقة فرنون ولترز فيخطو معه عبر مدخل الوكالـة الرخاميّ الأرضيّة، ويتجاوزان الحرس ويصعدان المصعد إلى الطبقـة السابعة حيث مكتب ولترز الفسيح. وكان الرجلان يقطعان اجتماعهما لتناول طعام العشـاء مع كبار ضبّاط الـ CIA، ويدفع ولترز دائمًا ثمن وجبة "الأمير الأحمر"، فلم يكن تناول الطعام مجانيًّا في لانغلي. وقد بقي ما دار بين سلامة والـ CIA سرًّا. ويقول "بيل باكلي" الذي قتله خاطفوه في بيروت في ما بعد عندما كان مديرًا لفرع CIA هناك "إنّ سلامة لعب دورًا مهمًّا فـي كسب مودّة الولايـات المتّحـدة وعقلهـا لمصلحـة منظّمـة التحريـر الفلسطينيّة. كان ذا شخصيّة كاريزماتيكيّـة ويجيد الإقناع، وكان يعرف متى يجادل ومتى يصغي. وبلغة الاستخبارات كان مخبرًا من النوع الممتاز".

أحد الأمثلة الأولى كان تحذير سلامة لوكالة الاستخبارات المركزيّة الأميركيّة من مؤامرة لإسقاط طائرة كيسنجر عندما كانت ستطير إلى بيروت خلال جولة مكّوكيّة

كان الوزير الأميركيّ يقوم بها في إطار جهود السلام في الشرق الأوسط. بعدها، قام سلامة بدور الوسيط لعقد صفقة تولّت في إطارها منظّمة التحرير الفلسطينيّة نقل ٢٦٣ من الرعايا الغربيّين من غرب بيروت إلى برّ الأمان في ذروة الحرب الأهليّة اللبنانيّة. وبعد ذلك بوقت قصير حذّر "الأمير الأحمر" الوكالة الأميركيّة من محاولة لاغتيال السفير الأميركيّ في لبنان. ثمّ في لقاء آخر مع وكالة الـ CIA كتب "الأمير الأحمر" "تعهّدًا بعدم الاغتيال" يشمل جميع الدبلوماسيّين الأميركيّين في لبنان ووقّعه بنفسه. وبعدها انتشرت نكتة في بيروت تقول:

"هنيئًا لمن يسكن في المبنى الذي يقيم فيه دبلوماسيّون أميركيّون، لأنّ حماية الفلسطينيّين ممتازة".

وسوف يطالب إسحق حوفي، المدير العام للموساد الذي خلف زفي زامير سنة ١٩٧٤، بأن تقطع الـ CIA كلّ اتّصالاتها بـ"الأمير الأحمر". فأُهمل طلبه. وفي دوائر مقرّ الـ CIA في لانغلي كانوا يتحدّثون عن سلامة على أنّه "الشرّير الذي يحسن خدمتنا". وقد استمرّ في تقديم المعلومات السريّة والعلانيّة التي جعلت CIA على اطّلاع كامل على أحوال الشرق الأوسط فأصبح أهمّ ممتلكاتها في المنطقة[١].

قبل ذلك التاريخ، وتحديدًا في تمّوز ـ يوليو ١٩٧٣، تلقّت الموساد إخباريّة بأنّ "الأمير الأحمر" علي حسن سلامة، كان يعمل نادلاً في مدينة "ليليهامر" النروجيّة.

كان أعضاء "وحدة الاغتيال" التابعة للموساد مبعثرين في أنحاء العالم في مهامّ مختلفة، فعمد مدير العمليّات في الموساد آنئذ "مايكل هراري" إلى تشكيل فريق من

١ ـ طوماس غوردون، إنحطاط الموساد، ص٣٠٨ ـ ٣٠٩.

خارج الوحدة لا يتمتّع بخبرة ميدانيّة. لكنّ هراري كان واثقًا من أنّ تجربته كضابط استخبارات في أوروبّا كانت كافية.

كان الفريق يضمّ بين أعضائه العديدين، إمرأتين هما "سيلفيا رافائيل[1]" و"ماريان غلادينكوف"، وجزائري يدعى "كمال بنعاي"، كان يعمل ساعيًا لدى منظّمة "أيلول الأسود" قبل أن يحوّله هراري بالإرهاب إلى عميل مزدوج.

منذ البداية، واجهت العمليّة كارثة. فوصول دزّينة من الغرباء إلى ليليهامر، التي لم تكن قد شهدت جريمة قتل منذ أربعين عامًا، أثار التساؤلات والشبهات. وبدأت الشرطة المحليّة تراقبهم.

كانت الشرطة النروجيّة بالقرب من مكان الحادث عندما قتل هراري وفريقه نادلاً مغربيًّا يدعى "أحمد بوشيكي"، لا علاقة له بمنظّمة التحرير الفلسطينيّة ولم يكن حتّى شبيهًا لسلامة. وتمكّن هراري وستّة من أعضاء فرقته من الهرب، لكنّ ستّة عملاء للموساد، بينهم المرأتان، قد اعتقلوا.

أدلى المعتقلون باعترافات كاملة لدى التحقيق معهم وكشفوا للمرّة الأولى عن أساليب الموساد في الاغتيال وغيرها من التفاصيل المربكة عن النشاطات السريّة

---

١ ـ ذكرت معلومات أنّ سيلفيا رافائيل كانت رئيسة الشبكة الموساديّة التي قتلت العامل المغربيّ في النروج على أنّه أبو حسن سلامة، وأنّها كانت زوجة محامي المحكمة العليا للنروج، ذي المنصب السامي، ومن خلاله مُنحت الجنسيّة النروجيّة وأصبحت مواطنة نروجيّة منذ العام ١٩٧٩، ولعلّ هذه العلاقة كان لها دورها في إخفاء وتهريب رئيس الموساد "زفي زامير" الذي اشترك شخصيًا بالعمليّة، ولو أنّه اعتُقل لكانت كارثة وفضيحة كبرى للموساد. (ميخائيلوف فلاديمير، إرهابيّو الموساد، دار التقدّم (موسكو،١٩٨٧) ص١٦٣)

للجهاز. ووجّهت للمرأتين وزملائهما من الذكور تهمة القتل من الدرجة الثانيـة، وحُكم على كلّ منهم بالسجن خمس سنوات[1].

لقد تداخلت في هذه العمليّة غيوم الفشل والإخفاق مع غيوم الفضيحة، فاكفهرّ الجوّ كلّه في إسرائيل، حيث كشفت هذه العمليّـة زيـف الهالـة الأسـطوريّة لجهـاز الموسـاد وعرّته تمامًا حتّى من "ورقـة التيـن"، ذلـك أنّ عنـاصر الفشـل والاختـراق والفضيحـة اقترنت بقوّة في هذه العمليّة، وقلّما كان قد حصل هذا الاقتران مـن قبـل بهـذا الشـكل ودفعة واحدة في عمليّة واحدة من هذا النوع، لذلك كان وقعها على الموساد خصوصـًا، وعلى سائر الأجهزة الأمنيّة والعسكريّة والسياسيّة الإسرائيليّة كبـيرًا جـدًّا ومؤثـرًا إلـى أقصى حدّ. لذلك سُمّيت الكارثة بـ"نقطة الحضيض" بالنسبة للاستخبارات الإسرائيليّة[2].

يقول باحثون إنّه كان يمكن للإسرائيليّين الذين أطلقوا النار على من ظنّوه "الأمـير الأحمر" أن يلوذوا بالفرار، ويحتفظوا بجريمتهم كسرّ مطبق، لـولا السـلوك الغبـيّ مـن العملاء المساعدين، من الرجال والنساء، الذين قـاموا بعمليّـة المراقبـة والاشـتراك فـي التخطيط، والذين اقترفوا كافّة الأخطاء التي يمكن تصوّرها، كما لو كـانوا يسـعون لأن يقبض عليهم البوليس النروجيّ الذي لم يبذل جهودًا كبيرة للقبض على القتلة، فقد تـرك عملاء الموساد، بالرغم من تدريبهم بعناية على عمليّات الاختفاء بمجرّد إبلاغهم، آثارًا تدلّ عليهم في كلّ خطوة قاموا بها، وبطريقة يتعذّر تفسيرها. فكانوا يتجوّلون فـي بلـدة ليليهامر في سيّارات استأجروها بأنفسهم بدلاً من استخدام وسطاء لا يعرفون شيئًا عـن

---

١ ـ طوماس غوردون، إنحطاط الموسـاد، ص١٤٢ ـ ١٤٣؛ راجـع: أوستروفسكي فيكتـور، عـن طريـق الخـداع، المؤسّسة العربيّة للدراسات (بيروت،١٩٩٥) ص٣٠٣.

٢ ـ زهر الدين د. صالح، الموساد بين الإخفاق والاختراق، في موسوعة الأمن والاستخبارات في العالم، المركز الثقافي اللبناني (بيروت،٢٠٠٣) ص٧٣ ـ ٧٤، عن: ديكون ريتشارد، المخابرات الإسرائيليّة، ص٢٦، ٥٣١.

طبيعة مهمّة الاغتيال المنوطة بهم، كما لم يراعوا قواعد تقسيم العمل والفصل بين الاختصاصات، وتعرّفوا بدلاً من ذلك على بعضهم البعض. وهكذا فقد قدّم جيران النادل السيّء الحظّ رقم إحدى السيّارات إلى البوليس، وتمّ القبض على اثنين من الإسرائيليّين عند إعادتهما السيّارة المستأجرة إلى مطار أوسلو. واعترف كلّ منهما وهما "دان إرت" و"ماريان غلادينكوف" بأنّهما يعملان لصالح إسرائيل، وكشفا عن عنوان مسكن يستخدمه الموساد، وعثر البوليس هناك على اثنين آخرين من الفريق الإسرائيليّ. ويقول المرجع نفسه أنّ الدهشة قد أصابت البوليس النروجيّ بسبب الأساليب التي تتسم بالهواية، وهي تلك المتّبعة من قبل وكالة استخبارات يُنظر إليها باعتبارها من أفضل وكالات العالم. فقد تساقط الإسرائيليّون واحدًا تلو الآخر في أيدي البوليس النروجي، كما لو كانوا ثمارًا نضجت وحان قطافها.

ومن خلال التحقيقات مع هؤلاء، كشف النروجيّون طريقة العمل في الاغتيالات الأخرى التي تمّت على أيدي الاستخبارات الاسرائيليّة بعد عمليّة أولمبياد ميونيخ. فقد كان رجل الموساد يحمل مفتاحًا لشقّة في باريس عثرت فيها المخابرات الفرنسيّة على مزيد من المفاتيح لعدد من المنازل الآمنة التي يستخدمها العملاء. وظهرت الأدلّة التي تربط الإسرائيليّين بعمليّات قتل الفلسطينيّين في العديد من الدول، وهي العمليّات التي لم يكن قد تمّ التوصّل فيها إلى نتيجة من قبل التحقيق قبل ذلك التاريخ. وكشفت وكالات المخابرات الغربيّة عن الطريقة التي يوزّع بها الإسرائيليّون عملاءهم في أوروبّا، وعن كيفيّة استخدامهم للأشخاص الذين يعملون بصفة موقّتة لمساعدتهم في عمليّات المراقبة وتقديم ما يحتاجون إليه من معدّات.

كان "إرت"، وهو أكثر من ثرثر عند التحقيق معه في أوسلو، أحد الأمثلة على ذلك. فهو لم يكن عضوًا في الموساد، بل رجل أعمال من أصل دانماركيّ يعيش في

"هرتزيليا" شمال تلّ أبيب، إسمه الحقيقيّ "دان إيربيل"، وكان الموساد يستدعيه من وقت لآخر من أجل القيام بمهامّ متنوّعة. وبمجرّد أن وضعه النروجيّون في زنزانة انفراديّة معتمة، إعترف لهم بكلّ شيء. ولم يستطع المحقّقون النروجيّون إخفاء دهشتهم عندما كشف لهم عن أنّه يعاني من مرض الخوف العصابي من الأماكن الضيّقة المغلقة، وهو عيب خطير بالنسبة لعميل سرّي. وفي مقابل نقله إلى زنزانة أوسع، أبدى رغبته في الاعتراف بكلّ شيء... ليس فقط بعمليّة ليليهامر، بل أيضًا بعمليّة النقل السريّة لحمولة من اليورانيوم إلى إسرائيل عام ١٩٦٨، وهي عمليّة شارك فيها. كما ذكر أنّه كان الواجهة التي دفع بها الموساد لشراء سفينة شحن قديمة هي "شيرز بيرغ ـ ١" كانت تحمل ٥٦٠ صفيحة من أكسيد اليورانيوم عند مغادرتها ميناء "أنتويرب" في بلجيكا، ثمّ ظهرت في الميناء التالي وهي خالية من اليورانيوم.

ومن بين الذين ألقي القبض عليهم في النروج من أعضاء شبكة الموساد "سيلفيا رافاييل"، إلاّ أنّها كانت أكثر احترافًا من "إرت" بكثير، وهي من الذين جابوا العديد من دول العالم تحت اسمها السرّي "باتريشيا روكسبورو" بصفة مصوّرة صحافيّة تحمل جواز سفر كنديّ مزيّف. وهي من مواليد جنوب أفريقيا، تمّ تجنيدها من قبل الموساد بعد عملها كمتطوّعة في أحد الكيبوتزات الإسرائيليّة، وانتهت قضيّتها وحدها نهاية سعيدة بعد أن أحبّت محاميها النروجيّ وتزوّجته، إلاّ أنّه كان يتعيّن عليها، ومعها أربعة من الموساد، قضاء زمنٍ في السجن.

وعلى العموم، كان من حسن حظّ الموساد أنّ النروج لم تضغط بشدّة في تحقيقاتها في هذه القضيّة المعقّدة، مفضّلين بوضوح الابتعاد عن إضافة مزيد من المهانة العلنيّة للوضع المحرج الذي وجدت إسرائيل نفسها فيه. وأبدت الأجهزة السريّة الفرنسيّة والإيطاليّة قدرًا كبيرًا من التضامن مع الموساد، بالرغم من المعلومات التي ظهرت في

محاكمات النروج، والتي تدين الموساد، فقد تجاهلت هذه الأجهزة طلبات منظّمة التحرير الفلسطينيّة بإعادة التحقيق في قتل الفلسطينيّين داخل إيطاليا وفرنسا. ويبدو أنّ مردّ "تعاطف" وكالات المخابرات الأوروبيّة الغربيّة مع الموساد، يعود إلى شعورها بأنّه من السهل أيضًا عليها أن تضبط هي الأخرى عملاء الموساد متلبّسين بجرائمهم، وإلى المجاملة المهنيّة بغية عدم زيادة الأمر سوءًا. كذلك كان هناك عنصر قويّ في أسباب التعاطف مع إسرائيل في حربها ضدّ العمليّات الفدائيّة، حيث احترمت الأجهزة السريّة الغربيّة رغبة الدولة اليهوديّة في أن تجسّد للعالم نموذجًا جديدًا لا يعكس الخضوع والتهدئة ضدّ ما يسمّونه إرهابًا، غير مفرّقين بين المقاومة والإرهاب[١].

لدى عودته إلى إسرائيل، طُرد هراري من منصبه، وأخلت الموساد شبكتها السريّة في أوروبّا بما فيها البيوت السريّة وصناديق الرسائل وأرقام الهاتف السريّة إلى حين. وكانت تلك من العمليّات التي وصمت الموساد بالعار وأفقدتها تلك الهالة التي كانت تسعى لاكتسابها في الغرب.

غير أنّ رافي إيتان مستشار رئيس الوزراء مناحيم بيغن الشخصيّ لشؤون الإرهاب، قد تمكّن في ما بعد من ترتيب اغتيال "الأمير الأحمر" بتفجير سيّارة ملغومة وضعت على الطريق التي كان يسلكها في بيروت.

عندما قُتل سلامة، ثار غضب وكالة الاستخبارات المركزيّة الأميركيّة CIA، التي أصيبت علاقاتها بالموساد بالبرودة لمدّة طويلة. وقد قال أحد سفراء الولايات المتّحدة الأميركيّة في لبنان "هيرمان إيلتس"، عقب اغتيال سلامة: "إنّني أعرف أنّه في مناسبات عديدة وبصورة خفيّة أظهر تعاوناً غير عاديّ وساعد في حماية المواطنين والمسؤولين

---

١ ـ رافيف دان، وميلمان يوسي، أمراء الموساد، ص٢٦٢ ـ ٢٦٥.

الأميركيّين. وأعتبر مقتله خسارة".

ظلّت ذكريات الفشل في النروج تطارد إسرائيل، وكان العديدون في مؤسّسات المخابرات يشيرون إليها، في تورية معيبة، بوصفها Leyl Ha-mar أي "الليلة المريرة". وفي كلّ مرّة يأتي ذكرها، كان العملاء الإسرائيليّون يتوارون خجلاً، فقد اتّفقوا جميعًا على أنّ قتل الرجل الخطأ، وما أعقبه من القبض عليهم، كان أكثر عمليّاتهم فشلاً.

وأدّى هاجس الانتقام بإسرائيل إلى الانحراف بأحكامها وبالأمور عن نصابها الصحيح. وشكا كبار المسؤولين في مؤسّسة المخابرات بشدّة من أنّه ليس من مهامّهم أن يصبحوا فرعًا لشركة للقتل، وذكروا أنّ جزءًا كبيرًا من الموارد البشريّة والتكنولوجيّة للموساد وشين بيت أصبح مرتبطًا بعمليّات "القنص البشريّ"، أكثر من ارتباطه بالعمل التقليديّ الفائق الأهميّة، وهو جمع المعلومات عن القدرات العسكريّة للدول العربيّة. وذكر المعارضون داخل مؤسّسة المخابرات أنّ إسرائيل تضخّم من أهميّة العمل الفدائيّ الفلسطينيّ، لأنّه في التحليل النهائيّ، لن يكون ذلك هو ما يعرّض وجود البلاد للخطر. وأكّد آخرون على أنّه لا فائدة ترجى من إبادة زعماء المنظّمات الفدائيّة الفلسطينيّة، لأنّ أحدًا لا يضمن أنّ من يحلّون محلّهم سيكونون أكثر اعتدالاً أو أقلّ قدرة على العمل. والأكثر من ذلك، هو أنّ المعارضين الغاضبين أثاروا الاتّهامات بأنّه قد تمّت لفلفة كارثة ليليهامر... لكنّ تلك الاعتراضات كانت مثل صرخات في البريّة، حيث أنّ زفي زامير رئيس الموساد كان موجودًا في مطار ميونيخ، وشاهد الرياضيّين الاسرائيليّين وهم يسقطون مقيّدي الأيدي داخل المروحيّات، وكان زامير غاضبًا، ووافق تمامًا على رغبة غولدا مائير في الانتقام[1].

---

١ ـ رافيف دان، وميلمان يوسي، أمراء الموساد، ص٢٦٥ ـ ٢٦٦.

قَرصَنةُ إسرائيل للطَّائرة المدنيَّة اللبنانيَّة

عقب حملات الاغتيالات، فقدت "أيلول الأسود" الكثير من وسائل دفاعها. فسال لعاب الإسرائيليّين على تنظيم فلسطينيّ آخر يقوده عدوّ إسرائيل الماركسيّ الفلسطينيّ الرهيب "جورج حبش"، زعيم "الجبهة الشعبيّة لتحرير فلسطين".

وفي العاشر من آب ـ أغسطس ١٩٧٣، اعترضت المقاتلات الحربيّة الإسرائيليّة طائرة ركّاب مدنيّة لبنانيّة، وأجبرتها على الهبوط في قاعدة عسكريّة إسرائيليّة، حيث جرى إخراج ركّابها في طابور، وتمّ استجواب كلّ منهم على حدة، إلاّ أنّ جورج حبش لم يكن معهم... فأُطلق سراح الطائرة وركّابها جميعًا، ومرّة أخرى، تعرّض الموساد للإحراج الشديد.

كانت المعلومات السريّة التي وردت حول وجود حبش على متن تلك الطائرة قد وردت عن طريق واحدة من أفضل عميلات إسرائيل، تمّ زرعها داخل قيادة الفدائيّين الفلسطينيّين، وهي امرأة تدعى "أمينة المفتي".

ولدت أمينة المفتي في الأردن عام ١٩٣٥ لأسرة شركسيّة مسلمة، وتمّ تجنيدها من قبل الموساد في فيينّا عام ١٩٧٢، وذلك بعد أن وقعت في غرام طيّار إسرائيليّ كان في زيارة للنمسا. ومن المرجّح أنّ الطيّار الإسرائيليّ كان في مهمّة للعثور على عميل عربيّ له قيمته. وبدت أمينة كما لو كانت اختيارًا موفّقًا وله جاذبيّته. فالشراكسة في إسرائيل كانوا يتعاونون بالفعل مع مؤسّسة المخابرات في الدولة اليهوديّة عن طريق

اختراقهم للمجتمع العربيّ. وجاءت موافقة أمينة المفتي على القيام بمهمّتها بسبب كراهيّتها لمنظّمة التحرير الفلسطينيّة، وإلقائها اللوم على المتطرّفين لعملهم على إطالة أمد الصراع في الشرق الأوسط. وكان عليها أن تنتقل إلى بيروت في بداية عام ١٩٧٣، وأن تلتقي بأكبر عدد من الفلسطينيّين.

كانت أمينة المفتي قد تلقّت بالفعل قسطًا من التعليم الطبّي، وساعدها الإسرائيليّون على افتتاح عيادة لها. وأصبحت مشغولة للغاية بعد اندلاع الحرب الداخليّة في لبنان عام ١٩٧٥، وقيامها بمعالجة الجرحى من الفلسطينيّين الذين كانوا يقاتلون في تلك الحرب. ومن سخريات القدر، أصبحت الموساد تموّل إجراءات الرعاية الطبيّة لمنظّمة التحرير الفلسطينيّة في بيروت.

صادقت أمينة المفتي كبار ضبّاط منظّمة التحرير الفلسطينيّة، وعندما كانت تخلو إلى نفسها في المساء، كانت تكتب وقائع مطوّلة لكلّ ما شاهدته أو سمعته خلال النهار. وهي لم تلتق أبدًا بأيّ مسؤول اتّصال للموساد في لبنان، لأنّها كانت تترك تقاريرها والصور التي تلتقطها في صناديق بريد معيّنة في بيروت، مثل تلك الموجودة في ممرّات الفنادق أو استراحات المطاعم، حيث يتمّ إلقاء مظروف صغير يلتقطه بعد ذلك شخص مجهول. كما كانت تنقل المعلومات العاجلة إلى إسرائيل بواسطة جهاز تكنولوجي مفضّل لدى الموساد، وهو عبارة عن جهاز لاسلكيّ صغير.

توقّف سيل المعلومات التي كانت ترسلها أمينة المفتي إلى إسرائيل فجأة سنة ١٩٧٥. وتبيّن إثر ذلك أنّ الفلسطينيّين قد ألقوا القبض على أمينة. وقام الراديكاليّون في المنظّمة بتعذيبها، كما استجوبها عملاء المخابرات السوفياتيّة، وعملاء مخابرات ألمانيا الشرقيّة في خلال الأعوام الخمسة التي أمضتها سجينة في كهف بالقرب من ميناء صيدا اللبنانيّ. وقد رتّبت إسرائيل عن طريق الصليب الأحمر الدوليّ عمليّة

لتبادل الأسرى أطلقت بموجبها سراح اثنين من فدائيّي منظّمة التحرير الفلسطينيّة في مقابل الإفراج عن أمينة. وبعد أن قام الصليب الأحمر بتسليمها إلى فريق الموساد في قبرص، انتحلت شخصيّة جديدة وشغلت وظيفة طبيّة في شمال إسرائيل[1].

المُوسَاد وشين بيت تَعملان عَلى توطينِ فلسطينيّين في الخَارج

يذكر باحثون[2] أنّ أجهزة الاستخبارات الإسرائيليّة بفروعها الثلاثة: الموساد، وشين بيت، وأمان، قد تعاونت في مشروع بالغ الأهميّة استهدف مواجهة "المشكلة السكّانيّة". فقد كان من المتوقّع أن يزيد عدد العرب، بمعدّلاتهم العالية في المواليد، على عدد اليهود في إسرائيل والأراضي المحتلّة في نهاية القرن العشرين. وعُهد إلى مؤسّسة المخابرات بمهمّة "تشجيع" الفلسطينيّين على الهجرة، وأنشأت وحدة إسرائيليّة خاصّة شركة وهميّة في أوروبّا قامت لشراء أراض لعرب غزّة والضفّة الغربيّة الذين يوافقون على الهجرة إلى الخارج. وكانت هذه الأراضي في البرازيل وباراغواي، وحتّى في ليبيا حيث تُمنح الأراضي لأولئك الذين يفضّلون العيش في دولة عربيّة. وقد أتاح عمل الموساد في ليبيا فرصة طيّبة للوكالة لمراقبة التطوّرات السياسيّة هناك. فلم يفاجأ رئيس الموساد زفي زامير بالإطاحة بالملك إدريس السنوسي الموالي للغرب في أيلول ـ سبتمبر ١٩٦٩ بواسطة مجموعة من صغار الضبّاط الذين ساروا على خطى جمال عبد الناصر وانقلابه على الملك فاروق في مصر عام ١٩٥٢. وكان القائد

١ ـ رافيف دان، وميلمان يوسي، أمراء الموساد، ص٢٦٦ ـ ٢٦٨.

٢ ـ رافيف دان، وميلمان يوسي، أمراء الموساد، ص٢٣٩ ـ ٢٤٣.

الليبيّ الجديد هو العقيد معمّر القذافي، وهو الرجل الذي لم يكن بإمكان زامير أن يعلم، عندما سمع الأنباء عن طرابلس الغرب، بأنّه سيصبح واحدًا من ألدّ أعداء إسرائيل. على أنّ رئيس الموساد قد تحقّق من أنّ رحيل الملك الليبيّ يشكّل خبرًا سيّئًا، إذ إنّ الغرب قد فقد بذلك قلعة استراتيجيّة في شمال أفريقيا، وقال زامير لأحد زملائه في تلّ أبيب: "لقد أبلغناهم... لقد حذّرناهم"... مشيرًا إلى أنّ المخابرات الاسرائيليّة كانت بعثت بتحذيرات مسبقة إلى الملك إدريس وأصدقائه في حكومات الولايات المتّحدة وبريطانيا وإيطاليا...

أدّى فقدان ليبيا كمكان لإعادة توطين الفلسطينيّين إلى عرقلة البرنامج السرّي لإرسالهم إلى الخارج. وقد توقّف نشاط البرنامج عقب حادث قتل حدث في "أسنسيون" عاصمة البراغواي في عام ١٩٧٠، عندما اقتحم شابّ عربيّ ظهر الرابع من أيّار – مايو السفارة الاسرائيليّة هناك، وطلب بغضب مقابلة السفير، وحاولت أحدى العاملات في السكرتاريا تهدئة الرجل، فأخرج مسدّسه وقتلها، وهرب مع شريكين له كانا ينتظرانه في الخارج، وتمكّن الثلاثة من الفرار من البلاد ولم يُقبض عليهم إطلاقًا. وسارع المتحدّث الرسميّ الإسرائيليّ إلى إعلان أنّ عمليّة القتل تمثّل موجة جديدة من الهجمات الإرهابيّة الفلسطينيّة. إلاّ أنّها في الواقع كانت شيئًا مختلفًا تمامًا. فقد كانت عملاً من أعمال الانتقام، قام به ثلاثة من الفلسطينيّين الذين تمّت إعادة توطينهم في باراغواي كجزء من البرنامج السرّي للمخابرات، بعد أن شعروا بالاستياء إزاء الصفقة المجحفة من قبل الاسرائيليّين. وأعلن المحقّقون في باراغواي أنّ القاتل يدعى "طلال بن دماصي" المولود بقطاع غزّة، والذي كان يعيش هو وزميلاه في مخيّم "جباليا" للاجئين في غزّة عندما وقعت المنطقة تحت الاحتلال الاسرائيلي في عام ١٩٦٧. وسرعان ما شعر الثلاثة بالضجر من الحياة هناك وقبلوا الدعوة لزيارة مكتب

الحاكم العسكري الإسرائيلي في غزّة الذي كان يقع بالقرب من متجر طلال للأجهزة الكهربائيّة في شارع المختار بمدينة غزّة، وبدأ الثلاثة من هناك رحلتهم إلى المنفى الاختياري.

كان رجال المخابرات الاسرائيليّة يسعون سعيًا حثيثًا للعثور على العرب من أمثال طلال، الذين يشعرون بالإحباط إزاء ما قسم لهم، ليمكن ترشيحهم للترحيل. وقد قبلت عدّة مئات من الأسر الفلسطينيّة في المخيّمات العرض، وحصلت على جوازات سفر جديدة، وأموال، وتذاكر ذهاب بلا عودة من وكالة سياحة إسرائيليّة، وتوجّهت هذه الأسر إلى الديار الجديدة التي وُعدت بها في أميركا الجنوبيّة وشمال أفريقيا.

وصل طلال وصديقاه إلى باراغواي في نيسان ـ إبريل ١٩٧٠، متوقّعين أن تحترم إسرائيل وعودها بمساعدتهم في الحصول على عمل. إلاّ أنّ شيئًا من ذلك لم يتحقّق، كما واجهت التماساتهم إلى كلّ من السفارة والقنصليّة الاسرائيليّتين أذانًا صمّاء. وقرّر الثلاثة القيام باحتجاج عنيف واعتزموا قتل السفير الاسرائيلي، إلاّ أنّ طلال أصيب بالذعر وقتل السكرتيرة بدلاً من السفير.

إثر ذلك أمر مجلس الوزراء الاسرائيلي مؤسّسة المخابرات بإنهاء برنامج إعادة توطين الفلسطينيّين على وجه السرعة لتجنّب أيّ مخاطرة من شأنها أن تكشف النقاب عن ذلك البرنامج. وكان الوزراء يعرفون منذ البداية أنّ إرسال مليون أو أكثر من العرب إلى الخارج سيكون أمرًا باهظ التكاليف، إلاّ أنّه كانت تحدوهم الرغبة في إتاحة الفرصة أمام الفكرة ذاتها، ثمّ جاءت عمليّة الاغتيال في باراغواي لتفسد العمليّة وتعرّض سرّيتها التي تحيط بها للخطر. وبلغ مجموع الذين هاجروا من سكّان الضفّة الغربيّة وغزّة خلال السنوات الثلاث الأولى بعد حرب ١٩٦٧ حوالى عشرين ألف شخص، وتلقّى ما يربو على ألف شخص منهم مساعدات من البرنامج السّري لإعادة

التوطين. غير أنّ الغالبيّة العظمى من الفلسطينيّين بقوا في ديارهم وتعلّموا العيش مع الاحتلال الاسرائيليّ، والقليل منهم بقوا وحاربوا في ذلك التاريخ.

عمَليّة منظّمة أيلول الأسوَد في بَانكُوك

في ٢٨ كانون الأوّل ـ ديسمبر ١٩٧٢، هاجمت وحدة تابعة لمنظّمة "أيلول الأسود" السفارة الاسرائيليّة في بانكوك، ورفعت علم منظّمة التحرير الفلسطينيّة على المبنى واحتجزت ستّة إسرائيليّين كرهائن. وسرعان ما أحاط خمسمائة جنديّ وشرطيّ تايلنديّ بالمبنى. أمّا أبطال العمليّة فقد طالبوا إسرائيل بإطلاق سراح ستّة وثلاثين سجينًا فلسطينيًّا تحتجزهم وإلاّ قتلوا الرهائن.

في تلّ أبيب، تكشّفت تفاصيل سيناريو مألوف. عقدت الحكومة الاسرائيليّة جلسة طارئة، جرى في خلالها الحديث المعتاد عن الصمود أو الاستسلام. واستعاد المجتمعون ذكرى حادثة مطار "عنتيبي". هل من الممكن شنّ مثل تلك العمليّة مرّة أخرى؟ وكان زافي زامير وحده من قال إنّ ذلك غير ممكن. فالوصول إلى بانكوك يتطلّب دعمًا لوجستيًّا مفقودًا على طول طريق معادية. وبخلاف مطار عنتيبي الذي كان هدفًا بعيدًا ومنعزلاً، فإنّ السفارة الإسرائيليّة تقع في وسط مدينة بانكوك المزدحمة. ومن غير الممكن أن تسمح الحكومة التايلانديّة باحتمال حدوث أيّ اشتباك بالنيران...

في هذه الأثناء، وبعد مفاوضات قصيرة جرت في بانكوك، وافق المسلّحون بصورة مفاجئة على عرض تايلانديّ بتأمين طريق خروج آمن لهم مقابل إطلاق

سراح الرهائن. وبعد ساعات قليلة كانت الوحدة التابعة لأيلول الأسود على متن رحلة جويّة إلى القاهرة حيث تواروا عن الأنظار.

في تلّ أبيب، تحوّل ارتياح زامير لعدم سقوط قتلى من الإسرائيليّين إلى ارتياب. ذلك أنّ رجال أيلول الأسود كانوا مدرّبين تدريبًا عاليًا ومعبّئين نفسيًّا ويتلقّون تمويلًا سخيًّا، وقد أظهروا حنكة ومكرًا استرتيجيّين. كانوا يفهمون الطرق ويعرفون نقاط الضغط التي تجبر حكومة على الإذعان. فلمَ استسلموا بهذه السرعة هذه المرّة؟ كانت سفارة إسرائيل في بانكوك هدفًا ممتازًا يكسبهم مزيدًا من الدعاية ويجتذب الناس إلى قضيّتهم. ومن المؤكّد أنّهم لم يختاروا هدفهم صدفة. فهل كانت العمليّة كلّها تكتبكا لتحويل الأنظار؟ هل كان الإعداد جاريًا لتنفيذ عمليّة أخرى ضدّ إسرائيل في مكان آخر من العالم؟ ولكن أين ومتى؟ كان زامير لا يزال يقلّب هذع الأسئلة في ذهنه عندما رافق غولدا مائير في رحلتها الجويّة إلى مؤتمر الاشتراكيّين الدوليّين في باريس في أوائل كانون الثاني - يناير ١٩٧٣.

غولدا مائير في الفاتيكان

أواخر عام ١٩٧٢، وبعد طول انتظار، تلقّت غولدا مائير رئيسة الوزراء رسالة من البابا بولس السادس تفيد عن استعداده لاستقبالها في لقاء خاصّ قصير. وفي كانون الأوّل - ديسمبر من ذلك العام، وفي خلال الجلسة الأسبوعيّة لأعضاء الحكومة، تساءل هؤلاء عمّا إذا كان اللقاء سيكون ذا جدوى، فردّت مائير بالقول إنّها "مفتتنة بالبنية البابويّة، فهي تتمتّع بنفوذ يكاد يكون غير مسبوق، ثمّ إنّها تعمل من دون أحزاب سياسيّة ولا نقابات. فالجهاز كلّه منظّم بغرض التحكّم... فالإدارة البابويّة تتحكّم

بالأساقفة، وهؤلاء يتحكّمون بالإكليروس، والإكليروس يتحكّم بالجسم المدنيّ. هذا نظام يشتمل على عدد كبير من الكسريتاريات والمفوّضيّات والبنى، ويبدو مصمّمًا بالضبط لأعمال الإخبار"...

ولطالما افتُتن رؤساء الوزراء الإسرائيليّون واحدًا بعد الآخر بفكرة انتخاب البابا حاكمًا مطلقًا مدى حياته، فيكون زعيمًا لا يتعرّض للمساءلة من أيّ جهة قضائيّة أو تشريعيّة كانت. ويقف الحبر الأعظم على قمّة بنيان هرمي ملكيّ، ويمارس دورًا استثنائيًا في صياغة النظرة الاقتصاديّة والسياسيّة والأيديولوجيّة ليس لأتباع المذهب الكاثوليكيّ فحسب، بل للعالم كلّه. ويُنقلُ عن بن غوريون أنّه قال ذات مرّة: "دع عنك ذلك الهذر عن عدد الفرق العسكريّة التي تأتمر بأوامر البابا، وانظر إلى عدد الناس الذين يستطيع أن يستنجد بهم".

ما يثير اهتمام الموساد هو السريّة الشديدة التي يعمل الفاتيكان بها. وهذه السريّة أوليّة معزّزة واضحة المعالم، وتغطّي كلّ ما يقوم به الحبر الأعظك. وغالبًا ما تأخّر شهورًا ظهور التلميحات الأولى عن علاقة البابا بمبادرة دبلوماسيّة من أيّ نوع، ومع ذلك فنادرًا ما كانت تفاصيل هذه العلاقة تجد طريقها إلى النشر. وكان كلّ رئيس للموساد يودّ لو يمكنه اختراق ستار السريّة هذا، لكنّ جميع المحاولات التي بذلتها حكومة إسرائيل وجهاز الموساد لإنشاء علاقة طبيعيّة مع الفاتيكان واجهت رفض الحاضرة الحازم. ويعود السبب إلى أنّ سكرتاريا الدولة في حاضرة الفاتيكان، وهي نظيرة وزارة الخارجيّة في الدول العاديّة، تضمّ جناحًا قويًّا يكنّ المعارضة لإسرائيل. وعند هؤلاء الأساقفة أنّ الضفّة الغربيّة وقطاع غزّة أرض محتلّة، وأنّ مرتفعات الجولان السوريّة ضُمّت ضمًّا، وهي أرض سوريّة. وقد اعتاد هؤلاء الأساقفة أن يخرجوا من دولتهم الصغيرة للالتقاء بشخصيّات عربيّة مختلفة في شارع

"فيا كوندوتي" في روما، أو أن ينضمّوا إلى حفلات الاستقبال التي يقيمونها في "بياتزا نافونا" حيث يصغون بهدوء إلى وجهات نظرهم بكيفيّة تحقيق السلام في المنطقة. وهم يلتزمون الحذر في ما يقولونه لاعتقادهم بأنّ للدولة اليهوديّة عملاء في كلّ مكان يراقبون ويصغون وربّما سجّلوا الأصوات والتقطوا الصور. وإحدى التحذيرات الأولى التي يتلقّاها الموظّفون الجدد في السكرتاريا هي توخّي الحذر من أن يكونوا هدفًا للتجسّس أو المراقبة خصوصًا من قبل عملاء البلدان التي يرفض الفاتيكان بشدّة الاعتراف الدبلوماسيّ بها. وإسرائيل في رأس قائمة تلك البلدان. وقد أكّد البابا يوحنّا بولس الثاني لدى انتخابه عام ١٩٧٨ على إبقاء الحال على ما هو عليه، ولكنّه بعد مضيّ عدّة سنوات على ولايته وافق أخيرًا على منح إسرائيل الاعتراف الدبلوماسيّ.

غير أنّ موعد اللقاء البابوي مع غولدا مائير كان قبل ذلك التاريخ وقبل ولاية البابا يوحنّا بولس الثاني، بل في عهد سلفه البابا بولس السادس. وقد حُدّد موعد اللقاء في صباح الخامس عشر من كانون الثاني - يناير ١٩٧٣. وأُخطرت غولدا مائير بأنّ مدّة اللقاء مع البابا هي خمس وثلاثون دقيقة بالضبط، وعند نهاية اللقاء سيجري تبادل الهدايا. ولم يتعيّن جدول أعمال محدّد للقاء، لكنّ غولدا مائير كانت تطمح إلى إقناع البابا بالقيام بزيارة إلى إسرائيل يكون الغرض الرسميّ منها إقامة قدّاس لحوالى مائة ألف مسيحيّ عربيّ في "البلد". لكنّها كانت تعرف أيضًا أنّ مردود الزيارة سيعزّز موقف إسرائيل تعزيزًا قويًّا في الساحة الدوليّة.

ولاعتبارات أمنيّة، تقرّر ألاّ يجري الإعلان مسبقًا عن لقاء البابا بمائير. ففي ختام زيارتها لمؤتمر الاشتراكيّين الدوليّين في باريس، ستسافر إلى روما بطائرة مستأجرة من شركة العال الإسرائيليّة. وأثناء الرحلة، يجري إبلاغ الصحافيّين الذين برفقتها أنّها ذاهبة إلى الفاتيكان.

سافر زفي زامير رئيس الموساد إلى روما للإشراف على الترتيبات الأمنيّة. فالمدينة كانت بنظر الإسرائيليّين "مرتعًا للعصابات الإرهابيّة من الشرق الأوسط وأوروبّا على السواء". وكانت روما قد تحوّلت إلى مركز لتنصّت مهمّ للموساد ووظيفته الراهنة وهي تعقّب رجال المقاومة الفلسطينيّة واغتيالهم.

كان زمير قد اختار أحد أقدر عملائه "مارك هسنر" للإقامة في روما والتجسّس على الجالية العربيّة الكبرى هناك. أمّا لمدينة ميلانو فقد انتدب رئيس الموساد "شاي كولي" وهو عميل مجرّب آخر. واصطحب زامير الرجلين إلى الفاتيكان بعدما أطلعهما على مهامّ الزيارة المرتقبة. وكان زامير يأمل في مدّ جسور لتبادل المعلومات مع دوائر الفاتيكان.

لدى وصول الوفد الأمني الاسرائيلي إلى الفاتيكان، كان في انتظاره خارج القصر الرسولي رئيس جهاز أمن الفاتيكان، وهو رجل طويل القامة دقيق الوجه يرتدي بزّة كحليّة اللون، وهو اللباس الرسميّ لجهاز أمن الفاتيكان "فيجيلي". ومن ثمّ اصطحب رئيس جهاز أمن الفاتيكان أعضاء الوفد الثلاثة في جولة استغرقت عدّة ساعات في الدولة - المدينة الصغيرة ليستطلعوا الأمكنة التي يحتمل أن يختبئ فيها أيّ مسلّح يعتزم اغتيال غولدا مائير. وبدون علم رئيس جهاز أمن الفاتيكان، كان زفي زامير يستطلع بدوره الأمكنة التي تصلح كمخابئ لأجهزة تنصّت يزرعها الموساد حال إنشائه علاقة عمل مع الفاتيكان. بعدها عاد زامير إلى تلّ أبيب وهو راض عن الحالة الأمنيّة التي شهدها في الفاتيكان. والأهم من ذلك كان اعتقاده بأنّه لاحظ تلطّفًا في موقف رئيس جهاز أمن الفاتيكان تجاهه.

سبق وصول الطائرة التي عادت بزامير إلى إسرائيل وصول المعلومات إلى منظّمة "أيلول الأسود" الفلسطينيّة المتعلّقة بزيارة غولدا مائير إلى الفاتيكان. وقد رأت

المنظّمة في زيارة مائير هذه فرصة لا تفوّت. فوضعت خطّة للهجوم بالصواريخ على الطائرة التي تقلّ رئيسة وزراء إسرائيل فور هبوطها في مطار ليوناردو دافنشي في روما، آملة، ليس فقط في قتل مائير، بل ووزراء إسرائيليّين بارزين في حكومتها كانوا برفقتها وكبار مسؤولي جهاز الموساد على الطائرة.

وكانت خطّة منظّمة أيلول الأسود جريئة وبسيطة. فكانت تقضي بأن يجري تحميل الصواريخ على متن زورق في "دوبروفنيك" في يوغوسلافيا وتُنقل عبر الأدرياتيكي إلى "باري" على الساحل الشرقيّ لإيطاليا. ومن هناك يجري نقل هذه الصواريخ برًّا إلى روما قبل وقت قصير من موعد هبوط طائرة غولدا مائير.

في الصباح الباكر من يوم الرابع عشر من كانون الثاني ـ يناير ١٩٧٣، تنصّت متطوّع في الموساد يعمل في دائرة البريد والهاتف المركزيّة في روما على مكالمتين هاتفيّتين أجريتا من هاتف عموميّ في مبنى سكنيّ يقيم فيه أحيانًا مناضلون فلسطينيّون. كانت المكالمة الأولى لـ"باري" والثانية لـ"أوستيا"، وهو المرفأ القريب من روما. وكانت المكالمتان باللغة العربيّة التي يتقنها المتطوّع الذي نقل عن المتحدّث قوله "إنّ الوقت قد حان لإيصال شموع حفلة عيد الميلاد".

أقنعت العبارة زامير بأنّ المكالمة أمر مشفّر ذو صلة بهجوم مسلّح مرتقب. فإنّ "شموع حفلة عيد الميلاد" قد تكون إشارة إلى الأسلحة، وأقرب ما يكون إلى فكرة الشموع هو الصاروخ، الوسيلة المثاليّة لتدمير طائرة غولدا مائير. ورأى زامير أنّه من العبث تحذير مائير لعنادها، كذلك فإنّ تنبيه الفاتيكان إلى الخطر قد يؤدّي بالفعل إلى إلغاء الزيارة. بالفاتيكان لا يرغب أبدًا في حصول حادث من هذا النوع خصوصًا متى تعلّق بالصراع العربي ـ الإسرائيليّ. فإتّصل زامير هاتفيًّا بالعميلين هسنر وكولي اللذين كانا قد رافقاه إلى الفاتيكان، وأمر كولي بالانتقال من ميلانو إلى روما. وبعدئذ

اصطحب زامير فريق الموساد الصغير الذي برفقة مائير على أول رحلة جويّة إلى المدينة. وقد عبّر زامير عن المزاج الذي كانوا به بقوله ساخرًا إنّ روما قد تكون المدينة الأبديّة لغولدا مائير.

في روما أبدى زامير مخاوفه إلى رئيس فرقة مكافحة الإرهاب الإيطاليّة "ديغوس" التي قام ضبّاطها باقتحام المبنى السكنيّ الذي أجري منه الاتّصالان الهاتفيّان إلى باري وأوستيا. وعُثر أثناء التفتيش في إحدى الشقق على دليل روسيّ لطريقة إطلاق الصواريخ. وأمضى رجال ديغوس الليل بصحبة ضبّاط الموساد وهم ينفّذون سلسلة غارات على شقق أخرى لمنظّمة التحرير الفلسطينيّة. لكنّهم لم يعثروا على أيّ شيء يؤكّد صحّة مخاوف زامير. وعندما أصبح الفجر على وشك الطلوع، لم يكن قد بقي على موعد وصول طائرة غولدا مائير سوى ساعات قليلة، عندها قرّر زامير أن يركّز أعمال البحث على المطار وجواره. وبعد وقت قصير على شروق الشمس، لاحظ هسنر وجود شاحنة صغيرة من طراز فيات مركونة في حقل على مقربة من طريق الطائرات، فأمر سائق الشاحنة بالنزول منها، ففُتح الباب الخلفيّ للشاحنة وانطلق منه رشق من الرصاص. لكنّ هسنر لم يصب بأذى، بل ردّ على مصدر النيران فأصاب اثنين من المسلّحين بجروح خطرة. ولحق هسنر بالسائق جريًا على قدميه وتمكّن من الإمساك به بينما كان يحاول الاستيلاء على سيّارة كان كولي يقودها. واعتقل عميلا الموساد السائق ونقلاه بالسيّارة بأقصى سرعة إلى زامير الذي كان في شاحنة كبيرة يستخدمها كمقرّ قيادة متحرّك.

في هذه الأثناء، كان رئيس الموساد قد تلقّى رسالة لاسلكيّة تفيد بأنّه عُثر في شاحنة الفيات على ستة صواريخ، لكنّه أصرّ على التأكّد ممّا إذا كانت هناك صواريخ منصوبة في أماكن أخرى. وقد تلقّى سائق شاحنة الفيات ضربًا مبرّحًا وعنيفًا حتّى

اضطرّ إلى الكشف عن مكان الصواريخ الأخرى. وبالسرعة القصوى انطلقت السيّارة نحو الشمال وهي تقلّ زامير وهسنر وكولي، وقد حُشرَ بينهم السائق الذي أُدمي من شدّة الضرب.

عثر رجال الموساد الثلاثة على شاحنة مركونة إلى جانب الطريق وقد خرج من سقفها ثلاثة رؤوس صواريخ. في تلك اللحظة كانت طائرة غولدا مائير الـ ٧٤٧ تلوح في الأفق وهي تلتمع تحت أشعّة الشمس. وبدون إبطاء استخدم زامير الشاحنة الكبرى كمنجنيق الصدم، فأصاب الشاحنة الصغرى في جنبها فانقلبت، وانقلبت معها الصواريخ على مسلّحين كانا بداخلها فكادا يقضيان. وبعد توقّف قصير أُلقي في خلاله بالسائق المغمى عليه على الطريق إلى جانب الشاحنة المقلوبة، تابع زامير سيره فاتّصل بفرق "ديغوس" لينبّهها إلى وقوع "حادث مثير للاهتمام ينبغي التحقيق فيه".

فكّر زامير لبرهة بقتل المسلّحين لكنّه شعر بأنّ قتلهم سيتسبّب بحرج كبير من شأنه أن يؤثّر على لقاء البابا بغولدا مائير.

كانت غولدا مائير تشعر بأنّ البابا يحمل على كتفيه الضعيفتين عبء العالم، وأنّ العبء يكاد يسحق جسده الضئيل الملتفّ بالبياض. ولدى انتهاء الاجتماع ردّ البابا على سؤالها وقال إنّه سيزور الأرض المقدّسة، على سبيل الحج. وعندما سألته عن حين احتمال إقامة إسرائيل علاقات رسميّة مع الفاتيكان، تنهّد وقال: " إنّ الوقت لم يحن بعد". وأهدته مائير كتابًا مغلّفًا بالجلد يتحدّث عن الأرض المقدّسة، أمّا هو فأهداها نسخة من المنشور البابوي العام الذي حدّد فيه تكريس منصبه البابويّ. وفيما كانت في طريقها إلى خارج الفاتيكان، قالت غولدا مائير لزامير إنّه يبدو أنّ للفاتيكان ساعة تختلف عن ساعة بقيّة العالم.

في أعقاب فشل محاولة غولدا مائير إقامة علاقات دبلوماسيّة مع الفاتيكان، أنشأ زفي زامير كيانًا دائمًا للموساد في روما علّه يخترق الفاتيكان. ومن مبنى يقع بالقرب من السفارة الإسرائيليّة انطلق عميل الموساد في محاولته الفاشلة لتجنيد مخبرين من القسس. وجلّ مل علم به كان من نوع القال والقيل الذي استرق إليه السمع في الحانات والمطاعم التي يرتادها موظّفو الفاتيكان. ولم يحقّق شيئًا عدا مراقبته بحسد رئيس فرع CIA في روما وهو يدخل بسيّارته إلى الفاتيكان لعقد الاجتماعات ليل الجمعة مع البابا في موعد أسبوعيّ منتظم.

واستمرّت علاقة الفاتيكان مع منظّمة التحرير الفلسطينيّة في عهد البابا يوحنّا بولس الثاني الذي انتخب عام ١٩٧٨. ومنذ ذلك التاريخ استقبل البابا ياسر عرفات وكبار مساعديه في لقاءات خاصّة طويلة كان البابا يؤكّد في خلال كلّ منها التزامه بمتابعة البحث الجادّ في سبيل إقامة وطن للفلسطينيّين. وأصبح لمنظّمة التحرير الفلسطينيّة بعد انتقال مقرّها إلى تونس ضابط اتّصال دائم على صلة بسكرتاريا الدولة، كما أصبح للفاتيكان مندوبه الخاص الأب عيدي أياد الذي انتُدب لدى المنظّمة[١].

١ ـ طوماس غوردون، إنحطاط الموساد، ص٢٣٧ ـ ٢٤٧، ٢٥٩.

الفَشلُ الاستخبَاراتي الإسرائيلي في توقُّع حَرب تشرين ـ أكتُوبر

بحلول عام ١٩٧٣، كان خطر كبير قد بدأ يستولي على عقول بعض قادة الموساد، ومنهم "ديفيد كيمحي"، وهو احتمال اندلاع حرب شاملة مع العرب بقيادة مصر. لكنّ الموساد كان صوتًا مستوحدًا في أجهزة المخابرات الاسرائيليّة. فقد نقل عميل الموساد ديفيد كيمحي قلقه في هذا الشأن، لكنّ الاستخبارات العسكريّة الاسرائيليّة أمان رفضتها رفضًا قاطعًا. فقد أشار استراتيجيّو أمان إلى أنّ مصر قد طردت قبل وقت قصير عشرين ألف خبير سوفياتيّ من أراضيها، وهو أمر ينبغي الاستدلال به على أنّ الرئيس المصري أنور السادات يسعى إلى حلّ سياسيّ في الشرق الأوسط. إلاّ أنّ كيمحي لم يقتنع. وتوطّدت قناعته بالاستناد إلى المعلومات التي تجمّعت لديه بأنّ السادات سيوجّه ضربة وقائيّة، لأنّ إسرائيل ترفض الإذعان للمطالب العربيّة.

كانت مصر تريد استعادة أراضيها المحتلّة وقيام دولة فلسطينيّة في الضفّة الغربيّة وغزّة المحتلّتين. وكان كيمحي يعتقد أنّه حتّى لو قدّمت إسرائيل هذه التنازلات فإنّ منظّمة التحرير الفلسطينيّة ستتابع حربها الدمويّة لتركيع إسرائيل. وزاد ذعر كيمحي عندما استبدل السادات وزير دفاعه السابق بشخصيّة أكثر تشدّدًا كان أوّل عمل قام به تعزيز دفاعات مصر على طول قناة السويس. وكان قادة مصر العسكريّون يقومون بزيارات منتظمة إلى العواصم العربيّة الأخرى طلبًا للمساعدة، وكان السادات قد وقّع اتّفاقًا جديدًا مع موسكو لشراء أسلحة. وقد رأى كيمحي في هذه الإشارات إنذارات

بالسوء. وعنده أنّ "المسألة ليست إذا ما كانت ستقع الحرب، بل في أيّ يوم تبدأ". لكنّ قادة الاستخبارات العسكريّة أمان استمرّوا في التقليل من أهميّة التحذيرات التي تأتيهم من الموساد، وقد أبلغوا قادة الجيش الاسرائيلي أنّه حتّى لو بدا أنّ الحرب ستبدأ فستكون هناك مهلة إنذار لا تقلّ عن خمسة أيّام. وهي مدّة تزيد عن حاجة القوّة المسلّحة الجويّة الاسرائيليّة لتكرار نجاحها في حرب حزيران ـ يونيو ١٩٦٧. وردّ كيمحي بأنّ العرب قد تعلّموا من أخطاء الماضي... لكنّه وجد نفسه أنّه أصبح موصومًا بأنّه عضو في جهاز الموساد مهووس بالحرب، وهي تهمة لا تتّفق مع شخص مثله يعتني بكلّ كلمة يتفوّه بها. ولم يكن بوسعه سوى الاستمرار في تقييم الاستعدادات المصريّة ومحاولة الاستدلال على تاريخ محتمل لبدء الهجوم.

في أوائل أيلول ـ سبتمبر ١٩٧٣، أفاد آخر تقارير ضبّاط الموساد على طرف سيناء من قناة السويس أنّ الاستعدادات المصريّة تقوى. فقد أنهى مهندسو الجيش وضع اللمسات الأخيرة على زوارق التجسير التي يستخدمها الجنود والمدرّعات لعبور القناة. وعندما أقنع الموساد وزير الخارجيّة الاسرائيلي بإثارة موضوع الاستعدادات المصريّة المقلقة أمام الأمم المتّحدة، ردّ المندوب المصريّ مهدّئًا بأنّ هذه النشاطات روتينيّة.

هذه الكلمات كان لها برأي كيمحي "ذات نوع الصدقيّة" الذي كان لما تفوّه به السفير الياباني في واشنطن عشيّة الهجوم على ميناء "بيرل هاربر". ومع ذلك قبلت "أمان" الإيضاح المصريّ. وأكثر ما أدهش كيمحي هو أنّه بحلول تشرين الأول ـ أكتوبر، وحيثما استقرّ نظره المستطلع، كانت هناك دلائل أخرى على متاعب توشك أن تقع. كانت ليبيا قد أمّمت للتوّ شركات النفط الغربيّة، وكان الحديث يدور في دول الخليج المنتجة للنفط عن قطع كلّ الإمدادات النفطيّة إلى الغرب. ومع ذلك فقد استمرّ

الاستراتيجيّون في أمان بقراءتهم الخاطئة للمشهد الاستخباري. فعندما تعرّضت الطائرات الحربيّة الاسرائيليّة لهجمات الطائرات السوريّة، وانتهى الاشتباك بانتصار للقوّة الجويّة الاسرائيليّة ساعدت عليه معرفة طيّاريها التكتيكيّة المكتسبة من طائرة "الميغ" المسروقة من العراق، رأى جهاز أمان أنّ في إسقاط اثنتي عشرة طائرة سوريّة دليل آخر على أنّه لو أعلن العرب الحرب فستكون هزيمتهم ساحقة[1].

يقول باحثون إنّ رجال المخابرات العسكريّة الإسرائيليّة قد قاموا بالعمل حتّى يوم عيد الغفران، أو يوم "كيبور"، أقدس الأعياد اليهوديّة والذي تتوقّف فيه الحياة في إسرائيل عادة. كان يوم السبت السادس من تشرين الأوّل أكتوبر ١٩٧٣، والساعة هي تمام الثانية بعد الظهر، عندما قام قائد موقع جبل الشيخ الملازم "آموس ليفنبورغ" بالاتّصال بضابطه الأعلى عبر اللاسلكي ليبلغه بنيران المدفعيّة السوريّة المتساقطة على موقعه. ويسترجع ليفنبورغ ما حدث في ذلك اليوم بقوله: "لقد أبلغت الضابط الأعلى أنّني لست قلقًا، وأنّ كلّ شيء تحت السيطرة، وأنّه بمجرّد توقّف القصف، سنقوم بإصلاح الهوائيّات التي تمّ تدميرها في الخارج".

لكن في غضون ساعات أصبح ليفنبورغ والناجون من وحدته في أيدي السوريّين.

لقد كان جبل الشيخ العيون والآذان البالغة السريّة لإسرائيل في الشمال، وقد شكّل الموقع هناك واحدًا من وحدات التنصّت العديدة التابعة للمخابرات العسكريّة الاسرائيليّة التي تلتقط جميع أنواع الإرسال اللاسلكي في المنطقة، وإذا كان الجوّ صحوًا، يمكن للمرء فوق هذا الجبل أن يراقب الانتشار الكامل للقوّات السوريّة حتّى دمشق، التي تقع على مسافة ٢٥ ميلاً. والمفترض أنّ موقع التنصّت المتطوّر في جبل الشيخ، كان لا بدّ

---

١ ـ طوماس غوردون، إنحطاط الموساد، ص١٦٦ ـ ١٦٨.

أن يرى ويسمع كلّ شيء تفعله القوّات السوريّة، لكنّ النظام أخفق في ذلك. والأسوأ من هذا، إسرائيليًّا، أنّ استيلاء السوريّين على جبل الشيخ، أدّى إلى سقوط منجم ذهب في أيديهم. فالإسرائيليّون كانوا يحتفظون بمجموعة كاملة من الشيفرات العسكريّة هناك، الأمر الذي جعل في مقدور السوريّين التقاط جميع الاتّصالات لسلاح الطيران الإسرائيليّ. وقد اعترفت وكالة المخابرات العسكريّة الاسرائيليّة بأنّ ذلك كان خطأ فادحًا.

في واقع الحال، فإنّ حكاية آموس ليفنبورغ وما تعكسه من إخفاق في اكتشاف الخطر وصدمة الوقوع في الأسر، تصوّر صادق لحالة الإذلال التي عاشتها إسرائيل بأسرها في ذلك اليوم. لقد تمكّن الجيشان المصريّ والسوريّ من مفاجأة المواقع الدفاعيّة الإسرائيليّة، مفاجأة كاملة، في الأراضي التي فقدتها الدولتان العربيّتان قبل ذلك بستّة أعوام في حرب حزيران ـ يونيو، وتمّ ذلك بواسطة هجوم تمّ التخطيط له بعناية.

ويقول هؤلاء الباحثون إنّ مؤسّسة المخابرات في إسرائيل قد فشلت للمرّة الأولى في أداء مهمّتها الأساسيّة، وهي اكتشاف الإشارات السابقة لنشوب الحرب، وتحذير القيادة الاسرائيليّة مسبقًا بقرب اندلاعها. وهي على أيّ حال مسؤوليّة وكالة المخابرات العسكريّة أمان، لكنّ اللوم ينبغي أن يمتدّ ليشمل جميع وكالات الأمن في الدولة اليهوديّة. لقد كان يتعيّن على رؤساء وكالات المخابرات في لجنة "فاراش"، وهي اللجنة المختصّة بالتنسيق بين أجهزة المخابرات المختلفة، أن يتبيّنوا أنّ الحرب قادمة ولا ريب في ذلك. وكان لديهم كافّة الأسباب، حتّى قبل خمسة شهور من يوم كيبور، ليعرفوا الاستعدادات القتاليّة التي قام بها الجانب العربيّ. غير أنّ رؤساء وكالات المخابرات الإسرائيليّة لم يقتنعوا بما كان يراه بعض عملائهم ومحلّليهم الأدنى مرتبة.

ويفيد محلّلون استراتيجيّون بأنّ أذهنة الجميع في إسرائيل كانت أسيرة خبراء الاستراتيجيّة في إسرائيل بالمفهوم العام أو الفكرة العامّة. هذه العقيدة غير الرسميّة، ولكنّها القويّة، قد نمت بسرعة في أعقاب حالة التيه والإعجاب بالنفس التي ترتّبت على انتصار الأيّام الستّة في عام ١٩٦٧. وتحدّدت هذه العقيدة في أنّ العرب لن يشنّوا مطلقًا حربًا شاملة ضدّ إسرائيل، حيث أنّه، برأي هؤلاء، ليس بمقدورهم أن ينتصروا. وفي إطار استبعاد الاسرائيليّين لإمكانيّة شنّ الحرب من جانب العرب، ازداد اقتناعهم بأنّه في مقدورهم تحطيم خطوط العرب والتقدّم صوب العاصمتين المصريّة والسوريّة: القاهرة ودمشق.

ويرى هؤلاء المحلّلون أنّ وكالات المخابرات، كعادتها، كانت تحشد معلومات تفصيليّة عن تحرّكات القوّات في مصر وسوريا، لكنّ المفهوم العامّ أملى على إسرائيل أنّ أيّ نشاط عسكريّ هو مجرّد تدريبات ومناورات، أو محاولة لخداع إسرائيل ودفعها لأن تأمر بتعبئة قوّات الاحتياط فيها ممّا يكلّفها الكثير. فلقد كان المفهوم العام مريحًا وباعثًا على الثقة والاطمئنان، الأمر الذي أدّى إلى انتشاره من القمّة إلى القاعدة في الجيش، في المخابرات وفي هرميّة القيادة السياسيّة.

وللتذكير فإنّ وكالة المخابرات العسكريّة أمان تُعَدّ جزءًا من هيئة الأركان العامّة للجيش الإسرائيليّ، وتقدّم تقاريرها إلى رئيس هيئة الأركان وإلى وزير الدفاع. وعلى الرغم من أنّ القصص المثيرة عن نجاحات الموساد وشين بيت قد ألقت بظلالها على أمان، إلاّ أنّ وكالة المخابرات العسكريّة الاسرائيليّة هي أكبر وأهمّ وكالة مخابرات إسرائيليّة حينما يتعلّق الأمر بالدفاع عن الدولة اليهوديّة. وبهذه الطريقة، وليس فقط في مسؤوليّتها عن الرقابة الإلكترونيّة والاسلكيّة، فإنّها تماثل وكالة الأمن القوميّ الأميركيّة الضخمة التي أطلق عليها المؤلّف "جيمس بامفورد" إسم "قصر الألغاز" في كتابه الذي

يحمل ذات العنوان، تعيش في ظلال وكالة المخابرات المركزيّة على الرغم من أنّها ترسي أساس نجاحات المخابرات الأميركيّة.

ويرى الباحثون أنفسهم أنّ وكالة المخابرات العسكريّة الاسرائيليّة جيّدة التنظيم، مثل أيّ وحدة في الجيش، وتتألّف من ستّة أقسام، لكنّ السيطرة فيها لقسمين هما: قسم الجمع، وقسم الإنتاج. وتتحدّد مسؤوليّة قسم الجمع في إدارة العملاء والمخبرين خارج الحدود، واعتراض الاتّصالات اللاسلكيّة، واختراق الأنظمة الهاتفيّة في الدول العربيّة للتنصّت وتسجيل المحادثات الهاتفيّة على الخطوط الأرضيّة. ويعود نجاح القوّات الإسرائيليّة في حرب الأيّام الستّة عام ١٩٦٧، جزئيًّا، إلى الاعتراض السريع والتقاط اجتماعات التخطيط العربيّة، ومن بينها المكالمة الهاتفيّة الشهيرة بين الرئيس جمال عبد الناصر وبين الملك حسين عاهل الأردن، التي أشرنا إليها في غير مكان، ثمّ توزيع تفاصيل المعلومات من جانب وكالة المخابرات العسكريّة الاسرائيليّة إلى الجنرالات الإسرائيليّين المختصّين. وتعمل وكالة المخابرات العسكريّة الاسرائيليّة على نحو وثيق مع سلاح الطيران في مجال الحرب الإلكترونيّة حيث يتمّ إرسال إشارات راداريّة وإشارات أخرى أكثر تعقيدًا وتطوّرًا لإرباك قوّات العدوّ وخداعها.

أمّا قسم الانتاج، فهو أكبر أقسام وكالة المخابرات العسكريّة الاسرائيليّة، ويضمّ ثلاثة آلاف من الرجال والنساء من بين سبعة آلاف، وهو المجموع الإجماليّ لعدد العاملين في وكالة المخابرات العسكريّة الاسرائيليّة. ومهمّة العاملين في قسم الانتاج هي تلقّي المعلومات التي تمّ جمعها ثمّ تحليلها. ويتمّ تنظيم العاملين في هذا القسم في إطار مكاتب وفقًا لقواعد جغرافيّة ووظيفيّة كما هو الحال في الموساد. فهناك مكتب المنطقة الغربيّة التي تضمّ مصر والسودان وليبيا، والمنطقة الشرقيّة التي تضمّ العراق وسوريا ولبنان، وهناك مكتب خاصّ للأردن وشبه الجزيرة العربيّة، ومكتب يختصّ

بفلسطين لتتبّع واقتفاء أثر الجماعات الفدائيّة، ومكتب آخر يضمّ محلّلين لبحث العلاقات العربيّة ـ العربيّة، ومكتب لاقتصاديّات الشرق الأوسط.

ويقدّم قسم الانتاج تحليلات تتضمّن المشورة لصنّاع القرار السياسيّ في إسرائيل.

ووكالة المخابرات العسكريّة الاسرائيليّة مسؤولة أيضًا عن إرسال الملحقين العسكريّين إلى السفارات الإسرائيليّة في الخارج، وعن فرض الرقابة العسكريّة على الصحف، وتتحمّل أيضًا مسؤوليّة الأمن الميدانيّ الذي يختصّ بمنع تسرّب الأسرار من وحدات الجيش الإسرائيليّ. وتضمّ الوكالة أيضًا قسمًا صغيرًا يسمّى قسم الأبحاث والتطوير، يصمّم المعدّات والبرامج لأنظمة الكومبيوتر الخاصّة بعمل المخابرات. ومن أقسام وكالة المخابرات العسكريّة الاسرائيليّة وحدتا مخابرات صغيرتان إحداهما خاصّة بسلاح البحريّة، والثانية بسلاح الطيران.

هذه البنائيّة الكبرى الشديدة التكاليف، التي تدعى وكالة المخابرات العسكريّة الاسرائيليّة أمان، تقدّم إلى رئيس الوزراء وإلى مجلس الوزراء تقرير المخابرات القوميّ السنويّ موقّعًا من جانب رئيس الوكالة، وهو يهدف إلى مراجعة النطاق العريض من العوامل العسكريّة والاقتصاديّة والسياسيّة التي تزيد من احتمالات الحرب أم السلام، والتنبّؤ بها. غير أنّه في السنوات ما بين ١٩٦٧ و١٩٧٣، فإنّ هذه التقديرات قد تشوّهت جرّاء تأثير "المفهوم العام".

ويقول المحلّلون أصحاب نظريّة "المفهوم العامّ" إنّ الحقيقة المدركة قد وُضعت موضع الاختبار في تشرين الثاني ـ نوفمبر ١٩٦٩، عندما تلقّت وكالة المخابرات العسكريّة الاسرائيليّة معلومات من مصر بدا أنّها تتناقض مع المفهوم العام، وكان مفاد تلك المعلومات أنّ مصر، بصفة خاصّة، والعرب بصفة عامّة، لن يتمكّنوا من شنّ حرب شاملة ضدّ إسرائيل. وقد أشارت تلك المعلومات إلى أنّ المصريّين يقومون

بإعادة بناء قوّاتهم المسلّحة بصورة أكثر نجاحًا ممّا كانت تعتقد إسرائيل. لكنّ المحلّلين في وكالة المخابرات العسكريّة الاسرائيليّة لم يستفيدوا من تلك المعلومات، لأنّهم كانوا غير قادرين على قبولها. وعلى الرغم من الإشارات المبكّرة، فإنّ إسرائيل فوجئت مفاجأة كاملة في شباط ـ فبراير ١٩٧٠، عندما تكشّفت تفاصيل التورّط العسكري السوفياتي الهائل في مصر. فللمرّة الأولى تمّ إلحاق مستشارين سوفيات بالوحدات المقاتلة المصريّة. تلك الحقيقة أدّت إلى تعديل حسابات إسرائيل بدرجة كبيرة في ما يتعلّق بالدفاع عن الحافّة الغربيّة لشبه جزيرة سيناء. فلقد كان واضحًا أنّ وكالة المخابرات العسكريّة الاسرائيليّة أخفقت في أن تقوم بالتحذير مسبقًا بأخطر تورّط لدولة عظمى في المنطقة على مدى ثلاثة عشر عامًا أو ما يزيد. وبدا واضحًا للساسة الإسرائيليّين أنّه يتعيّن أن تقوم لجنة تحقيق مستقلّة ببحث أسباب الفشل. وبدلاً من ذلك، شكّلت أمان لجنة مراجعة داخليّة خاصّة بها بقيادة البريغادير جنرال "ياؤول بن بورات"، قائد وحدات التنصّت في وكالة المخابرات العسكريّة الاسرائيليّة، ولم تؤخذ نتائج هذا التحقيق البسيط أبدًا على مأخذ الجدّ.

ويتابع الباحثون في هذه الظاهرة تحليلهم فيبدو لهم أنّ الجنرال "أهارون ياريف"، قائد وكالة المخابرات العسكريّة الاسرائيليّة، قد أحسّ بأنّ هناك خطأ ما وقعت فيه هيئة محلّليه في أمان، وشعر الضبّاط العاملون مع ياريف بالدهشة لأنّ مديرهم الذي يتّسم عادة بالهدوء وعدم الانفعال، أصبح يفقد السيطرة على أعصابه بسهولة كلّما أُثير موضوع التحليل، ويصرخ فجأة في وجوه مرؤوسيه. وكان ياريف أحيانًا يلوّح بملفّ يحتوي على تقارير مخابرات أوليّة من الجبهة، ويصيح في وجه أحد محلّلي أمان قائلاً: "إنّ التقارير تختلف عن تقديراتك". لكنّ غضب ياريف وصيحاته، جاءت متأخّرة جدًّا عن موعدها المناسب، ولم تعد تجدي نفعًا.

وكان ياريف بعد ثمانية أعوام أمضاها في رئاسة وكالة المخابرات العسكريّة الاسرائيليّة، قد ترك موقعه في تشرين الثاني - نوفمبر ١٩٧٢، ليصبح مستشار رئيسة الوزراء غولدا مائير لشؤون الإرهاب. وقد ترك ياريف وراءه وكالة متغطرسة تشعر بالرضى عن نفسها. ولم يكن هناك أكثر تشبّثًا بفكرة إسرائيل التي لا تُقهر من رئيس وكالة المخابرات العسكريّة الاسرائيليّة الجديد الميجور جنرال "إيلي زيرا". فقد كان من وجهة نظر بيروقراطيّة، فوق قمّة العالم. فوكالة المخابرات العسكريّة الاسرائيليّة هي التي جعلت انتصار حرب الأيّام الستّة ممكنًا، وامتدّ الثناء الاجماعيّ على المؤسّسات السياسيّة والدفاعيّة ليشمل ياريف. وكان لزيرا أيضًا نصيب في هذا بوصفه وكيل ياريف إلى أن ورث هو الوظيفة العليا. وقد بلغت سمعة أمان المحلّقة حدًّا أدّى إلى أنّه عندما ذكر زيرا في عام ١٩٧٣ أنّ مصر مشوّشة وغير مستعدّة إلى حدّ كبير لشنّ هجوم على إسرائيل، لقي الموافقة من قبل جميع المعنيّين، بوصفه مرجعًا نهائيًّا في القدس. وقد أدلى زيرا بهذا التصريح في أيّار - مايو ١٩٧٣، عندما أعلنت حالة التأهّب بين صفوف الجيش المصريّ، واستعدّت وحداته للقيام بهجوم شامل محتمل على طول قناو السويس. وعندا لم يحدث شيء، وخفّضت حالة التأهّب في صفوف المصريّين، اعتُبر ذلك تأكيدًا لرأي زيرا وللمفهوم العامّ. وكان قد تمّ تعبئة بعض قوّات الاحتياط العسكريّة الإسرائيليّة في حينه، لكنّ ذلك اعتُبر مضيعة للمال. ثمّ رُصدت استعدادات عسكريّة مماثلة من جانب كلّ من مصر وسوريا في أواخر أيلول - سبتمبر ١٩٧٣، ولكنّها وفقًا للمفهوم العام المهيمن، اعتُبرت غير ضارّة.

حتّى في الولايات المتّحدة، فإنّ وكالة المخابرات المركزيّة، وفقًا لما ذكره الرئيس الأميركي أنذاك "ريتشلرد نيكسون"، قدّمت تقريرًا في الخامس من تشرين الأوّل - أكتوبر ١٩٧٣ إلى البيت الأبيض مفاده أنّ الحرب في منطقة الشرق الأوسط غير

مرجّحة، وأنّ تحركات القوّات العربيّة الضخمة وغير المعتادة هي مجرّد مناورات سنويّة. ذلك أنّ وكالة المخابرات المركزيّة كانت تحصل على معظم المعلومات عن الشرق الأوسط من المخابرات الإسرائيليّة عن طريق اتّصال مباشر بين مقرّ المخابرات المركزيّة في فيرجينيا وبين مقرّ الموساد في تلّ أبيب. وبمعنًى آخر، فإنّ الأميركيّين تلقّنوا المفهوم العامّ ممّا أعماهم هم أيضًا.

وهكذا ففي الوقت الذي كان الإسرائيليّون يستهترون بالمعلومات، فإنّ الرئيس المصريّ أنور السادات أشار إلى نواياه الحقيقيّة من خلال إيماءات واضحة في إطار سلسلة من الخطب السياسيّة تكشف عن الميل إلى الحرب. ففي الذكرى الثالثة لرحيل سلفه الرئيس جمال عبد الناصر، قي الثامن والعشرين من أيلول ـ سبتمبر، خاطب السادات أمّته قائلاً: "نحن لن ندّخر جهدًا ولا تضحية لتحقيق هدفنا... أنا لن أناقش أيّ تفاصيل... لكنّ تحرير الأرض هو المهمّة الأولى والأساسيّة التي تواجهنا". لكنّ زيرا ومحلّليه في وكالة المخابرات العسكريّة الاسرائيليّة، كانوا قد قرّروا منذ وقت طويل، إهمال سيل التصريحات العربيّة المتشدّدة التي يدلي بها ساسة من أمثال السادات، حتّى ولو كانت المعلومات الأخرى تبدو مؤكّدة لعزم مصر على خوض الحرب. وقد بحث قادة وكالة المخابرات العسكريّة الاسرائيليّة تقريرًا مفزعًا قدّمه ضابط مخابرات ملحق بالقيادة الجنوبيّة للجيش الإسرائيليّ، التي تشرف على سيناء المحتلّة وحتّى خطّ بارليف الذي يحمي الجانب الذي يسيطر عليه الإسرائيليّون من قناة السويس، لكنّهم رفضوا التقرير الذي قدّمه الملازم "بنيامين سيمانتوف"، في اليوم الأوّل من تشرين الأوّل ـ أكتوبر، وذكر فيه أنّ مصر تستعدّ لشنّ هجوم عبر قناة السويس في غضون أيّام... لكنّ زيرا لم يتأثّر أو يتحرك. وعلى العكس من ذلك، فإنّ الموساد كان أكثر تأهّبًا ويقظة، فقبل أكثر من يومين من الهجوم المصري السوريّ بعث عميل للموساد في

القاهرة بأنّ الحرب تلوح في الأفق وتوشك أن تندلع. وقد أخذ زفي زامير رئيس الموساد هذا التحذير على مأخذ الجدّ، لكنّه لم يناضل من أجل الدفاع عن وجهة نظره.

بالتحديد فإنّ كيفيّة إساءة المخابرات الاسرائيليّة فهم إشارات الحرب لا تزال سرًّا غامضًا، خاصّة وأنّ ضبّاط المخابرات الذين أحيلوا للتقاعد ما زالوا يدافعون بطريقة محمومة عن شرفهم. ووفقًا لنظام العمل الساري آنذاك، فإنّ زامير رئيس الموساد كان المسؤول عن تقديم التقارير حول مثل هذه المعلومات إلى كلّ من غولدا مائير رئيسة الوزراء، وإلى وكالة المخابرات العسكريّة كتابة. وقد اتّهم كبار ضبّاط أمان وأجهزة المخابرات الأخرى زامير بأنّه على الرغم من أنّه كان مقتنعًا بأنّ الحرب وشيكة إلاّ أنّه اكتفى بإبلاغ ذلك هاتفيًّا إلى زيرا رئيس المخابرات العسكريّة، وكلّف أحد مساعديه بإبلاغ ذلك إلى مكتب رئيسة الوزراء غولدا مائير. واعتقد مساعد زامير أنّ كلّ ما هو مطلوب منه هو نقل المعلومات شفاهة إلى مكتب غولدا مائير، لكنّه لم يستطع الاتّصال بالمسؤول المختصّ بواسطة الهاتف. ولم تصل المعلومات إلى حيث كان ينبغي أن تصل، كما أنّ زامير لم يكن موجودًا للتحقّق من مصير هذه المعلومات من مساعده. فقد غادر زامير إسرائيل للقاء مصدر الموساد الذي قدّم هذه المعلومات، كوسيلة ليقوم بنفسه بتقييمها، وكان مصدر هذه المعلومات قد خرج من مصر لمدّة قصيرة للقاء رئيس الموساد، وبالتالي لم تستطع غولدا مائير رئيسة الوزراء أن تجد زامير يوم الجمعة في الخامس من تشرين الأوّل ـ أكتوبر ١٩٧٣. ولم تتوصّل مؤسّسة المخابرات الإسرائيليّة إلى النتيجة التي مفادها أنّ الحرب ستنشب يوم السبت ٦ تشرين الأوّل ـ أكتوبر إلاّ صباح اليوم نفسه، وكان الأوان قد فات تمامًا[١].

---

١ ـ رافيف دان، وميلمان يوسي، أمراء الموساد، ص٢٨٧ ـ ٢٩٦.

ففي ليل ٥ ـ ٦ تشرين الأول ـ أوكتوبر ١٩٧٣، تلقّى الموساد أوضح دليل على الإطلاق على أنّ الحرب ستقع وربّما في خلال ساعات. فقد أفاد عملاء الجهاز ومخبروه في مصر بأنّ القيادة العسكريّة العليا في مصر أعلنت حالة الإنذار القصوى... فلم يعد ممكنًا تجاهل الأدلّة.

وفي الساعة السادسة صباحًا انضمّ رئيس الموساد زفي زامير إلى اجتماع لرؤساء الاستخبارات في أمان عُقد في وزارة الدفاع. وكان المبنى شبه فارغ، فاليوم يوم عيد الغفران، أو يوم "كيبور"، وهو أقدس الأعياد عند اليهود، وهو يوم راحة حتّى لليهود غير المتديّنين، فيه تتوقّف الخدمات العامّة بما في ذلك الإذاعة الرسميّة التي كانت دائمًا وسيلة الجيش لتعبئة الاحتياط عند إعلان الطوارئ الشاملة. وأخيرًا، وأمام الدلائل القاطعة التي قدّمها الموساد تقرّر اتّخاذ خطوة عمليّة، فدُقّ ناقوس الخطر في جميع أنحاء إسرائيل بأنّ سوريا في الشمال ومصر في الجنوب تعدّان لهجوم مزدوج وشيك على إسرائيل...

وبدأت الحرب في الساعة الواحدة وخمس وخمسين دقيقة بالتوقيت المحلّي، بينما كانت الحكومة الاسرائيليّة في جلسة طارئة، وقد طمأنها استراتيجيّو أمان إلى أنّ الهجمات السوريّة والمصريّة لن تبدأ قبل الساعة السادسة من بعد الظهر. وقد تبيّن أنّ تحديد أمان للوقت لم يكن إلاّ عمليّة تخمين محض.

يقول باحثون إنّه لم يسبق لأجهزة الاستخبارات الاسرائيليّة في تاريخها كلّه أن مُنيت بمثل هذا الفشل الذريع في التكهّن بوقوع حدث ما. فلقد أهملت تمامًا الأدلّة الدقيقة التي قدّمها ديفيد كيمحي وغيره[1].

---

١ ـ طوماس غوردون، إنحطاط الموساد، ص١٦٨.

ويقول باحثون: صحيح أنّه كان بمقدرة إسرائيل أن تستخدم سلاحها الجويّ لتوجيه ضربة وقائيّة، لكنّ مائير ووزير الدفاع موشي دايان قرّرا ألاّ يفعلا ذلك، إذ كانا يعلمان أنّ الولايات المتّحدة الأميركيّة لن توافق على مثل هذا الإجراء، وهكذا فمن أجل الحفاظ على المساندة الأميركيّة لإسرائيل، قرّر الإثنان أنّه يتعيّن على إسرائيل الانتظار وامتصاص الضربة الأولى. ولم يكن ذلك سوى مثال على الاعتماد المتزايد على الحكومة الأميركيّة الذي أصبح متكرّرًا في السياسات الخارجيّة والدفاعيّة لإسرائيل. ففي عام ١٩٦٧، كان من الحيويّ أن يعود مائير عميت رئيس الموساد من واشنطن ليقدّم تقريرًا عن انطباعه بأنّ الرئيس جونسون سيعطي إشارة الضوء الأخضر للقيام بضربة وقائيّة. وفي عام ١٩٧٣، إتّخذت غولدا مائير وموشي دايان القرار المعاكس استنادًا إلى نفس العامل: وهو الأميركيّون الذين كان تأييدهم يُعتبر قدس الأقداس الذي لا يمكن التضحية به.

ويقول الباحثون أنفسهم إنّ مفاجأة يوم الغفران، أو يوم كيبور، كانت مماثلة لما كتبه المؤرّخون الأميركيّون عن الهجوم اليابانيّ على بيرل هاربور في عام ١٩٤١، فالمعلومات كانت موجودة ومتاحة لكنّ رؤساء المخابرات اختاروا تجاهلها أو أساؤوا تحليلها. فكان جنود المشاة الإسرائيليّون في سيناء ومرتفعات الجولان يسقطون لتعويض رضى زعمائهم عن أنفسهم وأخطاء مؤسّسة المخابرات.

وفي إطار معارك ضارية، استعاد السوريّون جزءًا من مرتفعات الجولان، وعَبَر المصريّون قناة السويس وكسبوا مواطئ قدم في سيناء، وأصيب دايان، بطل حرب ١٩٦٧، بالذعر، وبلغ به اليأس والاكتئاب، في اليوم الثالث من الحرب، حدًّا جعله يغمغم في غموض عن التدمير الممكن "للمعبد الثالث لإسرائيل". ويروي التاريخ اليهوديّ عن المعبد المقدّس الأوّل الذي دمّره أهل بابل في عام ٥٨٦ قبل الميلاد،

وعن المعبد الثاني الذي خرّبه الرومان في عام ٧٠ ميلاديّ. أمّا المعبد الثالث فهو دولة إسرائيل ذاتها، وحدّد دايان فرص بقائها بأنّها منخفضة جدًّا.

وثار حديث بين الجنرالات الإسرائيليّن حول استخدام الأسلحة "غير التقليديّة"... وفي ذلك الأسبوع تمّ للمرّة الأولى وبجدّيّة بحث الحاجة المحتملة لاستخدام القنابل النوويّة الإسرائيليّة كملجإ أخير للدفاع شبه الانتحاريّ. وكانت الترسانة النوويّة السريّة التي عملت لاكام الخفيّة بجدّ بالغ لامتلاكها، لم تُختبر بعد، لكن طبقًا لأوامر موشي دايان بوصفه وزيرًا للدفاع، تمّ إعداد بعض صواريخ "أريحا" وحوامل خاصّة للقنابل على طائرات الفانتوم، تمهيدًا للاستخدام المحتمل للأسلحة النوويّة. وقد أثّر يأس وزير الدفاع تأثيرًا مخيفًا على معنويّات غولدا مائير، وبدا أنّها تفكّر بالانتحار، كما يتذكّر كاتم أسرارها "لو كادار" الذي يقول:

"لم أرها أبدًا بمثل هذا الشحوب، وقالت لي إنّ دايان يريدنا أن نناقش شروط الاستسلام، وأيقنت أنّ امرأة مثلها لن تقبل مطلقًا أن تعيش مثل هذه الظروف، لهذا أعددت العدّة لانتحار كلّ منّا... وذهبت للقاء طبيب صديق لي، ووافق على أن يعطيني الحبوب الضروريّة لكي نتمكّن نحن الإثنين من الرحيل معًا"...

ويقول باحثون إنّ غولدا مائير عادت واستجمعت قواها، وأمرت هي شخصيًّا ورئيس أركان جيشها الليفتنانت جنرال "ديفيد إليعازر" بتوجيه الهجمات المضادّة التي أدّت في نهاية المطاف إلى وقف الاجتياح.

ويقول هؤلاء الباحثون إنّ الضرر الباهظ الثمن بالنسبة لإسرائيل، قد تمثّل بمقتل ٢,٧٠٠ جنديّ، أي ما يعادل، مع مراعاة نسبة عدد السكّان، مصرع ١٧٠ ألف أميركيّ. وفي دولة يتجاوز عدد سكّانها الثلاثة ملايين نسمة بقليل، فإنّ الخسارة كانت صدمة. أمّا الأضرار البعيدة الأمد، فتحدّدت في أنّ دولة إسرائيل بأسرها قد فقدت الثقة

في مؤسّسة مخابراتها الأسطوريّة. ولم يكن ذلك مجرّد أحساس، بل دُوّن كتابة عندما أمرت رئيسة الوزراء غولدا مائير بإجراء تحقيق رسميّ حول حرب يوم كيبور، و"المحدال"، أي التقصير، وهو اللفظ الذي صيغ على الفور تعبيرًا عن تخبّط المخابرات الذي جعل الحرب مفاجأة كاملة. وعُرف المحقّقون باسم "لجنة أجرانات"، نسبة إلى "شيمون أجرانات" رئيس المحكمة العليا في إسرائيل. وكالعادة، أفلت الساسة من الوطأة العظمى للتحقيق، ووجّه اللوم إلى الجيش ومؤسّسة المخابرات، وبرّأت اللجنة ساحة مائير ودايان من المسؤوليّة المباشرة عن "المحدل"[1].

فبنتيجة تلك التحقيقات، جرت عمليّة تطهير واسعة في الدوائر العليا لأمان. ومرّة أخرى أصبح الموساد سيّدًا بلا منازع لأجهزة الاستخبارات الاسرائيليّة على رغم حدوث تغيير رئيسيّ فيه. فقد أقصي زامير عن منصب المدير العام لأنّه لم يُظهر مقدارًا كافيًا من الحزم في مقارعة نظيره في أمان. وحلّ إسحق هوفي في منصب المدير العام للموساد[2]. وقد جعلت لجنة أجرانات من إليعازر رئيس الأركان، ومن قائد المنطقة الجنوبيّة "شاموئيل جونين" كبشي فداء. وأصبح الميجور جنرال "شلومو غازيت" قائدًا لوكالة المخابرات العسكريّة أمان. وأوصت اللجنة بإعادة تنظيم بنيويّة لمؤسّسة المخابرات بأسرها، على أن يتضمّن ذلك تشكيل وحدة جديدة. ونتيجة لذلك، أعيد إلى الحياة مركز الأبحاث والتخطيط السياسيّ التابع لوزارة الخارجيّة، الذي كان موجودًا على الورق فقط منذ سنة ١٩٥١. ومهمّة هذا الجهاز ليست جمع المعلومات، إنّما القيام بتقييم مستقلّ للبيانات التي جُمعت بالفعل. ولهذا المركز مقرّه الخاصّ الذي يقع في مبنى منفصل مسوّر داخل وزارة الشؤون الخارجيّة في القدس. وليس مردّ ذلك

---

١ ـ رافيف دان، وميلمان يوسي، أمراء الموساد، ص٢٩٦ ـ ٢٩٨.

٢ ـ طوماس غوردون، إنحطاط الموساد، ص١٦٨ ـ ١٦٩.

إلى أنّ للمركز عملاءه السرّيين، ولكن إلى حماية مادّة المخابرات الأولّيّة التي يقدّمها الموساد ووكالة المخابرات العسكريّة. وتضمّنت التغييرات الأخرى توسيع نطاق قسم الأبحاث الصغير التابع للموساد، كيلا يتمّ الاعتماد فقط على القدرات التحليليّة لوكالة المخابرات العسكريّة.

وكما اقترحت لجنة أجرانات، بدأ باحثو الموساد في المشاركة في إعداد تقرير المخابرات القوميّ الذي يُعدّ كلّ عام لحساب رئيس الوزراء.

على المستوى السياسيّ، تحمّل كلّ من غولدا مائير وموشي دايان ضغط الانتقادات الحادّة على مدى بضعة شهور بسبب هزيمة أكتوبر ١٩٧٣، لكنّ الضغط أصبح لا يُحتمل، وفي نيسان ـ إبريل ١٩٧٤، قدّما استقالتيهما، فسقطت الحكومة، وتشكّلت حكومة جديدة برئاسة "إسحق رابين"، الذي أصبح الزعيم الجديد لإسرائيل، ولم يكن غريبًا على تقارير المخابرات بوصفه رئيس أركان الجيش في حرب ١٩٦٧، ثمّ سفيرًا لدى واشنطن. وبوصفه رئيسًا للوزراء، طلب أن يرى معظم البيانات الأولّيّة التي تجمعها وكالات المخابرات بدلاً من الملخّصات المنظّمة التي يفضّلها كثير من الساسة المدنيّين. ولم يرجع ذلك إلى الخلفيّة العسكريّة لرابين فحسب، فوكالة المخابرات المركزيّة CIA اعتبرته، في صورة شخصيّة سريّة له، إستبطانيًّا ولديه ميل إلى القلق. وقد كانت له عادة شخصيّة متميّزة، وهي عدم الاعتماد على الآخرين، وبالطبع فإنّ رابين لم يكن في طريقه إلى الثقة بتقييم وكالات المخابرات بعد الفشل الكامل لتحليلاتها في عام ١٩٧٣. فقد كان يتحرّك، ببساطة، في إطار المزاج القوميّ الجديد[1].

---

١ ـ رافيف دان، وميلمان يوسي، أمراء الموساد، ص٢٩٩ ـ ٣٠٠.

رابين يركّز على قسم العلاقات الخارجيّة

نتيجة لما أصاب إسرائيل من الهجوم السوري ـ المصري المفاجئ في حرب تشرين الأوّل ـ أكتوبر ١٩٧٣، ركّز رئيس الوزراء الإسرائيلي الجديد إسحق رابين عام ١٩٧٤ على قسم العلاقات الخارجيّة الذي أعيد إحياؤه، حيث رأى أنّ أفضل طريقة لتجنّب وقوع مثل هذا العطل الاستخباري مرّة أخرى، وجود هيئة دائمة ترصد أجهزة الاستخبارات الأخرى. وتحت مظلّة قسم العلاقات الخارجيّة المذكور، أنشئت أربعة فروع عاملة، كان أهمّها "سيم" الذي يمدّ بـ"المساعدات الخاصّة" العدد المتنامي من حركات التحرير في إيران والعراق وسورية والمملكة العربيّة السعوديّة. أمّا الفرع الثاني في الأهميّة فهو فرع "ريش" الذي يتولّى ملفّ العلاقات مع شبكات الاستخبارات الصديقة، وفي رأس القائمة "مكتب أمن الدولة" في جنوب أفريقيا. وهناك في الموساد وحدة مشابهة تدعى "تيفيل" تقيم هي أيضًا علاقات وثيقة مع أجهزة الاستخبارات في جنوب أفريقيا. والعلاقات بين "ريش" و"تيفيل" غالبًا ما يشوبها التوتّر بسبب التداخل المحتوم في وظيفتيهما. وتدعى الدائرة الثالثة في قسم العلاقات الخارجيّة "الرابطة الخارجيّة"، وهي تتعامل مع الملحقين العسكريّين الاسرائيليّين وعناصر الجيش الإسرائيلي الآخرين المنتدبين للعمل في الخارج. وترصد هذه الدائرة أيضًا نشاطات الملحقين العسكريّين الأجانب في إسرائيل. وهو أمر أورث شقاقًا هذه المرّة مع شين بيت الذي كان حتّى قيام الدائرة الجديدة صاحب الصلاحيّة الوحيد في مراقبة مثل هذه النشاطات. أمّا الدائرة الرابعة فتدعى "الاستخبارات ١٢"، وقد أنشئت للتنسيق مع

الموساد، فزاد تأزّم العلاقات مع العاملين في الطبقة العليا من مبنى الموساد القائم على بولفار الملك شاول. فقد شعروا أنّ قسم العلاقات الخارجيّة سيحدّ من سلطتهم.

انتُدب "بن مناشي" للعمل في "ريش" وعُيّنت له مسؤوليّة الملفّ الإيرانيّ. وقد تسلّم وظيفته في الوقت الذي كانت إسرائيل توشك أن تخسر أقوى حلفائها في المنطقة. لقد عمل شاه إيران بجدّ طوال ما يزيد على ربع قرن وبعيدًا عن الأضواء لإقناع جيران إسرائيل من العرب بإنهاء حال العداء تجاه الدولة اليهوديّة. كان لا يزال يحقّق نجاحًا محدودًا خصوصًا مع الملك الأردنيّ حسين عندما أطاحت عرش الطاووس الذي يجلس عليه ثورة آية الله الخميني الإسلاميّة في شباط ـ فبراير ١٩٧٩. وعلى الفور سلّم الخميني مبنى السفارة الاسرائيليّة في طهران إلى منظّمة التحرير الفلسطينيّة. وبالسرعة نفسها عمدت إسرائيل إلى مساعدة الأكراد على شنّ حرب عصابات ضدّ النظام الجديد. كذلك استمرّت إسرائيل بمدّ طهران بأسلحة تستخدمها ضدّ العراق.

كانت سياسة "قتل الجانبين معًا" التي تبنّاها ديفيد كيمحي وغيره في الموساد قد وضعت قيد التنفيذ. وسرعان ما وجد بن مناشي نفسه شريكًا في مخطّط ديفيد كيمحي لمقايضة الرهائن بأسلحة تقدّم إلى إيران. وسافر الرجلان معًا إلى واشنطن حيث يزعم بن مناشي أنّه طاف خلسة في أروقة البيت الأبيض الواسعة واجتمع إلى الرئيس ريغان وتخاطب مع كبار مساعديه بدون تكلّف.

كان بن مناشي شخصيّة جذّابة ومتهوّرة ما جعله ضيفًا دائمًا على حفلات أجهزة الاستخبارات الاسرائيليّة حيث يتبادل كبار السياسيّين المعلومات مع مسؤولي الاستخبارات لما فيه فائدة الجانبين. ويشتهر بن مناشي ببراعته في رواية القصص. وفي الوقت الذي بدأ فيه كيمحي صفقة مقايضة الرهائن بالأسلحة عيّن بن مناشي "المستشار الشخصيّ" لرئيس الوزراء إسحق شامير لشؤون الاستخبارات، بعدما أبلغ

شامير قوله إنّه يعرف أين "دفنوا الجثث"... وقرّر كيمحي أنّ وظيفة بن مناشي الجديدة تجعله الخيار المثاليّ للعمل مع ضابط الاستخبارات الوحيد الذي يكنّ له بن مناشي إعجابًا لا يُضاهى: رافي إيتان.

وبعد أخذ موافقة رئيس الوزراء أُعفي بن مناشي من جميع الواجبات الأخرى ليعمل مع إيتان. وانتقل الرجلان إلى نيو يورك في آذار ـ مارس ١٩٨١، حيث جرت عمليّات "إيران غيت"[١].

---

١ ـ طوماس غوردون، إنحطاط الموساد، ص١٩٠ ـ ١٩٢.

الحقبة الخامسة من تاريخ الموساد

الموساد في عهد إسحق حوفي

خلَف زفي زامير في رئاسة الموساد في الأوّل من أيلول ـ سبتمبر ١٩٧٤ الجنرال "إسحق حوفي". وكان اختياره كرئيس للموساد اختيارًا غريبًا. فقد كانت صلته المباشرة بالاستخبارات ضعيفة جدًّا، ولم يكن بالمفكّر القادر على إظهار الحنكة المطلوبة في الأعمال الاستخباراتيّة. وقد جاء عنه أنّه كان هادئًا إلى درجة الصرامة، محافظًا، يتمتّع بشعبيّة لدى رجاله بفضل صراحته وشجاعته الواضحة، غير أنّه لم يكن أحد يضعه بين العشرة الأوائل في الجيش. وتقول التقارير إنّ حوفي الذي استمرّ ثماني سنوات على رأس الوكالة قد وسّع دور الموساد في جمع المعلومات عن الإمكانات والقدرات العربيّة وكذلك في تحليل مثل هذه المعلومات[1].

ويقول باحثون إنّ إسحق رابين رئيس الوزراء عندما اختار رئيسًا جديدًا للموساد، لم ينظر إلى الموضوع بوصفه "مسألة حياة أو موت". فتغيُّر الحرس لا يعني أيّ اختلاف حقيقيّ. فالأمر لا يعدو أنّ أحد جنرالات الجيش ترك منصبه، وجاء آخر جديد

١ ـ زهر الدين د. صالح، الموساد بين الإخفاق والاختراق، ص٤٦ ـ ٤٧.

مكانه. فبعد أن خدم زفي زامير خمس سنوات كرئيس للموساد، فعل مثلما فعل سلفه مائير عميت، واستقال من منصبه في الوكالة دون أن يترك أثرًا أو يشعر به أحد مثلما كان الحال عند انضمامه إلى الوكالة. وقد انتهت مدّة خدمته في عام ١٩٧٤، وسيطر عليها إخفاقان: كارثة "ليليهامر"، وحرب "يوم كيبور"، على الرغم من أنّ الحرب لم تلطّخ سمعته شخصيًّا. واختار رابين الرجل الذي تربطه به معرفة قديمة: الميجور جنرال إسحق حوفي رئيسًا للموساد. وقد عكس هذا التعيين الذكريات المختلفة عن إخفاق المخابرات عام ١٩٧٣، لأنّ حوفي لا يمكن أن يفخر سوى بتصرّفاته الشخصيّة وقت الحرب. فمن المحتمل أن يكون حوفي، بوصفه مسؤولاً عن القيادة الشماليّة للجيش، الجنرال الوحيد الذي حثّ رؤساءه على الاهتمام والحذر من تحرّكات القوّات السوريّة التي كانت تهدّد بالخطر في الأسابيع السابقة ليوم كيبور. فقد طلب حوفي تعزيز دبّاباته ووحدات مدفعيّته، لكنّ التماسه لقي التجاهل. وفي خلال الحرب، أبلى حوفي وجنوده البلاء الحسن واستعادوا جبل الشيخ ومرتفعات الجولان.

"الصابرة"، لفظة عربيّة تعني أساسًا ثمرة الصبّار، استخدمت للدلالة على اليهود المولودين في إسرائيل، لأنّهم، كما يُقال، يماثلون تلك الثمرة، فهم يبدون شائكين من الخارج، اكنّهم يتّسمون بحلاوة داخليّة. وأصل إسحق حوفي من هؤلاء "الصابرة"، ولد عام ١٩٢٧، وأصبح أوّل رئيس للموساد من "الصابرة". وكان، على غرار الكثيرين من جيله، قد انضمّ إلى قوّات الـ"بالماخ" الخاصّة، وقاتل في حرب عام ١٩٤٨، وقرّر أن يبقى في الجيش مثلما فعل عميت وزامير. وبوصفه أحد قادة قوّات المظلّات، فقد شارك في العديد من العمليّات الإسرائيليّة الجريئة في سيناء وقطاع غزّة قبل حرب عام ١٩٥٦. وبعد ذلك بعشرة أعوام، أصبح ضابط تخطيط في إطار الاستعدادات لحرب الأيّام الستّة. وفي حزيران ١٩٧٤، فإنّ حوفي الممتلئ الجسم وذا الوجه

المستدير، قد غادر الجيش واختفى بكلّ بساطة. ورفضت السلطات الإسرائيليّة التعليق على مكان وجوده، لكنّ المظلّي السابق كان قد هبط واستقرّ في مقرّ قيادة الموساد في تلّ أبيب[1].

أحد ضبّاط الموساد الفاعلين: ديفيد كيمحي، الذي كان موقفه من تعيين حوفي كرئيس للموساد مشوبًا بالتردّد، يصف حوفي من جهته بأنّه كان من طينة مائير عميت، فكلاهما ذو قامة منتصبة ويتمتّعان بخبرة قتاليّة معترف بها، وبالسلوك القاطع نفسه وعدم القدرة على تحمّل الحمقى بأيّ شكل. لكنّ حوفي كان صريحًا إلى حدّ الوقاحة، ويعود تاريخ التوتّر بينه وبين كيمحي إلى عهد كان من مهامّهما فيه تدريب مجنّدي الموساد في معهد التدريب. كان حوفي ذا عقليّة عمليّة اكتسبها من حياته في الداخل الفلسطينيّ، ولم يكن يطيق صبرًا إزاء ميل كيمحي للتفكير البطيء ولهجته الانكليزيّة الراقية حين يتحدّث إلى الطلاّب، ذلك أنّ كيمحي كان مولودًا في إنكلترا لأبوين يهوديّين من الطبقة المتوسّطة، وتعزّز تصرّفاته اللائقة صورة الانكليزي المثال. ولكنّ كيمحي لم يكن عميلاً محنّكًا فحسب، بل أصبح نائب حوفي. فقد رقّي إلى منصب نائب المدير العام قُبيل رحيل زامير. واتّفق حوفي وكيمحي على ضرورة وضع خلافاتهما الشخصيّة جانبًا لضمان استمرار الموساد في أعلى مستويات الأداء.

وإذا كانت العبقريّة المخابراتيّة تنقص حوفي، فإنّه مع ذلك لقي احترامًا كبيرًا دائمًا من جانب رجاله، فقد كان مثابرًا وجادًّا. وتدعّمت علاقته مع رئيس الوزراء بدرجة كبيرة من جانب الحقيقة التي مفادها أنّ حوفي أمضى سنوات مراهقته في نفس جناح حركة العمل الذي انتمى إليه إسحق رابين[2].

---

١ ـ رافيف دان، وميلمان يوسي، أمراء الموساد، ص٣٠٤ ـ ٣٠٥.

٢ ـ رافيف دان، وميلمان يوسي، أمراء الموساد، ص٣٠٦.

مَرحَلةُ مَا بَينَ الحَربِ والسَّلام

في الوقت الذي واصل فيه الموساد اتّباع السياسة الاسرائيليّة التقليديّة لتطويق الدول العربيّة المعادية بأصدقاء "خارجين"، أصبح من الواضح في ظلّ حوفي أنّ إسرائيل لديها حاجة ملحّة جدًّا للتوصّل إلى تفاهم مع الدول العربيّة ذاتها.

أمل رابين في كسر الطريق المسدود في الشرق الأوسط، بعد أن اكتشف أنّ الأردنّ لن يوقّع معاهدة سلام علنيّة مع إسرائيل، وقرّر أنّ الجبهة المصريّة تتطلّب شيئًا أكثر ديمومة من مجرّد فكّ الاشتباك بين القوّات.

طار رئيس الوزراء إلى الرباط في عام ١٩٧٦ مرورًا بباريس، وهو يضع شعرًا مستعارًا على رأسه للتخفّي.

طلب رابين من الملك الحسن الثاني السعي لإقناع الرئيس المصريّ أنور السادات بالقدوم والجلوس إلى مائدة التفاوض.

لم تكن هناك نتيجة سريعة للمبادرة تجاه القاهرة، لكنّ التعاون السرّي بين إسرائيل والمغرب تأكّد من جديد... وأصبح للموساد ولوكالة المخابرات المركزيّة الأميركيّة CIA حريّة التجوّل والحركة وإجراء اتّصالات مع العرب الآخرين المحتمل "أن يكونوا نافعين"، وإدارة مواقع تتصنّت للاحتفاظ بأذن إلكترونيّة تسمع ما يجري في شمال أفريقيا وتقديم المشورة للملك وكبار مسؤوليه بشأن الأمن الداخليّ.

وعلانية، وعلى رؤوس الأشهاد، كان دبلوماسيّو إسرائيل مشغولين، يعملون مع "هنري كيسنجر" وغيره من الوسطاء الأميركيّين لصياغة اتّفاقات الفصل بين القوّات مع مصر وسوريا.

لم يكن التحرّك المنسّق الأميركيّ - الإسرائيليّ قاصرًا على الدبلوماسيّة، فقد كان يجري استكشاف مجالات أوسع نطاقًا بكثير. ونتيجة لرضى كيسنجر وإدارة الرئيس نيكسون عن ضبط النفس الإسرائيلي عشيّة حرب عام ١٩٧٣، فقد كافأ الأميركيّون "تابعتهم" بأحدث طرازات الدبّابات والطائرات والصواريخ. لقد بدأ العصر الذهبي للتعاون العسكري بين الولايات المتّحدة الأميركيّة وإسرائيل. وبتشجيع من المسؤولين في عهد نيكسون، ثم من إدارة الرئيس "جيرالد فورد"، حذت الشركات الأميركيّة حذو حكومتها عن طريق الاستثمارات في الصناعات الإسرائيليّة، وإنشاء مشروعات مشتركة لإنتاج كلّ من العتاد العسكريّ والمدنيّ والخبرة الفنيّة. وتزايدت الاتّصالات بين القوّات المسلّحة في الدولتين مع مشاركة العاملين العسكريّين في تبادل البرامج لمنفعة الجانبين. وزوّدت إسرائيل الولايات المتّحدة بنظرة متفحّصة عن حالة التكنولوجيا السوفياتيّة تستند إلى الإسلحة التي استولى عليها الإسرائيليّون في حروبهم ضدّ العرب. وقد تفحّص الأميركيّون تلك الأسلحة، وطوّروا الإجراءات المضادّة المناسبة، ثمّ بعثوا الأسلحة الجديدة إلى إسرائيل. وشملت تلك الأسلحة صواريخ اختراق دروع الدبّابات، وأجهزة تشويش لخداع الرادار وأنظمة التوجيه، وأجهزة كهربائيّة وإلكترونيّة متقدّمة لاستخدامها في الطائرات الحربيّة. وهكذا أصبح من الممكن اختبار المنتجات الأميركيّة العسكريّة والبرهنة على فعاليّتها في تجربة حيّة من جانب وحدات مقاتلة حقيقيّة في معارك حقيقيّة... وحتّى بعد أن أصبحت الولايات المتّحدة الأميركيّة الحليف الرئيسيّ، بلا أدنى شكّ، والملاك الحارس لإسرائيل، فإنّ

الدولة اليهوديّة كانت منساقة إلى مرحلة انتقاليّة بعد عام ١٩٧٣، دون أيّ توجّه واضح في تشكيل علاقاتها مع جيرانها العرب. وقد عكس الإخفاق في توقيع أيّ معاهدة سلام على الرغم من التوصّل إلى اتّفاقات أكثر تواضعًا لفرض قيود على القوّات، المرحلة الانتقاليّة بين الحرب والسلام في خلال عهد رابين كرئيس للوزراء[١].

كيمحي يتسلّم ملفّ لبنان

وُلد ديفيد كيمحي في إنكلترا لأبوين يهوديّين من الطبقة المتوسّطة، وبدأت رحلته في صفوف الموساد بعدما ترك جامعة أوكسفورد عام ١٩٦٨ وهو يحمل الدرجة الأولى في مادّة العلوم الاجتماعيّة. وبعد قليل من تعيين مائير عميت رئيسًا للموساد، جنّده عميت في الوكالة. وقد حدث ذلك عن طريق منح كيمحي وثائق الجنسيّة والسفر في سفارة إسرائيل في لندن. وبانتقاله إلى تلّ أبيب، أفسح لكيمحي مكان بين المخطّطين والاستراتيجيّين في مبنى الموساد بتلّ أبيب. وقد وصل في وقت حافل بالأحداث الخطيرة. وكان مائير عميت على وشك المغادرة ليخلفه بعد وقت قصير رافي إيتان وكبار المسؤولين في الموساد.

كان جزء من عمل كمحي في البداية يتطلّب مراقبة الأحداث في المغرب، حيث يقيم عدد لا يستهان به من اليهود. وكان مائير عميت قد حاول تحسين أوضاعهم بإنشاء "علاقة عمل" مع جهاز الأمن المغربي المخيف، وذلك بالتحالف معه في السعي

---

١ ـ رافيف دان، وميلمان يوسي، أمراء الموساد، ص٣٠٢ ـ ٣٠٤.

لإسقاط الرئيس المصري جمال عبد الناصر الذي كان يحلم بتأسيس اتّحاد عربيّ قويّ يمتدّ من قناة السويس إلى المحيط الأطلسي في المغرب، وحمل التهديد الذي يمثّله هذا الاتّحاد لإسرائيل مائير عميت على تدريب المغاربة على أساليب مكافحة الاستخبارات وطرق الاستجواب التي تقترب من أعمال التعذيب المتطوّرة. وقد أدّى تطوّر العلاقة بين إسرائيل والمغرب إلى عمليّة تورّط الموساد في اختطاف وقتل المعارض المغربي بن بركة كما جاء في مكان آخر من هذا الكتاب. وكان ديفيد كيمحي من أبرز المخطّطين لتلك العمليّة. كما كان من المخطّطين في الموساد لمكافحة عمليّات خطف الطائرات الاسرائيليّة على أيدي فدائيّين من منظّمة التحرير الفلسطينيّة، وهي العمليّات التي استشرت في حقبة نهاية الستّينات وبداية السبعينات من القرن العشرين. ولعلّه كان من أبرز مخطّطي عمليّة اقتحام مطار عنتيبي لتخليص الركّاب اليهود المحتجزين، وهم ركّاب طائرة الخطوط الجويّة الفرنسيّة التي اختطفها الفدائيّون الفلسطينيّون في حزيران - يونيو ١٩٧٦ وحطّت أخيرًا في مطار عنتيبي في أوغاندا. كما كان من عناصر الموساد القلائل الذين استشرفوا حرب تشرين الأوّل - أوكتوبر ١٩٧٣ دون أن يؤخذ برأيه. وعندما أقصي زامير عن منصب المدير العام للموساد إثر تلك الحرب، وعيّن إسحق حوفي خلفًا له، عُيّن ديفيد كيمحي في منصب نائب المدير. وعندما اندلعت الحرب في لبنان عام ١٩٧٥، كُلّف كيمحي إدارة الملفّ اللبناني في جهاز الموساد.

تشاء المصادفات إثر الحرب العالميّة الثانية، وخلال إعادة رسم خريطة الشرق الأوسط السياسيّة، أن تقوم دولتان متجاورتان متلاصقتان، إلاّ أنّهما تختلفان في الجوهر إلى حدّ التضاد، هاتان الدولتان هما: لبنان وإسرائيل. ففيما قامت الدولة الإسرائيليّة على أساس مفهوم القوميّة الدينيّة، قامت الدولة اللبنانيّة الجديدة على مفاهيم حضاريّة

حديثة، فجاءت تجربة رائدة من نوعها لتعايش الأديان. وهكذا نشأ هناك بلد الطائفة الواحدة، ونشأ هنا بلد الستة عشر طائفة[1] وبذلك انوجد نوع من العداء الأيديولوجي بين البلدين. إلاّ أنّ إسرائيل كانت تواجه في باقي محيطها عداء أشدّ شراسة ومواجهته تطلّب سرعة أكبر، فراحت تستعدّ عسكريًّا بمعاونة الغرب والشرق، وسرعان ما أضحت ترسانة أسلحة متعدّدة المصادر، على أزندتها أيد متعددة الجنسيّات. وكانت الحروب الأربعة المتتالية بين العرب وإسرائيل، وقد تمكّنت تلك الأخيرة بفضل الصهيونية العالميّة، والدّعم الأميركيّ والغربيّ المباشرين من جهة، والمساعدة السوفياتيّة غير المباشرة من جهة ثانية، ليس من أن تردّ الخطر العربيّ عنها وحسب، بل ومن أن تحتلّ الأراضي لثلاث دول عربيّة بعد استيلائها على مجمل فلسطين. وعندما تمّ لها أن تفرّغت لمعالجة "العدوّ المعنويّ" الهانئ إلى شمالها، والذي، بعد أن أصبح ملاذًا للاجئين الفلسطينيّين الذين شرّدتهم إسرائيل من ديارهم لتوطن اليهود مكانهم، كانت مشاكله الداخليّة قد ازدادت واستشرت بوجود الفلسطينيّين وتحوّلهم إلى قوّة عسكريّة.

عاملان دفعا إسرائيل إلى التعجيل بالإنقضاض على لبنان: بدء ظهور الصيغة اللبنانيّة على مسرح العالم المتمدّن كنموذج يحتذى به في التعايش بين الأديان، حتّى في العالم الثالث، وقد برز هذا العامل بروزًا خطيرًا عندما وقف رئيس الجمهورية

---

١ ـ الطوائف اللبنانية الستة عشر حددها قرار المفوض الفرنسي الصادر بتاريخ ١٩٣٦/٣/١٣ على الوجه التالي: الطوائف المسيحية: البطريركيّة المارونية، البطريركيّة الروم أرثوذوكسيّة، البطريركيّة الكاثوليكيّة الملكية، البطريركيّة الأرمنيّة الغريغوريّة (الأرثوذوكسيّة)، البطريركيّة الأرمنيّة الكاثوليكيّة، البطريركيّة السريانيّة أو السريانيّة الكاثوليكيّة، البطريركيّة الأشوريّة (النسطوريّة)، البطريركيّة الكلدانيّة، الكنيسة اللاتينيّة؛ ثم الطوائف الإسلامية: الطائفة السنيّة، الطائفة الشيعيّة (الجعفريّة)، الطائفة العلويّة، الطائفة الإسماعيليّة، الطائفة الدرزيّة، وأخيرًا الطائفة الإسرائيليّة؛ وتعتبر باقي الأقليّات الطائفة السادسة عشر.

اللبنانية بتكليف من الرؤساء والملوك العرب على منبر الأمم المتحدة مشيرًا للعالم إلى أنّ التعايش بين الأديان في الشرق الأوسط حقيقة واقعة... ثم وقف رئيس منظمة التحرير الفلسطينيّة ليطالب بدولة يتعايش فيها المسلم والمسيحيّ واليهوديّ بإخاء. أما العامل الثاني فكان تلك الخطورة التي أصبحت تحدثها المقاومة الفلسطينيّة، وقد أصبح معترفًا بها، عربيًّا على الأقلّ، على أنّها الممثّل الشرعيّ الوحيد للشعب الفلسطينيّ. ولبنان يشكّل المرتكز والمنطلق الأهمّ لهذه المقاومة.

كذلك برزت في الأفق مشكلة جديدة باتت تهدّد إسرائيل في العمق، وهي بداية التقارب بين الديانتين المسيحيّة والإسلاميّة في غمرة الاجتهاد المسكونيّ لتوحيد الأديان، فكان الحوار المسيحيّ - الإسلاميّ الذي وجدت إسرائيل أنّه في حال ذهابه بعيدًا، لا بدّ من أن يشكّل خطرًا على كيانها. والواضح أن لبنان يعتبر المنطلق والمثال لتقارب الديانتين المسيحيّة والإسلاميّة.

ويقول أحد كبار السياسيّين اللبنانيّين في معرض تحليله للحرب اللبنانيّة التي كان قطبها البارز:

"... كان الإسرائيليّون مهتمّين أقصى الإهتمام بتدمير لبنان وبتشويه صورته. ذلك أنّ بلادنا كانت تمثّل في عيون العالم ضربًا من المرآة المضادة للنموذج الصهيونيّ. فالدولة اللبنانيّة هي البرهان الذي يثبّت أنّ في وسع عدّة طوائف أن تحيى وتعمل معًا بسلام، ولهذا فإن الإسرائيليّين يجدون في تدمير لبنان تبريرًا لتعصّبهم الطائفيّ وللعوائق التي يقيمونها في وجه عودة الفلسطينيّين المسلمين والمسيحيّين إلى بلادهم التي طردوهم منها، وأطروحة الدولة المتجانسة عرقيًّا وعنصريًّا والقائمة على انعزاليّة الطائفة اليهوديّة، هي الأطروحة التي يجب أن تظهر على ما سواها بالنسبة

لإســرائيل... والحــقّ أن إســرائيل تصرّفــت بمهــارة عظيمــة وبحــذق ورؤيــة ملحوظة[1]".

وفـي ذلك اليوم المشؤوم من تـاريخ لبنـان الحديث، الأحد ١٣ نيسـان ـ إبريـل ١٩٧٥، وقد دبّرت فيه الأيدي الخفيّة إشعال فتيل الحرب بتدبـير حادثـة إطـلاق الرصاص على سيارة الباصّ التي كانت تمرّ في عين الرمّانـة ناقلـةً بعضّ الفدائيّين الفلسطينيّين، بعد أن أطلق بعض الفلسطينيّين النار علـى حزبيّين كتائبيّين أمام كنيسة هناك كان رئيس الحزب الشيخ بيار الجميّل يحضر فيها القدّاس، وقد قُتل أحد مرافقي رئيس الكتائب... ورغم العماهة التي أصابت أكثر اللبنانيّين والفلسطينيّين فلم يعودوا قادرين على التنبّه العاقل لما يحاك ضدّ لبنـان، طلـع صوت عـاقل ينبّه ويحذّر، ذلك الصوت كان للسياسي اللبناني المعترف له بالمواطنية والنزاهة، الرئيس عادل عسيران الذي قال:

> .. نرجو ألا تستقرّ هذه الحالة دقيقة واحدة، لأنّها ليست إلاّ من صنع العدوّ الذي يتربّص بهذا البلد وتعايشه... إنّ هذا المثل الرائع الذي يدركه العالم من خلال الممارسة اللبنانيّة ومن خلال التعايش اللبناني ـ الفلسطيني من شأنه أن يدك الكيان الإسرائيليّ في نظر الشعوب الراقية التي تتفهم الحقائق كما ينبغي...

وفيما كانت عمليّات تفجير بيوت حزب الكتائب جاريةً على قدم وسـاق فـي عمليّة عنيدة مشبوهة لإشعال الحزب في لبنان، وبعد مرو ١٢ يومًا على حادثة عين الرمّانـة، أصدر المحقّق العسكريّ فجر الخامس والعشرين من نيسان ـ إبريل مذكّرات تقضي

---

١ ـ جنبلاط كمال، هذه وصيّتي، مؤسّسة الوطن العربي (باريس،١٩٧٨) ص٧٧.

باعتقال سبعة أشخاص، بينهم فرنسيّ، يدعى "هنري جان بير دي جول" عمره ٢٥ سنة، بتهمة التخطيط لأعمال تخريبيّة في لبنان. ونُسب إلى هؤلاء السبعة أنّهم كانوا يدبرون عمليّة تفجير لمقرّ حزب الكتائب في بيروت، وتبيّن خلال التحقيقات والتعقّبات أنّ تلك الجماعة قد اشترت موادّ ناسفة للغم سيّارة ووضعها أمام مقر حزب الكتائب.

هذه، وسواها من العمليّات الكثيرة، استخدمت لها إسرائيل الجواسيس والعملاء والمخرّبين، في سبيل تفجير لبنان. وبما أنّ الوضع كان مهيّئًا بفعل سائر باقي التناقضات المتصادمة على أرض الوطن الصغير، كان لإسرائيل ما تريد. وقبل أن تكون المناوشات التي جرت في الداخل قد تحولت إلى حرب بالمعنى الحقيقيّ، وكأنّ الإعلام الصهيونيّ كان في حالة استنفار لهذه الغاية، كتب المعلّق الصهيوني "موريس بوليتي" في جريدة "لي جورنال ديزرائيل" بتاريخ ١٧ نيسان ـ إبريل ١٩٧٥، بعد مرور أربعة أيام فقط على حادثة عين الرمانة ـ كتب يقول:

> ... هذه الحرب تدور بين السكّان المسيحيّين الذين يتبيّن لهم أن لبنان ليس على ما يجب أن يكون بالنسبة لهم، وبين السكّان المسلمين المصمّمين على تغيير وجه لبنان بمساندة الفلسطينيّين...
>
> ... هذا يعني في لغة القوميّة العربيّة أن الفئات غير الإسلاميّة لن تشكّل سوى طائفة قبلوا بوجودها. وهذا ما يريد الفلسطينيّون القيام به بالنسبة لنا لو أمكنهم ذلك... إنّ تدخّل السلطات اللبنانيّة لا يمكنه أن يكون سوى مسكّن... ما دامت الأسباب نفسها قائمة، ممّا سيؤدّي إلى النتائج نفسها، ولا يمكننا نحن إلا أن نشفق على مصير اللبنانيّين، هذه الأحداث جعلتنا نتنبّه إلى عدم الأخذ برأي توصيات جميع الذين ذكروا لنا هذا البلد كنموذج للتعايش بين مختلف الطوائف عند العرب. والشيء الوحيد الذي لا تطمح إسرائيل بالوصول إليه هو لبنان كهذا...

إذا كان لهذا المقال المعبّر دلالات واضحة على الغايات الإسرائيليّة الهادفة إلى تخريب لبنان وتدمير كيانه والقضاء على صيغة التعايش فيه، فهو لا يدلّ على أكثر من نصف الحقيقة، أمّا النصف الثاني، فهو غاية إسرائيل النهائيّة: تقسيم لبنان إلى دويلات دينيّة تكون على شاكلتها ومثالها.

".... فالإسرائيليون لم يكونوا بريئين من كل علاقة بهذه القضيّة، إذ يقوم مخطّطهم على تشجيع قيام دويلات طائفيّة وطنيّة متناقضة الاستقلال، حول دولتهم اليهوديّة في إسرائيل، دولة درزيّة وأخرى علويّة وثالثة مارونيّة وكرديّة الخ... وقد وُضع هذا المخطّط قبل قيام إسرائيل، ولكنّه لم يعلن إلاّ بعد ذلك. وثمّة بعض النصوص التي تشهد على عزم الإسرائيليّين هذا، كالرسائل الرسميّة المتبادلة بين رئيس الوزراء الإسرائيلي السابق "موشي شاريت" وسفيره في روما "سامسون"، حول تفتيت المنطقة إلى دويلات طائفيّة بحيث تصبح إسرائيل الدولة المتفوّقة الراجحة بينها، الأمر الذي يتيح لها البقاء، لا بل إنّ المدير العام لوزارة الخارجيّة الإسرائيليّة أكّد مؤخّرًا بمناسبة الأزمة اللبنانيّة هذه الرغبة في قيام كيان مارونيّ. وهكذا لا تعود إسرائيل محاطة بدول عربيّة وبها وحدها.... فإنّ الإسرائيليّين كانوا... جزءًا لا يتجزأ من الحرب اللبنانية[1]".

والغريب في هذا الموضوع، أن جميع القادة المعنيّين في الحرب اللبنانيّة، كانوا يدركون تمام الإدارك هذا الهدف الإسرائيلي... وفي الوقت نفسه، كانوا جميعًا يظهرون معارضتهم العلنيّة للتقسيم، فيما كانوا ينجرفون وراء المخطّط بشكل عجيب...

---

١ ـ جنبلاط، هذه وصيتي، ص٧٦.

قبل أن تشتعل الحرب اللبنانية بسنتين، كانت المؤامرة الإسرائيليّة الهادفة إلى تقسيم لبنان قد أصبحت في حكم المفهومة، والسؤال الذي يطرح نفسه هنا، لماذا عمل المسؤولون وغير المسؤولين للتعتيم على هذه المؤامرة، وتركوها تصل إلى مرحلة التنفيذ؟

ففي الثاني والعشرين من أيار ـ مايو ١٩٧٣، اي قبل الانفجار بعامين، أدلى نقيب الصحافة اللبنانيّة رياض طه بحديث في اجتماع مغلق جرى في دار النقابة، كشف فيه عن أنّه "سوف يعقد مؤتمرًا صحافيًّا بعد أيّام ليذيع فيه أسرارًا ووثائق عن محاولات إسرائيل لإنشاء دولة طائفيّة تضمّ جنوب لبنان وجزءًا من الشوف، والبقاع الغربي، مع الجولان المحتل. إن محاميًا لبنانيًّا كبيرًا قد دُعي إلى روما لمقابلة رئيس الإستخبارات الإسرائيلية، وقد قابله بالفعل واطّلع على ذلك المخطّط الرهيب، فأطلع عليه بعض الجهات اللبنانيّة والسوريّة وتمّ إحباط المكيدة حينذاك. غير أنّ إسرائيل ما تزال مصمّمة على تنفيذ خطّتها، وقد تدعمها أكثر من دولة أجنبيّة راغبة في القضاء على الثورة الفلسطينيّة وعلى الحريّات الديمقراطيّة في لبنان"[1].

من أهمّ العوامل التي ساعدت إسرائيل على تنفيذ مخطّطها بالنسبة للبنان... والمنطقة، وجود وزير خارجية يهوديّ في الولايات المتّحدة الأميركيّة أوصلته الصهيونيّة إلى ذلك المركز الرفيع، بعد أن أطاحت بالرئيس الأميركي ريتشارد نيكسون، وتوصّلت إلى المجيء بالرئيس الضعيف الشخصيّة جيرالد فورد، المتأثّر بوزير خارجيّته الداهية إلى أقصى الحدود. وإذا كان الباحثون السياسيّون يتناولون سياسة هنري كيسنجر تحت عنوان السياسة الخارجيّة للولايات المتّحدة الأميركيّة،

١ ـ عقل فاضل سعيد، الجبيلي أنطون جرجي، الحرب في لبنان (بيروت،لا.ت.) ص٣١٤.

فليس بوسع المتعمّق في استطلاع ودراسة قضيّة الشرق الأوسط أن يتناول سياسة كيسنجر إلاّ تحت عنوان... إسرائيل.

حتّى اليوم، لم يتمكّن المراقبون والباحثون من حلّ لغز قضيّة تقسيم قبرص. وعندما أعطى الوزير اليهودي للخارجيّة الأميركيّة الضوء الأخضر للدولة التركيّة كي تحتلّ القسم التركيّ من الجزيرة، لم يكن أحد يدرك أن ما يجري هناك له علاقة بإسرائيل.

الرئيس القبرصي الراحل المطران مكاريوس، كان أوّل من حذّر من انتقال عدوى التقسيم إلى لبنان... بعدما اكتشف الدور الخطير الذي قام به رئيس الإنقلاب "سامبوسون" بالتعاون مع إسرائيل، وكان اسم سامبسون هذا موضوعًا على القائمة السوداء في أكثر العواصم العربيّة... لتعامله المشبوه مع إسرائيل. وقد كشفت التحقيقات التي أجرتها لجنة الكونغرس حول مؤامرات الاستخبارات المركزية في الولايات المتحدة الأميركيّة، عن مدى تورّط كيسنجر شخصيًّا في عمليّة تقسيم جزيرة قبرص. وفي معرض التشبيه بين قضيّتي لبنان وقبرص، ذكرت جريدة "الفيغارو" الفرنسيّة أنّ "لبنان أصبح تقريبًا مثل قبرص، فهو مقسّم طائفيًّا وإداريًّا وعسكريًّا واجتماعيًّا واقتصاديًّا، مع أنّ زعماءه المتخاصمين يلتقون على منع التقسيم دائمًا... تمامًا كما كان يحدث بين "رؤوف دنكطاش" و"كلاريدس" في قبرص"[١].

عندما التقى وزير الخارجيّة اللبنانيّة "فيليب تقلا" الوزير اليهوديّ ذا المنصب الأميركيّ الرفيع هنري كيسنجر في واشنطن في بداية الحرب اللبنانيّة، حاول تقلا أن يستنتج من كيسنجر بعض جوانب الدور المبهم... وبالرغم من تحذير الوزير اللبنانيّ

---

١ ـ راجع: مجلّة "الحوادث"، العدد ١٠١٥ الجمعة ١٩٧٦/٤/٢٣، ص١٣.

من عواقب الأحداث الدامية في لبنان، فإن حماس الوزير الأميركيّ لم يكن بالقدر الذي يشجّع، وكان من الطبيعيّ أن تترجم ردود فعله تلك بأنّها جزء من المخطّط المحسوب. يومها طلب الوزير تقلا في جميع التعليمات التي أصدرها لسفراء لبنان في الخارج بأن يبحثوا عن "اللعبة" الأميركيّة في لبنان... غير أنّهم لم يوفّقوا في ذلك، لأنّ اللعبة لم تكن أميركيّة بقدر ما كانت... صهيُونيَّة كيسنجريّة. فقد أتت أجوبة السفراء متباينة... متناقضة. أمّا التحليل الأخير.... فقد شدّد على خطّة التقسيم التي هي بالأساس هدف هنري كيسنجر.

ويعترف المعلّقون الإسرائيليّون بتورّط كيسنجر في هذه الخطّة، مع إعطائه المبرّرات، فيقولون إنّ "كيسنجر قد فشل في إقامة صلح انفتاحيّ مع الدول العربيّة، بالرغم من الوعود التي أغدقها على زعماء "تل أبيب" لمساعدته في تحقيق سياسة الخطوة خطوة، وعندما لمس تعنّت العرب في هذا المجال، نصح الإسرائيليّين بعدم الإنزلاق في الحرب، وقرر السير في تعميم نموذج الدول العنصريّة في العالم العربي".

معنى هذا أن الوزير اليهوديّ في الإدارة الأميركيّة، عندما شعر بأنّ الدول العربيّة لن تقبل بإسرائيل عضوًا في جسمها السياسيّ، والإقتصاديّ، والإجتماعيّ، صمّم على السير في مخطّط خلق الدويلات المشابهة لإسرائيل لكي تتعايش معها.

في الواقع، هنالك أمر أساسي لا بد لمتتبّع موضوع إسرائيل واستراتيجيّتها من أن يدركه، وهو أنّ إمكانيّة استمرار الدولة العبريّة في الحياة، تتطلّب شرطًا أساسيًّا، هو التفاعل الكامل مع المحيط. هذا التفاعل الكامل لا يمكن أن يتمّ عن طريق عقد معاهدات الصلح مع الدول الآسيويّة المحيطة بها، على غرار المعاهدة التي عقدتها مع مصر، جارتها الإفريقيّة البعيدة التي تفصلها عنها صحراء وقناة، إنّما هو يتمّ في حال

قيام نوع من الفدراليّة، أو الكونفدراليّة بين الدولة العبريّـة وجاراتها الشرق أوسطيّة. إلا أنّ قيام مثل هذا الإتحاد، يبقى مستحيلاً مع الدول العربية القائمة حاليًّا... وفي سبيل تحقيق مثل هذه الفدراليّة أو الكونفدراليّـة على المدى البعيد، لم يكن هنالك بدّ أمام إسرائيل من محاولة تفتيت المنطقة إلى دول أقليّات، تكون غير قابلة للعيش إلاّ بذلك النوع من الإتحاد... وقد يكون أصحّ القول بأنّـه لم يكن هنالك بدّ أمام إسرائيل من إعادة الكيانات في منطقة شرقي البحر الأبيض المتوسط إلى ما كانت عليه عشيّة إنشاء الدول العربيّة.

يقول أحد المفكرين اللبنانيين في هذا المجال:

"... دول أوروبّا الغربيّة استلهمت مبدأ الإتصال الجغرافيّ في علاقاتها المتبادلة بعد الحرب العالميّة الثانية، فراحت تأخذ في ما بينها البادرة تلو الأخرى لاستثمار هذا الإتصال الجغرافيّ إلى أقصى الحدود، متحدّيـة المخاوف التقليديّـة التي رسخت في قلوب شعوبها مع العداوة التاريخيّة السابقة، فانطلقت السوق الأوروبيّـة المشتركة إلى أن وصلت إلى الوحدة النقديّـة... وقد يكون من أهمّ ثمار مبدإ الإتصال الجغرافيّ الطبيعيّ، التحوّل الجديد في السياسة الإسرائيليّة. فمنذ نشأة إسرائيل سنة ١٩٤٨، قام بين المفكّرين الإسرائيليّين من انتقد بشدّة اعتبار إسرائيل "واجهة الديموقراطيّة الغربيّـة في الشرق الأوسط"، ومَن حذّر من خطر عزل إسرائيل عن محيطها الجغرافيّ العربيّ... أما يمكن اعتبار ما يحدث في هذه المرحلة خطوة أولى نحو ربط إسرائيل بمحيطها الجغرافي الطبيعي؟"[١].

---

١ - صارجي د. بشارة، مجلّة "الحوادث"، العدد ١١٦٩، الجمعة ١٩٧٩/٣/٣٠، ص٥٤ - ٥٥.

إنّ ربط إسرائيل بمحيطها الجغرافيّ الطبيعيّ كان يتطلّب عمليّة قيصريّة. وتلك العمليّة تبدأ بتحضير لبنان للتجزئة. تلك كانت مهمّة ديفيد كيمحي في لبنان. كما مكّنه تغلغل الاستخبارات الاسرائيليّة في لبنان من تزويد الموساد بالمعلومات السريّة عن شنّ عدد من الهجمات الناجحة على معاقل منظّمة التحرير الفلسطينيّة في جنوب لبنان. وتحت غطاء الحرب اللبنانيّة شنّ كيمحي حرب عصابات خاصّة ضدّ بعبع إسرائيل: منظّمة التحرير الفلسطينيّة التي ورّطت نفسها بقوّة في حرب لبنان.

غير أنّ تورّط إسرائيل في حرب لبنان لن يتوقّف عند هذا الحدّ، بل سيجعلها تتورّط في حرب اجتياح علنيّة في العام ١٩٨٢، لعلّها سوف تتمكّن من إضعاف المقاومة الفلسطينيّة عبر الأراضي اللبنانيّة، ولكنّها لن تنجح أبدًا في تحقيق الهدف الأكبر: تقسيم لبنان. وسوف تجد إسرائيل نفسها في بداية الألفيّة الثالثة مضطرّة إلى الانسحاب من بعض آخر معاقلها في جنوب لبنان تحت ضربات المقاومة اللبنانيّة.

أمّا داخل مقرّ الموساد، فكانت العلاقات بين كيمحي وحوفي في تدهور. ودار الهمس عن خلافات عنيفة حول شؤون عملانيّة، وقيل إنّ حوفي يخشى أن يكون كيمحي يطمح إلى الحلول محلّه، وإنّ كيمحي يشعر بأنّ المساهمة المهمّة التي يقدّمها لا تحظى بالتقدير المناسب. ولا يزال كيمحي حتّى الآن يحجم عن مناقشة مثل هذه المسائل مكتفيًا بالقول إنّه "لن يضفي على الإشاعة صبغة احترام بالتعليق عليها".

وفي صباح أحد أيّام ربيع سنة ١٩٨٠، حصل اجتماع مغلق بين رئيس الموساد حوفي وبين نائبه كيمحي في مكتب الأوّل، وما دار بين الرجلين أصبح جزءًا من أسطورة. والحكاية تتحدّث عن صياح مرتفع بازدياد واتّهامات واتّهامات مضادّة. وقد استغرق الشجار العنيف عشرين دقيقة خرج بعدها ديفيد كيمحي من المكتب ولم ينبس ببنت شفة. لقد انتهى عمله في الموساد. لكنّ نشاطاته الاستخباريّة في خدمة إسرائيل

كانت على وشك أن تُستخدم على حلبة مألوفة: الولايات المتّحدة الأميركيّة. ولن يتعلّق الأمر هذه المرّة بسرقة مواد نوويّة، بل بالفضيحة التي صارت تُعرف باسم "إيران غيت". وبعد وقت قصير درس فيه كيمحي احتمالات المستقبل، قبل وظيفة المدير العام لوزارة الخارجيّة الاسرائيليّة. كان المنصب يتلاءم بصورة تامّة مع قدراته على التفكير في الانخراط في الموقف والخروج منه. وقدّم المنصب لكيمحي فرصة استغلال كفاءته في الساحة الدوليّة في ما يتجاوز لبنان بكثير[١].

١ ـ طوماس غوردون، إنحطاط الموساد، ص١٧٠ ـ ١٧١.

تَزويدُ إسرائيل بصُور القمَر الصنَاعي الأميركيّ KH-11

كان أهمّ أسرار أميركا العسكريّة عام ١٩٧٩ يقوم من دون كلل بدورة حول الأرض كلّ ٩٦ دقيقة، ملتقطًا صور استطلاع غاية في الوضوح، ولا تقدّر بثمن، لكلّ ما يقع على بعد مئات الأميال تحته. كان هذا القمر الصناعيّ KH-11 يُعتبر معجزة تكنولوجيّة، إذ يمكن للصور التي يلتقطها أن تحوّل بطريقة رقميّة إلى محطّات أرضيّة حيث يتمّ تظهيرها لتخضع على الفور لتحليل من قبَل أوساط الاستخبارات. وقد اعتبر الأميركيّون أنّه مع KH-11، لن يشهد العالم "بيرل هاربور" ثانية.

أُطلق أوّل قمر صناعيّ من نوع KH-11 في ١٩ كانون الأوّل ـ ديسمبر ١٩٧٦، بعد الهزيمة التي مني بها الرئيس جيرالد فورد أمام جيمي كارتر في الانتخابات التي أُجريت في تشرين الثاني ـ نوفمبر. وقد حذت إدارة كارتر حذو إدارة فورد السابقة بفرض حظر صارم على الوصول للصور العالية النوعيّة التي كان يلتقطها القمر الصناعيّ. فحتّى بريطانيا العظمى، أقرب حلفاء أميركا في مجال الاستخبارات، لم يكن يحقّ لها الاطّلاع على الصور إلاّ في حالات معيّنة.

لكنّ قرار الرئيس كارتر بتزويد إسرائيل صورًا يلتقطها القمر الصناعيّ KH-11 في آذار ـ مارس ١٩٧٩، خلّف صدمة عنيفة في هذا النظام الأمنيّ المتشدّد. فبموجب الاتّفاق، سُمح لإسرائيل بالوصول إلى أيّ معلومات استخباراتيّة يلتقطها القمر الصناعيّ تتعلّق بتحرّك قوّات عسكريّة، أو بأيّ نشاطات تحمل في طيّاتها تهديدًا

محتملاً، وذلك في عمق يصل إلى مئة ميل، أي حوالى ١٦٠ كلم، داخل أراضي الدول المتاخمة لإسرائيل، أي لبنان وسوريا ومصر والأردنّ. كان بإمكان الاسرائيليّين الحصول على قمّة نتاج تكنولوجيا القمر الصناعيّ، أي على الصور الأصليّة والمذهلة التي يلتقطها القمر KH-11 والتي كان بعضها ثلاثيّ الأبعاد، لا الحصول على الصور المشوّشة والباهتة وغير الواضحة عمدًا التي كانت توزّعها أوساط الاستخبارات الأميركيّة على مسؤولين من الدرجة الثانية وعلى حلفاء أميركا على حدّ سواء، لئلاّ تظهر دقّة تصوير عدسات القمر KH-11 .

شكّل ذلك نصرًا للحكومة الإسرائيليّة التي جهدت للوصول إلى صور الـ KH-11 منذ إطلاقه قبل ثلاثة أعوام. وقد خامر الشكّ بعض المسؤولين في الاستخبارات الأميركيّة إثر قرار الرئيس كارتر تزويد إسرائيل بهذه الصور التي تُعتَبر قمّة في التكنولوجيا، من أن يكون هذا القرار مكافأة لرئيس الوزراء مناحيم بيغن للنجاح الذي حقّقه في قمّة كامب ديفيد مع الرئيس المصريّ أنور السادات في العام المنصرم. لقد فهم هؤلاء المسؤولون ما لم يفهمه عدد من نظرائهم في البيت الأبيض، إذ تُعتبر إضافة البعد الإسرائيليّ للنظام التزامًا مهمًّا، إلتزامًا من شأنه التدخّل بقدرة القمر KH-11 على جمع المعلومات التي يرغب القيّمون عليه في الحصول عليها. وقد شرح أحد المسؤولين السابقين في وكالة الأمن القوميّ، وهي الوحدة المكلّفة باستخبارات الاتّصالات، قائلاً: كان الـ KH-11 يشكّل قفزة تكنولوجيّة نوعيّة في ذلك الوقت. وكانت كلّ وكالات الاستخبارات من عسكريّة ومدنيّة بحاجة ماسّة إلى المعلومات التي يمكن القمر الحصول عليها. كان هدف القيّمين على الـ KH-11 تحديد مسار القمر ووضع سلّم أولويّات لبرنامجه الزمنيّ، كي يكون في المكان المناسب في الوقت المناسب، متجنّبين في الوقت نفسه أيّ تحوّل مفاجئ في خطّ سيره أو أيّ مناورة

مفاجئة من شأنها إحراق وقود إضافيّ. فبإدارة جيّدة، يمكن للقمر الصناعيّ الذي تبلغ قيمته عدّة ملايين من الدولارات والمزوّد بكميّة وقود محدودة، أن يبقى مدّة أطول في مدار الأرض، وأن يزوّد بمعلومات أكثر، وأن يكون فعّالاً أكثر بالنسبة إلى كلفة إنتاجه. وبالتالي فمن شأن قرار كارتر منح إسرائيل إمكانيّة الوصول المباشر إلى الـ KH-11 أن يخربط الجدول الزمنيّ الموضوع بعناية لاستخدام القمر في المستقبل. كما من شأنه أن يحرم عددًا من وكالات الاستخبارات الأميركيّة من الاستفادة من القمر الصناعيّ بشكل أكبر. وأضاف المسؤول السابق في وكالة الأمن القوميّ: "لم يلقَ هذا القرار ترحيبًا لأسباب عدّة"...

إلاّ أنّه لم تصدر أيّ اعتراضات رسميّة من داخل الإدارة الأميركيّة على هذا القرار. فالقلّة القليلة التي استاءت من الاتّفاق حول الـ KH-11، أدركت أنّ إظهار أيّ امتعاض، أو الوصول إلى استنتاجات، قد يهدّد إمكانيّاتها في الوصول إلى معلومات كهذه، ويضفي عليهم صيغة المتطفّلين في شؤون لا تعنيهم.

لم يكن من المفاجئ أن يرى الإسرائيليّون في اتّفاق KH-11 تأكيدًا على الاحترام والدعم من قبَل إدارة كارتر التي قطع مدير استخباراتها المركزيّة الأميرال المتقاعد "ستانفيلد ترنر" الاتّصال الاستخباراتيّ مع إسرائيل وبعض الدول الصديقة الأخرى في إطار عمليّة إعادة هيكلة وكالة الاستخبارات المركزيّة CIA. وقد اعتبر الإسرائيليّون الذين اعتادوا على معاملة أفضل في عهد الرئيسَين ريتشارد نيكسون وجيرالد فورد، الرجال الذين يمسكون بزمام الأمور في إدارة كارتر أشخاصًا سذّجًا ومعادين للساميّة، وأشخاصًا لم يدركوا بشكل كاف ربّما مدى الترابط القائم بين جهز الاستخبارات الإسرائيليّ الرئيسيّ: الموساد، ووكالة الاستخبارات المركزيّة الأميركيّة: الـ CIA، خلال الحرب الباردة. فاتّفاق القمر الصناعيّ KH-11 الذي أُبرم عام ١٩٧٩، ليس

سوى الاتّفاق الثامن والعشرين من سلسلة مشاريع تعاون رسميّ بين إسرائيل وأميركا في حقل الاستخبارات الاستراتيجيّة منذ خمسينات القرن العشرين.

لم يُكشف النقاب رسميًا عن أيّ من هذه الترتيبات التي مُوّل عدد كبير منها من دون تدوينها في الميزانيّات، أي عبر صندوق خاصّ للطوارئ يكون بتصرّف مدير الاستخبارات المركزيّة. ففي ستّينات القرن العشرين على سبيل المثال، كانت إحدى أكثر عمليّات الوكالة حساسيّة تلك التي تحمل إسم الشيفرة KK MOUNTAIN، علمًا بأنّ الـ KK هو الرمز الذي تستخدمه الـ CIA للدلالة على الوثائق والرسائل المتعلّقة بإسرائيل.

كانت تلك العمليّة تؤمّن للموساد دخلاً سنويًّا يقدّر بملايين الدولارات. وفي المقابل، كانت الموساد تسمح لعملائها بالعمل لحساب الأميركيّين في شمال أفريقيا وفي بلدان مثل كينيا وتانزانيا والكونغو. وقد طاولت اتّفاقات استخباراتيّة مع الموساد أكثر النشاطات الإسرائيليّة حساسية في الشرق الأوسط حيث تُستخدم الدولارات الأميركيّة لتمويل عمليّات في سوريا وداخل الاتّحاد السوفياتيّ حيث كان عملاء الـ CIA يجدون صعوبة في التجسّس. وظاهريًّا تمّ تمويل بعض الأنشطة التي كانت تجري في الاتّحاد السوفياتيّ بدفع منتظم من قبل وكالة الـ CIA، ما سهّل عمليّة مرور الأموال عبر اللجان المعنيّة بمراقبة الوكالة. إلاّ أنّ التداخل المعقّد للتمويل الأميركيّ والعمليّات الإسرائيليّة، سيبقى أحد أكثر أسرار الحرب الباردة غموضًا. وقد ردّ الإسرائيليّون على قرار الأميرال ترنر عام ١٩٧٧ بقطع الاتّصال، وخاصّة رفضه تمويل العمليّات الجارية في أفريقيا وفي أماكن أخرى، بتخفيض سيل معلوماتهم الاستخباراتيّة إلى واشنطن إلى حدّ كبير. ففي نظر الاسرائيليّين لم تأت حتميّة عقد الاتّفاق KH-11 في آذار ـ مارس ١٩٧٩ نتيجة نجاح كامب ديفيد، بل نتيجة إخفاق الـ CIA في التنبّؤ

بزيادة الضغط السوفياتي على أفغانستان باضطراد عام ١٩٧٨، وبالغليان المستمرّ في إيران. ففي كلا البلدين جاليات يهوديّة ضخمة، ومنهم أصحاب المخازن في كابول، عاصمة أفغانستان... كما أنّ معلومات الموساد كانت أدقّ وأهمّ من معلومات الـ CIA. ولعلّ أكثر ما أثار سخط الرئيس الأميركيّ جيمي كارتر وكبار مساعديه كانت التقارير غير الدقيقة التي وضعتها الـ CIA عن الوضع في إيران، حيث أطاحت انتفاضة شعبيّة في شباط ـ فبراير ١٩٧٩ الشاه محمّد رضا بهلوي رغم سلسلة من التوقّعات المتفائلة للـ CIA طوال سنة كاملة تحدّثت عن قدرة الشاه على البقاء على العرش. ورفض الـ CIA وجهة نظر إسرائيليّة قاطعة عبّر عنها "أوري لوبراني"، وهو سفير إسرائيليّ سابق في إيران، قال فيها إنّ الشاه لن يتمكّن من البقاء في الحكم. لقد خيّبت الـ CIA ظنّ الرئيس ممّا حمل الإدارة الأميركيّة على التوجّه مرّة أخرى إلى إسرائيل لمساعدتها في استباق الأحداث العالميّة. فلا غرو إذًا أن يكون لوبراني في عداد الوفد الإسرائيليّ الذي فاوض في آذار ـ مارس ١٩٧٩ للاتّفاق حول KH-11 في واشنطن.

كانت صور الـ KH-11 التي تزوّد بها إسرائيل تسمح لها بمراقبة أيّ تحرّك عسكريّ داخل حدود جيرانها الأربعة، وباستخدامها للمعلومات الاستخباريّة والإنذار. كما كانت تصنّف في أكثر المعلومات سريّة في أوساط الاستخبارات الأميركيّة. فما أن يتمّ تظهير الصور ومعالجتها حتّى تضمّها حقيبة ملحقين عسكريّين إسرائيليّين في مكتب خاصّ في البنتاغون تابع لوكالة استخبارات وزارة الدفاع، وهي جهاز الاستخبارات العسكريّة المشتركة. لكن كان هناك تفاهم مسبق درءًا لأيّ سوء تفاهم، فلم يكن يحقّ للاسرائيليّين الوصول إلى معلومات تساعدهم في إعداد ضربات وقائيّة ضدّ جيرانهم. وقد قال أحد المسؤولين الأميركيّين السابقين الرفيعي المستوى في عالم الاستخبارات: "أنا مَن وضع قواعد اللعبة. كان النظام مصمّمًا بشكل يؤمّن للاسرائيليّين

كلّ ما قد يحتاجون إليه من معلومات ضمن مسافة تحرك تبلغ حوالى ١٦٠ كلم من حدودها. فإذا كانت المعلومات تتعلّق بسوريا ومصر، حصلوا عليها، أمّا إذا كانت تتعلّق بالعراق أو باكستان أو ليبيا، فكانت تُحظّر عليهم".

إلاّ أنّ المسؤول أضاف أنّه توقّع منذ البداية هو وزملاؤه بأنّ الإسرائيليّين لن يألوا جهدًا في تجاوز القيود الواردة في الاتّفاق. وكانت إحدى الحجج التي تذرّع بها الإسرائيليّون فور التوقيع، عدم تطبيق هذه القيود على العدوّ المشترك للولايات المتّحدة وإسرائيل، أي الإتّحاد السوفياتيّ. وشهدت الأشهر التي تلت الاتّفاق ضغطًا إسرائيليًّا متواصلاً للوصول إلى المعلومات الاستخباراتيّة حول خطوط الإمدادات السوفياتيّة لسوريا وحول مشاركة السوفيات في تدريب الوحدات القتاليّة العراقيّة غربي العراق. إلاّ أنّ إدارة كارتر لم تُعر المطالب الإسرائيليّة آذانًا صاغية. لكن مع ذلك بقيت إسرائيل حليفًا أساسيًّا حتّى ولو لم تكن تتمتّع بالحريّة التامّة في الوصول إلى كلّ صور القمر KH-11، فقد سُمح لإسرائيل باستخدام لغة الوصول إلى معلومات محدّدة من قمر التجسّس. وكان كلّ طلب تتقدّم به إسرائيل في هذا الشأن يُدرس على حدة.

إلاّ أنّ بعض الأميركيّين المعنيّين بالأمر أفادوا بأنّ هذا الاتّفاق كان أكبر من أن يقبل به مسؤولو الاستخبارات البريطانيّة الذين استشاطوا غيظًا. فكيف يمكن لإسرائيل الوصول إلى معلومات استخباراتيّة كانت محظّرة حتّى عليهم، وهم الحلفاء في الحرب العالميّة الثانية وزملاء في حلف شمال الأطلسيّ؟!

كان لإسرائيل بالفعل، كما اعتقد البريطانيّون، نوايا مبيّتة في محاولاتها الدؤوبة للوصول إلى كلّ المعلومات للـ KH-11. إلاّ أنّ هذه النوايا لم يكتشفها بعض أعضاء إدارة الرئيس رونالد ريغن إلاّ في خريف ١٩٨١، فقد بدأت الخيوط تنجلي بعد شنّ الغارة على مفاعل "التويثة" النوويّ في العراق.

اشتبه عدد قليل من مسؤولي الاستخبارات البريطانيّة بأنّ إسرائيل كانت تستخدم صور الـ KH-11 ذات الدقّة المتناهية لاستهداف مفاعل تمّوز العراقي في التويثة، وأعربوا عن تذمّرهم من جرّاء ذلك لزملائهم الأميركيّين. وتذكّر أحد الأميركيّين المعنيّين بالأمر قائلاً إنّ البريطانيّين بادروهم بالقول: "لقد أعلمناكم أنّ هذا ما سوف يحصل". وقد زاد نجاح الغارة الإسرائيليّة، ويا لسخرية القدر، في شهرة نظام KH-11 إذ عُرضت صور القمر الاصطناعيّ الشديدة الوضوح التي التُقطت لمفاعل الأبحاث المدمّر، على مكاتب صانعي القرار في واشنطن بعد ساعات قليلة من انتهاء العمليّة. وأظهر تحقيق سريّ للغاية أُجري بعد الغارة أنّ البريطانيّين كانوا على حقّ. فقد حصلت إسرائيل على معلومات كثيرة قيّمة من الـ KH-11. وهناك دليل على أنّ "ويليم ج. كيسي" مدير وكالة الاستخبارات المركزيّة في عهد رونالد ريغن قد لعب دورًا أساسيًّا في ذلك.

كان "كايسي" من المتحمّسين لمشاطرة الصور منذ لحظة تسلّمه منصبه. ولم تمضِ مدّة طويلة على تعيينه مديرًا للوكالة حتّى أمر بتأمين مكتب خاصّ لضبّاط الاتّصال الاسرائيليّين بالقرب من المقرّ العام للـ CIA. كان الهدف من وراء ذلك على ما يبدو منح الإسرائيليّين إمكانيّة مباشرة للوصول إلى ضبّاط الاستخبارات الأميركيّين الذين كانوا يعالجون صور الـ KH-11 للتأكّد من تسليم كلّ المعلومات الاستخباراتيّة الأساسيّة. فحسب التفكير السائد، وحدهم الإسرائيليّون يعرفون حاجة الإسرائيليّين. وقد شرح أحد كبار المسؤولين الأميركيّين ذلك قائلاً: "كان كيسي مستعدًّا أن يعطيهم معلومات أكثر من غيرهم، إلاّ أنّه لم يستسلم لكلّ رغباتهم ومطالبهم".

بعد أن طُرحت على كايسي إثر الغارة على مفاعل تمّوز أسئلة محرجة تتناول استغلال إسرائيل اتّفاق KH-11 حول تشاطر المعلومات الاستخباراتيّة، سمح مدير

CIA بتشكيل لجنة خاصّة صغيرة من خبراء لمراجعة المسألة. وطُلب من أعضاء الفريق إحاطة أعمالهم بأكبر قدر من السريّة، والذي كان دائمًا مطبّقا في ما يتعلّق بمسائل تخصّ الاستخبارات.

قبل ذلك التاريخ، واستنادًا إلى مصادر إسرائيليّة، كما يقول واضعو هذا التاريخ، كان كايسي قد قام بأوّل زيارة له إلى إسرائيل بصفته مديرًا للـ CIA، وأطلق عددًا من العمليّات الاستخباراتيّة المشتركة الطموحة التي تهدف إلى تقليص المدّ الشيوعيّ، إذ كان كايسي يعتقد أنّ عمليّة مكافحة ذلك المدّ كانت توقّفت في عهد كارتر. وقد شملت هذه العمليّات تجديد النشاط التجسّسيّ داخل الاتّحاد السوفياتيّ، ومساعدة نقابة التضامن المعادية للشيوعيّة في بولونيا، وتوفير الدعم الاقتصادي والسياسي، منتهكًا بذلك الحظر الذي فرضه الكونغرس، لحركة الـ"يونيتا" في أنغولا والتي يتزعّمها "جوناس سافيمي"، كما أصرّ كايسي على وعود إسرائيليّة، يبدو أنّه حصل عليها، بدعم شبه هَوَس برز في أوائل ثمانينات القرن العشرين، لتأمين مساعدة سريّة لانتفاضة حركة "رينامو" المعادية للشيوعيّة في موزامبيق. وقد أفادت دراسة أعدّتها وزارة الخارجيّة الأميركيّة عام ١٩٨٨ أنّ عدد المدنيّين الذين قُتلوا على يد رينامو يفوق المئة ألف شخص، فضلاً عن تسبّب تلك الحركة بتهجير حوالى مليون من سكّان موزمبيق.

رغم هذه الزيارة الناجحة لكايسي إلى إسرائيل، فقد شعر كايسي بالحرج والسخط لأنّ زملاءه الجدد في إسرائيل لم يروا أنّه من المناسب إبلاغه مسبقًا عن خطّة قصف مفاعل تمّوز العراقي. وهكذا أخفقت الـ CIA باستباق أوّل أزمة سياسيّة خارجيّة جديّة تواجه إدارة ريغن.

أمّا ما توصّلت إليه اللجنة التي عيّنها كايسي للنظر لمراجعة تلك المسألة، فكان مذهلاً. ففي مدّة لا تتجاوز السنتين بكثير، وسّع الإسرائيليّون ما كان قبلاً اتّفاقًا محدودًا

إلى درجة تمكّنوا معها من الوصول إلى أيّ صورة يريدون من نظام KH-11. ولعلّ أكثر ما أثار الدهشة أنّهم طلبوا وحصلوا على تغطية شاملة ووافية بصور الـ KH-11 لغربي روسيا بما فيها موسكو. وقد اعترف أحد العسكريّين المغتاظين من هذا الأمر بأنّ "الإسرائيليّين كانوا يقومون بكلّ شيء عدا الاهتمام بشؤونهم فقط".

شعر كبار مسؤولي الاستخبارات المركزيّة، ووكالة الاستخبارات التابعة لوزارة الدفاع بالحنق لـ"تراخيهم المفرط" الذي نعتهم به بعض المسؤولين، في إدارة اتّفاق الاتّصال. وقال المصدر العسكريّ نفسه: "لقد وضعنا هذا النظام ولم نهتمّ لما كان الإسرائيليّون يقومون به". وما زاد في الطين بلّة، هو الأمر الذي أصدره الرئيس كارتر بُعَيد تولّيه منصبه، بتجميد عدد إجازات الاطّلاع على كشف الشيفرة في الحكومة. وقد أدّى هذا التجميد إلى تعقيدات كبيرة في أوساط الاستخبارات لأنّ عددًا كبيرًا من المحلّلين حُرم من الوصول إلى معلومات، كتلك التي يلتقطها KH-11، هم بحاجة إليها للقيام بعملهم.

"ب. بايدر"، الذي شغل عام ١٩٧٩ منصب معاون نائب مساعد وزير الدفاع للشؤون السياسيّة، أعرب عن سخطه لإدراكه أنّ الإسرائيليّين كانوا "يتغلغلون أكثر فأكثر في مركز القيادة"، ولعدم إيجاده وسيلة لردعهم، "لم نكن نعرف إلى من نشتكي. كنّا نعلم أنّه كانت لديهم قدرة على الوصول إلى المعلومات تتخطّى الكولونلات ونوّاب مساعدي الوزراء. وإذا ما وصلت شكوى إلى المكتب الخطأ فقد تتعرّض مهنتك للخطر".

وتذكّر مسؤول رسميّ سابق رفيع المستوى في وكالة الأمن القوميّ الغضب الذي اعتراه عندما علم في ما بعد في أوائل عهد إدارة ريغن أنّه "سُمح لضبّاط عسكريّين إسرائيليّين بحضور اجتماعات البنتاغون التي كانت تناقَش فيها مهمّات الـ KH-11

المستقبليّة وخطوط سيره في مدار الأرض". لقد انتاب كلّ الذين علموا بذلك شعور بالإشمئزاز... "طار صوابنا بسبب كلّ العناية التي كان الجميع يحيط الـ KH-11 بها".

وقد أقرّ ضابط كبير سابق في الاستخبارات الأميركيّة بأنّ عددًا كبيرًا من الأميركيّين صُعقوا لهذا الأمر، إلاّ أنّه لم ينزعج كثيرًا من التجاوزات الإسرائيليّة، "كان من مصلحة أمننا القوميّ عام ١٩٨١ أن نتأكّد من أنّ الإسرائيليّين سيحافظون على بقائهم". ووصف وصول الإسرائيليّين المباشر للمعلومات بأنّه "حلّ وسط". فإسرائيل كانت تودّ التأكّد من أنّه لن تفوتها معلومات هامّة، ومن أنّها ستحصل على كلّ ما تريد. وأضاف أنّ كلّ ما كان يقوم به الضابط الإسرائيليّ المعتمد في البنتاغون هو نقل ما تحتاج إليه إسرائيل من استخبارات إلى المسؤولين عن برنامج الـ KH-11، وكان يُسمح للضابط الإسرائيليّ بـ"الحضور" في الوقت الذي يرسل فيه الـ KH-11 الصور إلى واشنطن.

أفاد مسؤول في وزارة الخارجيّة الأميركيّة أنّه كان يعتبر ووزير الخارجيّة ألكسندر هيغ النقاش الدائر حول وصول إسرائيل للمعلومات "كنقاش لاهوتيّ داخل أوساط الاستخبارات. لماذا الشجار؟ أعطوهم الصور، فهذا من شأنه تعزيز الثقة". وأضاف المسؤول أنّه "لو منعتهم إدارة ريغن من الوصول إلى معلومات الـ KH-11، لتوجّهوا إلى الكونغرس، وحصلوا على المال، المدرج في ميزانيّة المساعدات الخارجيّة، لبناء قمر صناعيّ، ومنصّة إطلاق، وطرق اتّصاله بالأرض"...

لم يكن تلاعب إسرائيل باتّفاق الـ KH-11 بالنسبة إلى ريتشارد ألن أيضًا، مسألة خطيرة. "هم ليسوا سوى أصدقاء" للبنتاغون الذي مكّنهم بطريقة غير رسميّة من توسيع وصولهم للمعلومات.

بعد المراجعة التي قامت بها اللجنة الخاصّة، تمّ الاتّفاق في البيت الأبيض على استمرار تدفّق الصور إلى إسرائيل، لكن بعودة إلى تطبيق القيود الواردة في اتّفاق سنة ١٩٧٩. وقال ألن: "سوف نضيّق هذه الفتحة". لن يُسمح بعد الآن لإسرائيل بالحصول على صور الـ KH-11 عن الاتّحاد السوفياتيّ أو أيّ بلد آخر يقع خارج مسافة الـ ١٦٠ كلم المتّفق عليها. وقد نقل ألن شخصيًّا هذه الرسالة في خريف ١٩٨١ إلى إرييل شارون، الجنرال الإسرائيليّ المتشدّد و"البطل الحربيّ" الذي عيّنته حكومة بيغن المنتخبة حديثًا وزيرًا للدفاع في آب ـ أغسطس.

توجّه بيغن وشارون إلى واشنطن في أيلول ـ سبتمبر للضغط على البيت الأبيض دعمًا لخطّة إسرائيليّة موسّعة لتعاون أميركيّ استراتيجيّ ضدّ عدوّ مشترك: الإتّحاد السوفياتيّ. وقد جاء في مذكّرة إسرائيليّة لواشنطن أنّه على الدولتين التعاون "ضدّ التهديد الذي يلحقه بالسلام والأمن في المنطقة الاتّحاد السوفياتيّ أو القوّات التي يسيطر عليها، والآتية من خارج المنطقة". وتحقيقًا لهذا الغرض سعى الإسرائيليّون للحصول على موافقة ريغن لتحديد مسبق لتمركز القوّات الأميركيّة في المنطقة، ولاستخدام مشترك لمدرّجات الطيران، ولوضع خطط عسكريّة وسياسيّة طارئة في الشرق الأوسط والخليج، ولتمويل أميركيّ لمحطّة استقبال أرضيّة، أو خطّ اتّصال لصور القمر الصناعيّ KH-11 في تلّ أبيب.

كان من الطبيعيّ أن تُعتبر هذه المقترحات الإسرائيليّة، مقترحات غير واقعيّة، وتمّ حذف قسم كبير منها أو تعديله في المفاوضات التي استغرقت عدّة أشهر، ما أثار حفيظة شارون الذي ألقى بثقله خاصّة في ما يتعلّق بموضوع خطّ الاتّصال الأرضيّ. كما شدّد على أن تكون محطّة الاستقبال "مكرّسة" لإسرائيل، أي ألاّ يحقّ لسواها قراءة الإشارات التي حلّت رموزها والتي يرسلها القمر الصناعيّ. بهذه الطريقة تصبح

الولايات المتّحدة في وضع حرج لا يمكنها معه أن تعرف ما هي الاستخبارات التي يحصل عليها الإسرائيليّون في نظام قمرها الصناعيّ الذي هو مُلكها.

كان ذلك اقتراحًا منافيًا للمنطق. وقد أسرّ ألن إلى شارون قائلاً: "إقتراحكم غير معقول". ومضى يتذكّر، "بدأ شارون يتذمّر من أنّ الأميركيّين لا يعالجون الداء إلاّ بالمسكّنات، وأضاف وزير الدفاع الإسرائيليّ: تريدون أن تعطونا مسكّنات. إذا كان هذا هو مفهومكم للتحالف الاستراتيجيّ فنحن غير مهتمّين بهكذا تحالف".

لم يرهب هذا الجواب ألن الذي يُعتبر من أكثر المسؤولين دعمًا لإسرائيل، وهو يقول في ذلك إنّ "شارون كان كرجل متعجرف يزمجر".

لم يؤدّ قصف مفاعل تمّوز العراقيّ إلى إحداث تغيير جذريّ في العلاقات الأميركيّة - الإسرائيليّة، كما لم تُثر أيّ مسألة جديّة عن حاجة إسرائيل إلى هذا العدد الهائل من الصور التي يلتقطها الـ KH-11 لأماكن مختلفة. إذ كان من شأن أسئلة كهذه لو طُرحت أن تُحدث شرخًا كبيرًا لا يمكن رأبه في العلاقات بين إسرائيل والولايات المتّحدة. إلاّ أنّ هذه الغارة أحدثت تغييرات سيكون لها انعكاسات على إسرائيل لزمن طويل.

فقد أحرج الهجوم الإسرائيليّ الفرنسيّين الذين كانوا من أهمّ مزوّدي العراق بالموادّ والمشورة النوويّة لقاء النفط. فسعى بعض المسؤولين في باريس للثأر عبر خرق الصمت الذي دام طويلاً، وبدأوا يتحدّثون عن علاقة نوويّة قديمة العهد لفرنسا في منطقة الشرق الأوسط، فهي الشريك السرّي في صنع القنبلة الإسرائيليّة.

إثر اجتماع الحكومة الإسرائيليّة استنتج شارون أنّ الولايات المتّحدة ليست حليفًا استراتيجيًّا يُعتمد عليه. وتوجّه إلى وكالة استخبارات إسرائيليّة سريّة تديرها وزارة

الدفاع، كانت تقوم بعمليّات لم تفهم واشنطن غايتها في ذلك الوقت. كانت مهمّتها اعتراض كلّ المعلومات الحسّاسة لدى وكالات الاستخبارات الأميركيّة عن الشرق الأوسط والاتّحاد السوفياتيّ، أي المعلومات التي أُبلغت إسرائيل أنّها لن تحصل عليها بعد الآن. وقد عرض يهوديّ أميركيّ يعمل في الاستخبارات الأميركيّة خدماته لهذه الوكالة مجّانًا منذ سنوات عدّة، إلاّ أنّه سرعان ما أُلقي القبض عليه بتهمة التجسّس على بلاده لحساب إسرائيل.

من شبه المؤكّد أنّ أحدًا في البيت الأبيض في عهد رونالد ريغن لم يخامره الشكّ في أنّ طلب شارون إقامة خطّ اتّصال أرضيّ مع القمر KH-11 في تلّ أبيب، كان لخدمة طموحات إسرائيل النوويّة. والأمر نفسه ينطبق على الفريق الخاصّ الذي شكّله ويليم كايسي إثر الغارة على مفاعل تمّوز لمراقبة الإمتثال لاتّفاق ١٩٧٩ حول مشاطرة المعلومات الاستخباراتيّة، كيف أنّه اقتنع على الفور بتفسير إسرائيل لانتهاكها القواعد المتّفق عليها إذ ادّعت أنّها لم تحصل على صور إضافيّة تتجاوز صلاحيّاتها عن الاتّحاد السوفياتيّ إلاّ لمراقبة طرق الإمدادات بين روسيا وكلّ من سوريا والعراق.

في الوافع، قلّة قليلة من العاملين في الاستخبارات الأميركيّة فهمت منذ العام ١٩٨١ لماذا كانت إسرائيل تجمع هذا القدر من الصور التي يلتقطها القمر الصناعيّ للاتّحاد السوفياتيّ، ولماذا كان شارون يصرّ إلى هذا الحدّ على استمرار وصول إسرائيل إلى معلومات إستخباراتيّة من هذا النوع: كانت إسرائيل نفسها دولة نوويّة تستهدف الاتّحاد السوفياتيّ بصواريخها وبرؤوسها النوويّة[1].

---

١ ـ هيرش سيمور م.، خيّار شمشوم، الترجمة العربيّة، مكتبة بيسان (بيروت،١٩٩٢) ص٩ ـ ١٤، ١٩ ـ ٢٣.

عمليّة مَطار عَنتيبي

في ٢٧ حزيران ـ يونيو ١٩٧٦، خُطفت طائرة إيرباص تابعة لشركة "إير فرانس" مليئة بما يزيد على ٢٥٠ شخصًا من الركّاب بما في ذلك طاقمها، ومن بين الرهائن المحتجزين ما لا يقلّ عن ٨٣ إسرائيليًا، وقد كانت الطائرة في طريقها إلى باريس من تلّ أبيب عندما اختُطفت بعد توقّفها في مطار أثينا المشهور بالتراخي الأمني. كان الخاطفون عضوان في الجبهة الشعبيّة لتحرير فلسطين ـ جناح وديع حدّاد، وألمانيّان غربيّان من أعضاء "رجال حرب العصابات الحضريّين" أي "رجال حرب عصابات المدن"، وهم ورثة جماعة "بادر ماينهوف". وقد تقدّم الخاطفون بطلبين: إطلاق سراح أربعين فلسطينيًّا في السجون الإسرائيليّة بالإضافة إلى دزّينة أخرى من المحتجزين في السجون الأوروبيّة، وإطلاق ألمانيّين اعتقلتهما كينيا وهما يحاولان إسقاط طائرة لشركة "العال" الإسرائيليّة بصاروخ من طراز "سام ٧" فيما كانت تقلع من مطار نيروبي.

بعد توقّف قصير في الدار البيضاء في المغرب، رُفض السماح للطائرة بالهبوط في الخرطوم، فطارت إلى عنتيبي في أوغندا، ومن هناك أعلن الخاطفون أنّهم سيفجّرون الطائرة بجميع ركّابها ما لم يُستجب لمطالبهم. وحُدّد الموعد النهائيّ في ٣٠ حزيران ـ يونيو.

قبل ذلك التاريخ، وتحديدًا في شباط ـ فبراير ١٩٧٢، كان الرئيس الأوغندي عيدي أمين قد قام بزيارة ليبيا، فوعده الرئيس الليبي معمّر القذافي بمساعدة شخصية كبيرة

وبمعدات عسكرية لقوّاته، إذا قطع علاقاته بإسرائيل، وسرعان ما بدأت إذاعة أوغندا بمجابهة إسرائيل دونما هوادة، شاجبة احتلالها للأراضي العربية المحتلّة... وأخيرًا ألقى عيدي أمين نفسه خطابًا اتّهم فيه الإسرائيليّين بأنّهم "يحلبون" من أوغندا ثلاثة ملايين شلن يوميًّا لقاء مشاريعهم التي يزعمون أنّهم يساعدون بها الشعب الأوغندي، وأعلن طردهم من البلاد. وكان الإسرائيليّون أكثر مكرًا من عيدي أمين، إذ إنّهم فور معرفتهم بزيارته للقذافي، عمدوا إلى تجميع معدّاتهم الثقيلة على حدود كينيا، وحين علم عيدي أمين بالأمر، كانوا قد نقلوا الجرّارات والجرّافات والمحادل وكلّ الأجهزة الثمينة التي دفع الشعب ثمنها غاليًا، ولم يكن بوسع عيدي أمين أن ينتقم منهم إلاّ بإعلان إلغاء صفقات السلاح التي كان سلفه ميلتون أوبوتي قد أبرمها معهم[1].

بالعودة إلى قضيّة خطف الطائرة، فداخل الجلسات المغلقة للحكومة الإسرائيليّة في تلّ أبيب، تراجع الشعار العلنيّ المتبجّح الرافض الاستسلام للإرهاب، فأيّد الوزراء إطلاق سراح سجناء منظّمة التحرير الفلسطينيّة في إسرائيل، وقدّم رئيس الوزراء إسحق رابين تقريرًا أعدّه جهاز شين بيت يشير إلى وجود سابقة لإطلاق سراح بعض السجناء حتّى بعد إدانتهم والحكم عليهم. وأعلن رئيس الأركان "موردخاي غور" أنّه لا يوصي باتّخاذ أيّ تدبير عسكريّ نظرًا لعدم كفاية الاستخبارات الواردة من عنتيبي. وفيما استمرّت مداولاتهم الكئيبة أفادت تقارير من عنتيبي أنّ المسافرين اليهود فُصلوا على متن الطائرة عن الباقين الذين أُطلق سراحهم وهم الآن في طريقهم إلى باريس.هذا الفصل والتمييز، الذي نقله أولئك الذين تمّ إطلاق سراحهم إلى مستخلصي المعلومات من رجال المخابرات في فرنسا، قد أغضب الموساد المشهور بالهدوء

---

١ ـ مفرّج طوني، حرب الردّة، دار الجريدة (بيروت،١٩٧٩) ص٣١ ـ ٣٢.

ورباطة الجأش عادة، كما أغضب محلّلي المخابرات العسكريّة أيضًا. ويقول باحثون إنّ ذلك قد ذكّرهم بعمليّات الاختيار التي قام بها النازيّ في ما يتعلّق بضحايا غرف الغاز من اليهود الوافدين إلى معسكرات الاعتقال في سيّارات نقل الماشية. وتضايق عملاء الموساد أيضًا من أنّ أحد الزعماء الأفارقة السود الذي صنعوه بدأ بعضّ اليد الإسرائيليّة التي اعتادت على إطعامه.

كانت هذه الفرصة التي يحتاج إليها الموساد. وقد أدلى رئيس الموساد في كلمة شهيرة له بوجهة نظر قويّة وعاطفيّة تؤيّد القيام بعمليّة إنقاذ، ثمّ عمد إلى إزالة الغبار عن خطّة "رافي إيتان" لاختطاف "آيخمان"، التي رأى فيها أوجه شبه بالموقف الراهن، منها أنّ رافي إيتان ورجاله اضطرّوا إلى العمل بدون عون محلّي وبدون مساندة من قاعدتهم البعيدة، وقد ارتجلوا بعض أعمالهم أثناء التنفيذ مستخدمين الوقاحة اليهوديّة المشهورة. وعليه، فإنّه من الممكن تكرار التجربة. وكان حوفي يتصبّب عرقًا وقد بُحّ صوته أثناء المناقشة والجدال، فحدّق في أرجاء القاعة وقال: "إذا تركنا جماعتنا يموتون فسنمهّد الطريق للطوفان. وما من يهودي سيكون في مأمن في أيّ مكان، وهكذا ينتصر هتلر حتّى وهو في قبره". وأخيرًا قال رابين: "فلنجرّب".

كان "ديفيد كمحي" في عداد الاستراتيجيّين والمخطّطين العاملين في الموساد الذين جرت تعبئتهم. وجاءت الخطوة الأولى بفتح قناة اتّصال سريّة بين تلّ أبيب ونيروبي. كان حوفي قد رعى الرابطة الاستخباراتيّة السريّة التي أنشأها مائير عميت بين الموساد والاستخبارات الكينيّة. وبدأت الرابطة تعطي نتائج فوريّة. سافر ستّة من عملاء الموساد إلى نيروبي وتمركزوا في بيت سرّي من بيوت جهاز الاستخبارات الكينيّ، ليكونوا رأس جسر للهجوم الرئيسيّ.

في هذه الأثناء، ذلّل كيمحي إحدى الصعاب. ذلك أنه لمّا كانت عمليّة الانقاذ تستلزم التوقّف للتزوّد بالوقود في نيروبي، فأجرى كيمحي اتّصالات هاتفيّة حصل خلالها على موافقة كينيا في غضون ساعات على السماح بالتزوّد بالوقود "لأسباب إنسانيّة". لكن بقيت المشكلة الكبرى وهي الوصول إلى عنتيبي. وكانت منظّمة التحرير الفلسطينيّة قد جعلت من المطار نقطة دخول لها إلى أوغندا التي منها أدارت المنظّمة نشاطها ضدّ نظام الفصل العنصريّ الأبيض المؤيّد لإسرائيل في جنوب أفريقيا. وبعد قطع علاقات أوغندا الدبلوماسيّة مع إسرائيل عام ١٩٧٢، قدّم ديكتاتور أوغندا "عيدي أمين" مقرّ السفير الاسرائيلي السابق إلى منظّمة التحرير الفلسطينيّة لتقيم فيه مقرّها. ورأى كيمحي أنّه من الضروريّ معرفة ما إذا كانت منظّمة التحرير الفلسطينيّة لا تزال في البلاد. فمقاتلوها المتمرّسون بالمعارك سيشكّلون قوّة هائلة يصعب دحرها في المدّة القصيرة التي ستستغرقها عمليّة الإنقاذ الفعليّة. فليس بمقدور القوّات الاسرائيليّة أن تبقى في الساحة لأكثر من دقائق وإلاّ تعرّضت لخطر الهجوم المضادّ القويّ.

أرسل كيمحي عميلين للموساد من نيروبي عبر بحيرة فكتوريا على ظهر زورق ونزلا قرب عنتيبي، فوجدا أن مقرّ منظّمة التحرير الفلسطينيّة مهجور. وكان الفلسطينيّون قد انتقلوا في الآونة الأخيرة إلى أنغولا. ثمّ جاءت ضربة الحظّ التي تحتاج إليها العمليّة، عندما اكتشف أحد ضبّاط الأمن الكينيّين الذي كان برفقة عميلَي الموساد أنّ أحد أقرباء زوجته كان يتولّى بالفعل حراسة الرهائن. فاستخدم الضابط الكينيّ التملّق وتمكّن من الدخول إلى المطار ومن رؤية أنّ الرهائن جميعًا بخير. إلاّ أنّه وجدهم في حراسة خمسة عشر حارسًا تبدو عليهم علامات التوتّر والعصبيّة.

بينما جرى نقل هذه المعلومات إلى تلّ أبيب عبر اللاسلكي، استأجر عميلان آخران للموساد، وهما طيّاران مؤهّلان، طائرة من طراز "سيسنا" وطارا بها من

نيروبي بحجّة تصوير بحيرة فيكتوريا لإعداد كتاب سياحيّ مصوّر. وحلّقت الطائرة فوق مطار عنتيبي مباشرة، فتمكّن أحد العميلين من التقاط صور دقيقة للمدرج والأبنية المجاورة. وأرسل الفيلم بالطائرة إلى تلّ أبيب حيث اقترح كيمحي اعتماد استرتيجيّة جديدة لزعزعة الخاطفين. وخلال عدّة محادثات هاتفيّة مع قصر عيدي أمين، أوضح المفاوضون الاسرائيليّون في تلّ أبيب أنّ حكومتهم مستعدّة لقبول شروط الخاطفين. ولإضفاء الصدقيّة على هذا الإذعان الظاهر، جرت الاستعانة بدبلوماسي في قنصليّة أوروبيّة في أوغندا استدعي سرًّا لمعرفة إذا كان بإمكانه التفاوض على اختيار العبارات المناسبة التي يقبل بها الخاطفون. وقال كيمحي للدبلوماسي: "يجب أن لا تحطّ الصياغة من قدر إسرائيل وكذلك لا يجد الخاطفون أنّ قبولها مستحيل". وأسرع الدبلوماسي إلى المطار وهو يحمل الأخبار وشرع في وضع مسوّدة للصيغة الملائمة.

كان الدبلوماسيّ الأوروبيّ لا يزال في طور تحضير مسوّدة الصيغة الملائمة عندما دخلت عمليّة "ثندربول"، أي الصاعقة، مراحلها النهائيّة. وحطّت طائرة إسرائيليّة من طراز "بوينغ ٧٠٧" لا إشارات عليها في مطار نيروبي. وكانت تلك مستشفى طائرًا يقوده طيّارون من الجيش الإسرائيلي يعرفون مطار عنتيبي. في الوقت نفسه أحاط ستّة من عملاء للموساد بمطار عنتيبي وكلّ منهم يحمل جهازًا لاسلكيًّا عالي التردّد وجهازًا إلكترونيًّا يشوّش على الرادار في برج المراقبة. ولم يكن قد سبق لمثل هذا الجهاز أن استُخدم في ظروف قتال فعليّ. وتحت جناح الظلام، خرج خمسون مظليًّا إسرائيليًّا من "المستشفى الطائر" ومضوا بالسرعة القصوى إلى بحيرة فيكتوريا حيث نفخوا زوارقهم المطّاطيّة وجذّفوا عبر الماء حتّى بلغوا نقطة انتظار قريبة من شاطئ أوغندا وهم على أهبة الاستهداد لاقتحام مطار عنتيبي. وكان المشاركون في العمليّة قد تدرّبوا جيّدًا في تلّ أبيب على تنفيذها، وعندما حان الوقت عبرت قوّة من

طائرات النقل من طراز "130 S هركيوليس" البحر الأحمر متّجهة جنوبًا وعاودت التزوّد بالوقود في نيروبي، ثمّ بعدما حلّقت فوق أعالي البحر الأفريقي هوت نحو مطار عنتيبي. وكانت خطّة تعطيل الرادار قد نجحت. فسلطات المطار كانت تحاول أن تفهم ما جرى عندما حطّت طائرات "هركيوليس" الثلاث ومعها المستشفى الطائر. وخرج رجال الكومندوس بسرعة ودخلوا المبنى الذي يحتجز فيه الرهائن. وكان عيدي أمين قد أطلق جميع أبناء الديانات الأخرى واحتفظ باليهود.

لم يُدعَ المظليّون المساندون للتدخّل. وقد صعدوا من حيث كانت مواقعهم إلى طائرة من طائرات النقل الإسرائيليّة وعادوا أدراجهم إلى حيث كانوا. وفي غضون خمس دقائق أُطلق سراح الرهائن وقُتل محتجزوهم جميعًا بالإضافة إلى ستّة عشر جنديًّا أوغنديًّا كانوا يحرسون الرهائن الذين صُرع ثلاثة منهم. وفقدت القوّة المهاجمة ضابطًا واحدًا هو اللفتنانت "يوناثان نتنياهو"، الأخ الأكبر لرئيس الوزراء الاسرائيلي اللاحق "بنيامين نتنياهو" الذي يقول إنّ سياسته المتشدّدة تجاه إسرائيل هي نتيجة لمقتل أخيه[١].

وهكذا يتبيّن أنّه بالرغم من أنّ عمليّة عنتيبي تُنسب إلى إنجازات الموساد، إلاّ أنّ هذه العمليّة قد اشترك فيها ضبّاط الاستخبارات العسكريّة والمظليّون ولواء غولاني وسلاح الجوّ، وكان دور الموساد فيها محدودًا. إلاّ أنّ عمليّة عنتيبي قد استطاعت أن تزيل الظلال التي خيّمت على أجهزة الاستخبارات الاسرائيليّة في أعقاب حرب تشرين ـ أكتوبر ١٩٧٣، وأعادت لهذه الأجهزة نوعًا من الثقة بالنفس[٢].

---

١ ـ طوماس غوردون، إنحطاط الموساد، ص١٦٢ ـ ١٦٦.

٢ ـ زهر الدين د. صالح، الموساد بين الإخفاق والاختراق، ص٤٧ ـ ٤٨.

كَسرُ الطَّوقِ العرَبيّ

لم يكن أحد من المراقبين يتوقّع أنّ كسر الطوق العربيّ عن الإسرائيليّين الذين احتلّوا فلسطين سيجري في عهد وريث جمال عبد الناصر: محمّد أنور السادات، ومشاركة مناحيم بيغن، اليهودي المتعصّب الذي يحمل تاريخه تشدّدًا بالغ التطرّف.

ففي أيّار ـ مايو ١٩٧٧، رفض الناخبون الاسرائيليّون، على غير المتوقّع، إستمرار إسحق رابين وحزب العمل في السلطة. ذلك أنّ كلّ الإخفاقات والفضائح، إبتداء من فضيحة لافون، إلى التقصير عام ١٩٧٣، مع رائحة أخرى للفساد المالي، كانت قد اختلطت وأمسكت في النهاية بتلابيب حزب العمل بعد أن حكم إسرائيل على مدى تسعة وعشرين عامًا من دون انقطاع. وفازت كتلة ليكود اليمينيّة في الانتخابات، وأصبح مناحيم بيغن رئيسًا جديدًا للوزراء.

ويقول باحثون في التاريخ المعاصر لإسرائيل إنّ انتصار بيغن قد أدّى إلى شعور كبار المسؤولين في مؤسّسة المخابرات الاسرائيليّة بالصدمة، مثلهم في ذلك مثل غيرهم من الإسرائيليّين. وكانت وكالات المخابرات قد اعتادت على التعامل مع الوجوه اللامعة من حزب العمل، كما أنّ معظم مسؤولي وكالات المخابرات جاؤوا من بين صفوف حزب العمل. وعلى الرغم من أنّ أهداف القيادات العليا للمؤسّسة كان مقصودًا ألاّ تكون حزبيّة، إلاّ أنّ هذه القيادات العليا أرست علاقات إلفة حميمة تقريبًا عبر السنين مع سادتهم السياسيّين. أمّا الآن، فقد أصبح هناك شكّ، بل ربّما خوف من

أنّ شهوة ليكود إلى السلطة، والتي كان من الطبيعيّ أن يتوقّعوها من حزب ظلّ بعيدًا عن السلطة لمدّة ثلاثة عقود، ستؤدّي إلى حركة تطهير في صفوف الإدارة المدنيّة التي عيّنها حزب العمل. ولم يكن لدى رؤساء المخابرات أيّ سبب للاعتقاد بأنّه سيتمّ استثناءهم من ذلك. ولم تكن مخاوفهم بغير أساس، لأنّه كان هناك بالفعل قادة في ليكود يحثّون بيغن لشنّ مثل ذلك التطهير بالضبط.

أمام هذا الواقع، قام إسحق حوفي رئيس الموساد، وأفراهام أحيتوف رئيس شين بيت بنقل رسالتين متطابقتين على وجه العموم إلى رئيس الوزراء الجديد، مفادهما أنّهما على استعداد للاستقالة إذا كان يريد ذلك. فعلى الرغم من أنّهما كانا موظّفين مدنيّين يمكنهما الاحتفاظ بوظيفتيهما، إلاّ أنّهما سلّما بحقّ الزعيم الجديد في تعيين رجاله في هذين المنصبين الحسّاسين. فطلب منهما بيغن البقاء. ذلك أنّه لم يكن يرغب في أن يتسبّب في أيّ اضطرابات أو شعور بالاستياء داخل الوكالات الرسميّة. بل سعى بيغن بسرعة كبيرة إلى إقامة علاقات وثيقة مع كلّ من حوفي وأحيتوف. وأصبح من المعتاد أن يتواجد الرجلان، وبصفة خاصّة رئيس الموساد، في المكتب الخاصّ لرئيس الوزراء. ويبدو أنّ بيغن كان مفتونًا بالعمليّات السريّة للموساد، والتي بدا من الواضح أنّها تذكّره بماضيه كرئيس لعصابة "أرغون" السريّة في أربعينات القرن العشرين. وبحماس يكاد يكون طفوليًّا، كثيرًا ما طلب بيغن من حوفي أن يخبره بكلّ شيء وألاّ يخفي أيّ تفاصيل. وقد صبر حوفي صبرًا جميلاً، على الرغم من أنّه ذُهل مرّة بعد أخرى من جهل بيغن للموضوعات المخابراتيّة والعسكريّة. فبوصفه "خارج اللعبة" منذ عام ١٩٤٨، فإنّ زعيم ليكود لم يكتسب خلفيّة من المعلومات مماثلة لما حصل عليها زعماء حزب العمل المطّلعين على بواطن الأمور.

وكما أوضح حوفي في ما بعد، فإنّ افتقار بيغن للمعلومات أرغمه، هو ورئيس المخابرات العسكريّة، على الخوض في تفاصيل كثيرة في إيضاحاتهما لكي يستوعب رئيس الوزراء الصورة الكاملة. غير أنّ بيغن قد عشق سحر وكالات المخابرات، واستمتع بأن يكون رئيسها الجديد. ولكن كانت لديه أسباب أخرى لاهتمامه البالغ هذا.

يرى باحثون أنّ بيغن قد جاء إلى السلطة ليغيّر التاريخ. وأراد استخدام المخابرات الإسرائيليّة لتحقيق ذلك. كانت لدى بيغن رؤيته الخاصّة لما ينبغي أن يفعله في خلال سنواته الأولى كرئيس للحكومة الإسرائيليّة. ومن المعروف أنّ خصومه السياسيّين، في حزب العمل، قد صوّروه على أنّه شخصيّة شيطانيّة ويريد أن يفترس العرب، وأنّه داعية حرب، سيثير صراعًا مخيفًا مع الدول العربيّة. إلاّ أنّ بيغن قد وعى المشكلة في ما يتعلّق بصورته العامّة، وسعى بكلّ قوّته ليبرهن عن أنّهم مخطئون في توقّعهم، وأنّه سيصبح صانعًا عظيمًا للسلام. وكانت إحدى الخطوات لتحقيق ذلك، إختياره موشي دايان، الذي كان حتّى ذلك التاريخ نصيرًا قويًّا لحزب العمل، وزيرًا لخارجيّته. وتحدّدت الخطوة التالية في إرسال حوفي رئيس الموساد إلى المغرب.

يروي مؤرّخو[1] هذه الحقبة أنّ حوفي، رئيس الموساد الإسرائيليّ، وصل إلى المغرب وبرفقته مساعده ديفيد كيمحي. وسرعان ما أمّا القصر المنعزل للملك الحسن الثاني المعروف باسم قصر "إفران". كان ذلك في غضون أسابيع من تولّي بيغن مهامّ منصبه كرئيس للوزراء. ذلك أنّ هذا الأخير كان يأمل في تحقيق ما فشل سلفه العمّاليّ إسحق رابين في تحقيقه خلال رحلته إلى المغرب قبل عام، وهو صنع السلام مع مصر، الدولة الأكبر من بين الدول العدوّة لإسرائيل.

---

١ ـ رافيف دان، وميلمان يوسي، أمراء الموساد، ص٣١٢ ـ ٣١٣.

تمكّن حوفي من الحصول على موافقة الحسن الثاني ليقوم بدور المضيف لاجتماع فريد. فرئيس الموساد، الذي يشيع الكراهية في العالم العربيّ، كان على وشك الاجتماع بمسؤولين مصريّين كبار لتمهيد الطريق أمام إجراء مفاوضات في المستقبل. وفي ذلك اليوم نفسه، وصل إلى المغرب مسؤولان كبيران من مصر، هما "كمال حسين علي" مدير المخابرات العامّة، و"حسن التهامي" نائب رئيس الوزراء المعروف بتديّنه، والذي كان كاتم أسرار الرئيس جمال عبد الناصر في خمسينات القرن العشرين، وضابط اتّصالاته مع وكالة المخابرات المركزيّة. وبعد سنوات سيعيد كمال حسن علي إلى الأذهان كيف أصدر إليه الرئيس السادات التعليمات هاتفيًّا بأن يطير إلى الخارج برفقة حسن التهامي دون أيّ إيضاحات. وطوال الرحلة الجويّة، ظلّ التهامي صامتًا، وكان كلّ ما يعرفه كمال حسن علي أنّهما في طريقهما إلى المغرب...

دخل المصريّان قصر "إفران" وصافحا الأجنبيّين، لكن لم يتمّ إبلاغ كمال حسن علي بشخصيّتيهما، وأصيب بالدهشة عندما طلب منه التهامي الانصراف من الغرفة. ذلك أنّ علي، وهو من الناحية الإسميّة المسؤول عن المخابرات العامّة المصريّة، لم يكن يعرف ماذا تفعل حكومته تحت أنفه، بينما كان ملك المغرب يعلم تمامًا ما يجري. وعندما انتهى الاجتماع لوّح كمال حسن عليّ بأصبعه في غضب تجاه حسن التهامي قائلاً له إنّه لم يكن ليأتي لو عرف أنّه سيتمّ استبعاده من الاجتماع. فأجاب التهامي بأنّ الأجنبيّين فرنسيّان، وأنّ المباحثات دارت حول صفقات أسلحة. فازداد حنق كمال حسن عليى وقال: "أنا رجل عسكري، وليس هناك سبب يدعو لعدم مشاركتي في مثل هذه المباحثات". وعندما عاد التهامي وكمال حسن علي إلى مصر، شكا الأخير إلى الرئيس السادات ما جرى له. وعلى حدّ قول كمال حسن علي نفسه، ضحك السادات كما لم يره يضحك من قبل، وأبلغه بالغرض الحقيقيّ من رحلة المغرب.

ويتابع مؤرّخو الحقبة بقولهم إنّ غرض حوفي كان إقناع المصريّين بأنّ بيغن مخلص في سعيه لتحقيق السلام، وأنّه قويّ بما يكفي لتحقيق ذلك. وقد اتّفق حوفي والتهامي على ضرورة عقد مزيد من الاجتماعات السريّة. وفي ١٦ أيلول ـ سبتمبر ١٩٧٧، توجّه حسن التهامي ثانية إلى المغرب للاجتماع هذه المرّة مع موشي دايان، وزير الخارجيّة الإسرائيليّة الجديد، وبرفقته ديفيد كيمحي، وقد أعطى دايان الانطباع للتهامي بأنّه في مقابل التوصّل إلى معاهدة سلام مع إسرائيل، فإنّ الدولة اليهوديّة ستكون على استعداد للانسحاب من كلّ سيناء، بما في ذلك التخلّي عن حقول البترول والقواعد الجويّة والمستوطنات. وكان هذا الأمر غير متوقّع، بالنظر إلى سمعة مناحيم بيغن التي بُنيت على أساس أنّه يهوديّ متعصّب للغاية وعنيد.

مهّد ذلك الاجتماع في المغرب الطريق أمام الزيارة التاريخيّة التي قام بها السادات إلى القدس بعد شهرين. وعلى الرغم من أنّ رؤساء المخابرات الإسرائيليّة كانوا مشاركين ومتابعين في عمليّة السلام مع مصر، منذ البداية، إلاّ أنّهم أعربوا عن تشكّكهم بشأن فرص نجاحها. وقد عاد حوفي من المغرب وهو ما زال متشكّكًا في النوايا الحقيقيّة للرئيس المصريّ، الذي لا يمكن التنبّؤ بتصرّفاته. وبالنسبة لوكالة المخابرات العسكريّة، فإنّها تنبّأت في "تقرير المخابرات القوميّ" الذي تعدّه سنويًّا بأنّ السادات سيلجأ ثانية إلى الحرب، وليس لإقرار السلام. وقد أوضح محلّلو المخابرات العسكريّة، في وقت لاحق، أنّه لم يكن بمقدورهم التنبّؤ بقرار شخصيّ من جانب رجل واحد، أي قرار السلام الذي اتّخذه السادات، فالمخابرات، في مثل هذه الظروف، لا يكون لديها سوى القليل جدًّا للمضيّ قدمًا. وقد ذكر الجنرال غازيت رئيس أمان، في محاولة لتبرير أنّ وكالته بوغتت هذه المرّة بالسلام وليس بالحرب، أنّ السادات اتّخذ قرارًا لم يتمّ بحثه مسبقًا أو تقريره من جانب أيّ من المنظومات الحكوميّة العليا في

القاهرة. وحتّى بينما كان السادات يعدّ العدّة لرحلته القصيرة والبالغة الأهميّة إلى مطار بن غوريون، فإنّ وكالة المخابرات العسكريّة نصحت الليفتنانت جنرال "موردخاي غور" رئيس أركان الجيش الإسرائيلي بأنّ رحلة السادات الجويّة المقبلة من القاهرة يمكن أن تكون تمويهًا لهجوم عسكريّ مصريّ. وترتيبًا على ذلك، تمّ إعلان حالة التأهّب في صفوف الجيش الإسرائيليّ ليلة التاسع من تشرين الثاني - نوفمبر ١٩٧٧. وأثار موردخاي غور إرتباك بيغن بتشكيكه علانية في نوايا السادات، وتشديده على أنّ إسرائيل مستعدّة للحرب. لكنّ الارتباك لم يساور الرئيس السادات مطلقًا، ففور هبوطه من طائرته في مطار بن غوريون، صافح رئيس الأركان الإسرائيليّ وقال له وهو يبتسم: "لقد جئت من أجل السلام، لا الحرب".

ليس بعيدًا عن المنطق ما يراه محلّلون وباحثون من أنّ وكالة المخابرات العسكريّة الإسرائيليّة، التي كانت لا تزال تعاني من صدمة فشلها في التنبّؤ بالحرب عام ١٩٧٣، كانت مبالغة في الحذر حتّى اللحظة الأخيرة. ومن أنّ ضبّاط المخابرات العسكريّة كانوا قد أصبحوا مصابين بما يشبه جنون الشكّ والارتياب، ويتوهّمون الحرب وراء كلّ باب، نتيجة حالة الشلل التي عانوا منها بسبب فشلهم عام ١٩٧٣، وبسبب خوفهم من مواجهة الفشل ثانية. وكاد ذلك أن يصبح "مفهومًا عامًّا" لديهم مناقضًا لـ"المفهوم العامّ" الذي كان سائدًا عشيّة حرب ١٩٧٣. أي أنّه بدلاً من الإيمان المغالي في الثقة في النجاح، أدّت السيكولوجيّة الجديدة إلى تحليل بالغ السوء لكلّ شيء. غير أنّ أولئك الضبّاط، بحسب بعض الباحثين، قد قرّروا بعد ذلك التاريخ، أنّ "المفهوم العام" هو ألاّ يكون لديهم "مفهوم عام".

ويعتبر هؤلاء الباحثون، على أيّ حال، أنّه جرى التعامل المخابراتيّ الاسرائيليّ، خاصّة من قبل المخابرات العسكريّة، مع المعلومات الأوليّة بشكل أفضل ممّا حدث

عام ١٩٧٣، وتمّ التأكيد من جديد على المراقبة العسكريّة من مسافات بعيدة، باستخدام الإنجازات التكنولوجيّة مثل الطائرات التي تحلّق بدون طيّار، والتي يمكنها إرسال صور تليفيزيونيّة حيّة من فوق خطوط العدوّ. ومهما كان الأمر، فإنّ الإخفاق عام ١٩٧٧ في التنبؤ بالسلام، لم يكن بالغ السوء مثل تقصير المخابرات عام ١٩٧٣... وعلى الأقلّ، كان الأمر متعلّقًا بالسلام وليس بالحرب[١].

بعد ثلاثة أعوام من تلك الزيارة، وإثر جلسات حوار مكثّفة بين المصريّين والأميركيّن، جرى توقيع معاهدة السلام بين مصر وإسرائيل سنة ١٩٧٩ في كامب دافيد، وبذلك فكّت إسرائيل الطوق العربيّ المتضامن عن نفسها بسهولة لم تكن متوقّعة من باقي حلقات الطوق، اللّهمّ باستثناء الأردن، الذي كان راقضًا أن يكون الدولة العربيّة البادئة في توقيع معاهدة سلام مع إسرائيل، ولكنّه لم يمانع في أن يكون الدولة التالية التي توقّع مثل هذه المعاهدة. وبقي من دول الطوق لبنان وسوريا مستفردان في واحدة من أفظع سخريات القدر، خاصّة بعد أن تمّ التفاهم الفلسطينيّ مع إسرائيل على إجراء ترتيبات كانت فيها منظّمة التحرير الفلسطينيّة، بقيادة رئيسها ياسر عرفات، القطب المقابل في عمليّة ظنّها الفلسطينيّون عمليّة سلام...

---

١ ـ رافيف دان، وميلمان يوسي، أمراء الموساد، ص٣١١ ـ ٣١٧.

مناحيم بيغن واليهود السوفيات وجواسيسهم

في يوم من أيّام سنة ١٩٧٧، إستدعى رئيس الوزراء الجديد مناحيم بيغن إلى مكتبه رئيس الموساد إسحق حوفي، والرئيس الجديد لمكتب الاتّصال المسؤول عن تنسيق كافّة جهود أسرائيل لمساعدة اليهود السوفيات على الفوز بالهجرة إلى إسرائيل، "نحميا ليفانون"، وأبلغهما أنّه يعتبر أنّ الهجرة إلى إسرائيل لا تقلّ أهميّة عن السلام مع مصر، ومكافحة العمل الفدائيّ، أو إصدار التقديرات العسكريّة، وهي المهامّ الحيويّة التي كان من المعتاد أن تكون لها الاسبقيّة الأولى بالنسبة لمؤسّسة المخابرات الإسرائيليّة. وكان "ليفانون" قد حلّ محلّ "شاؤول أفيجور" في مكتب الاتّصال في آذار - مارس ١٩٧٠، وهكذا ملأ مكان واحد من الأجداد المؤسّسين للمخابرات الإسرائيليّة، وقد شارك أفيجور في تأسيس "شاي"، وهو جهاز المخابرات السابق لإنشاء الدولة اليهودية، ويعود تاريخ تأسيسه إلى سنة ١٩٣٤. وكان قد تقاعد بعد أن تخطّى السبعين من عمره بسبب سوء حالته الصحيّة، بعد سبعة عشر عامًا من إدارة المكتب في قتاله السرّي من أجل اليهود السوفيات.

كان رئيس المكتب الجديد ليفانون قد عمل لحساب أفيجور في كلّ من مكتب الاتّصال، وفي وكالة الهجرة السريّة قبل ذلك. وفي خلال عمله في موسكو كدبلوماسي في خمسينات القرن العشرين، طرده السوفيات من جراء اتّصالاته السزيّة مع اليهود. وتضمّنت هذه الاتّصالات تسليم رسالة من عضو في مجلس الوزراء الإسرائيليّ إلى

شقيقته في روسيا... وحكم على شقيقته بالسجن ثلاث سنوات. وأعلنت السلطات السوفياتيّة عن أنّ دبلوماسيَّين إسرائيليَّين آخرين شخصان غير مرغوب في وجودهما على الأراضي السوفياتيّة، وذلك في حادثين مماثلين لكنّهما منفصلان.

عاد ليفانون إلى إسرائيل، وعمل في المقرّ الرئيسيّ لمكتب الاتّصال في تلّ أبيب، ثمّ عيّن في السفارة الاسرائيليّة لدى واشنطن ليصبح مسؤولاً عن الشؤون اليهوديّة وأساسها ممارسة التأثير على الساسة والمسؤولين الأميركيّين بما يحقّق هجرة اليهود من الاتّحاد السوفياتي. وكانت الجهود الرامية إلى الحفاظ على اتّصال مع اليهود السوفيات أكثر صعوبة بعد أن قطع السوفيات علاقاتهم مع إسرائيل في عام ١٩٦٧، حيث لم يعد للإسرائيليّين سفارة في موسكو لتوفير غطاء دبلوماسيّ. وكرئيس لمكتب الاتّصالات في سبعينات القرن العشرين، آمن ليفانون بـ"النشاط الهادئ". وعلى أيّ حال، فإنّ المنظّمات العاملة في إسرائيل وفي الشتات، كانت قد رفضت الأساليب الخفيّة في مجال العمل على هجرة اليهود إلى إسرائيل، ودعت بدلاً من ذلك إلى المطالبة العلنيّة بـ"تحرير" اليهود السوفيات. وقد أرغمت هذه الجماعات الحكومة الإسرائيليّة على تغيير سياستها والموافقة على الحملة العلنيّة، وفي الوقت نفسه، بدأت الولايات المتّحدة والاتّحاد السوفياتيّ عصرهما الذهبيّ للوفاق في حقبة ما قبل "غورباتشوف"، وسمح "ليونيد بريجينيف" رئيس الحزب السوفياتي، تحت الضغط الأميركيّ، لحوالى ٢٥٠ ألف يهوديّ بمغادرة بلاده، وقد انتقل ثلثا هذا العدد إلى إسرائيل.

أجبرت الهجرة المتزايدة مكتب الاتّصال على التوسّع، فبدأ يعيّن قناصل في السفارات الإسرائيليّة المتعدّدة في أوروبّا، وبعث بموظّفي اتّصال للحفاظ على روابط قويّة مع المنظّمات اليهوديّة في مختلف أنحاء العالم. وتمّ إرسال خطابات تأييد إلى

اليهود السوفيات، بالإضافة إلى كتب بالعبريّة، وطرود تضمّ موضوعات دينيّة وغيرها من الموضوعات التي يندر وجودها في روسيا. وقام دبلوماسيّون إسرائيليّون خصوصيّون بإطلاع اليهود الأجانب الذين سافروا إلى الاتّحاد السوفياتيّ على التعليمات التفصيليّة بما ينبغي عمله وما لا ينبغي عمله، وتمّ إبلاغهم بأسماء اليهود الذين ينبغي أن يقابلوهم، وبأسماء أولئك الذين ينبغي تجنّبهم، وبكيفيّة تصرّفهم إذا ما اعتقلوا على يد السلطات.

عمل حوفي وليفانون في تنسيق وثيق حول مشروع الهجرة الذي يلقى موافقة إجماعيّة، وكانا واعيين بأنّ عملاء إسرائيل السريّين قد شاركوا دائمًا في الشؤون اليهوديّة ولكنّهما كانا يعلمان أن بيغن رئيس الوزراء يريد المزيد.

اعتبرت إسرائيل نفسها الوطن القوميّ والطبيعيّ للشعب اليهوديّ بأسره، وملجأ لكلّ فرد يهوديّ أينما كان، وهذه مسألة أيديولوجيّة صهيونيّة واضحة لا لبس فيها. وقد كانت أمرًا أساسيًّا للحركة الصهيونيّة منذ تأسيسها. وخلف تلك العقيدة يكمن عنصر المصلحة الذاتيّة العنصريّة، فبسبب مخاوف إسرائيل الديموغرافيّة، التي يحيط بها العرب الذين لا حصر لهم ويفوقونها عددًا بكثير، كانت بحاجة إلى مهاجرين جدد، ليس فقط ليكونوا بمثابة مخزون بشريّ، بل أيضًا ليقدّموا المبرّر لوجود الدولة اليهوديّة.

وعلى العموم، فإنّ سياسة إسرائيل التي أُعلن عنها، ولكن ليس بصورة كاملة، تؤمن بأنّه ينبغي فعل أيّ شيئ ممكن لحماية الجاليات اليهوديّة في الخارج. ومن الأفضل، ولكن ليس بالضرورة، أن يتمّ ذلك بالوسائل العلنيّة والقانونيّة، وعندما لا يكون هذا ممكنًا، فإنّ المنظّمات اليهوديّة وإسرائيل ذاتها نادرًا ما تردّدت في اللجوء إلى الطرق غير القانونيّة. وكان ذلك مبرّر وجود وكالة الهجرة السريّة وأساس الموجة

الهائلة للهجرة اليهوديّة من اليمن، والعراق، ودول الكتلة السوفياتيّة في السنوات الأولى لإسرائيل.

ساند بيغن مهمّة مكتب الاتّصال مساندة كاملة، ولكنّه كان يفضّل حملة مرئيّة وعلنيّة أكثر بكثير من الأساليب السريّة التي انتهجها ليفانون والذي كان يلقى قبولاً بالفعل بوصفه يحتفظ بمنصبه منذ عهد حكومات العمل السابقة. وقد اكتشف رئيس الوزراء الجديد الحاجة للاجتماعات والمسيرات الحاشدة والمناشدات المطالبة بالحريّة لليهود السوفيات. وفي ذلك الوقت، في أواخر سبعينات القرن العشرين، كان عدد اليهود المسموح لهم بمغادرة روسيا ينخفض بشكل حادّ مع توتّر العلاقات بين الولايات المتّحدة والكرملين في عهد "ليونيد بريجينيف". وكان هناك أيضًا بعض العلاقات التي لا تثير الارتياح بين مكتب الاتّصال برئاسة ليفانون وبين المنظّمات اليهوديّة الخارجيّة التي كانت تعمل لتحقيق غايات مماثلة.

وقد طاف شاب إسرائيليّ ناشط بأندية الشباب اليهوديّ في شمال لندن في عام ١٩٨٠، وطلب متطوّعين للسفر إلى الاتّحاد السوفياتيّ، وقد تقدّم حوالى مائة بريطانيّ، تتراوح أعمارهم بين السابعة عشرة والعشرين، ووجّههم الإسرائيليّ الغامض إلى شركة سياحيّة معيّنة زوّدتهم بتذاكر طيران مخفّضة وكتب وتسجيلات وأشرطة تسجيل بالعبريّة لتسليمها في الأتحاد السوفياتي. ولم يكن جميع آباء المسافرين البريطانيّين المغامرين سعداء عندما علموا أنّه يجري تحويل أبنائهم إلى عملاء سريّين هواة، وتقدّموا بشكاوى غاضبة إلى السفارة الإسرائيليّة في لندن التي جعلتهم على اتّصال مباشر مع ليفون. ولم يوضح رئيس مكتب الاتّصال وظيفته بالتحديد لكنّه أبلغ هؤلاء الآباء بأنّ "لا تورّطوا أنفسكم... فهذا لا يعنيهدكم... ونحن نعلم بالضبط ما نفعله".

في الوقت نفسه، شعرت المنظّمات البريطانيّة التي تقوم بحملة لصالح اليهود السوفيات بضيق مماثل من الإسرائيليّين. كان الجميع يعمل تجاه تحقيق نفس الغرض، وقد اعتبر جميع هؤلاء أنّ إسرائيل قد أنشأت شريانًا حيويًّا عن طريق جمع كميّات هائلة من المعلومات حول اليهود واحتياجاتهم، لكنّ الجماعات غير الإسرائيليّة شعرت بأنّه يُطلب منها تمويل الرحلات، دون أن تعرف شيئًا عنها...

يلاحظ باحثون أنّ هذه الموجات الجديدة من الهجرة قد أثارت ثانية المشكلة التي تعيّن على شين بيت مواجهتها في بداية خمسينات القرن العشرين، وهي الخوف من أن يستغلّ الاتّحاد السوفياتيّ الفرصة لزرع العملاء السريّين في إسرائيل، وإمكانيّة استخدام فيضان اليهود كرأس حربة لبثّ عملاء شيوعيّين في الغرب أيضًا. وقد أكّد استخدام مثل هذه الأساليب "إيليّا غريغوروفيتش جيركفيلوف"، وهو ضابط كبير في وكالة المخابرات السوفياتيّة KGB، هرب إلى الغرب. فقد أبلغ المحقّقين البريطانيّين في عام ١٩٨١ بأنّ البوليس السرّي السوفياتي يفحص قوائم جميع اليهود الذين يتقدّمون بطلبات للهجرة، ويبحث عن قلّة قد تتجسّس لحساب وطنها الأم روسيا، وقد تمّ تجنيد البعض وأُمروا بأن يبدأوا بإرسال المعلومات إلى موسكو فور وصولهم إلى إسرائيل، بينما يجري زرع آخرين كعملاء "نائمين" أو "كامنين"، لا يفعلون شيئًا لمدّة بضع سنوات، ثمّ ينشطون للعمل بأوامر من مراقبيهم السوفيات. وأنشأت KGB قسمًا خاصًّا لتجنيد العملاء اليهود وتدريبهم وإدارتهم.

وبالفعل، فقد اكتشف الكرملين أنّ كثيرًا من أولئك اليهود الذين تمّ تجنيدهم يرفضون خدمة وكالة KGB فور وصولهم إلى إسرائيل، ويمتنعون عن إرسال أيّ تقارير على الإطلاق. غير أنّ تأكيدًا جديدًا قد ظهر على مدى الجهود السوفياتيّة الرامية للتغلغل داخل إسرائيل، في لندن عام ١٩٨٢، في خلال محاكمة "هيو جورج

هاميلتون"، وهو أستاذ اقتصاد كنديّ تجسّس لحساب وكالة المخابرات السوفياتيّة. وقد احتلّت قضيّته العناوين الرئيسيّة للصحف البريطانيّة بوصفها حكاية رجل عمل في أحد مكاتب منظّمة حلف شمال الأطلسيّ في الوقت الذي تمّ استخدامه سرًّا من جانب الكرملين. وبدا أنّ القضيّة لا علاقة لها بإسرائيل، لكنّ الصلة لوحظت بطريق المصادفة فقط. فقُبيل دقائق من مثول هاميلتون أمام المحكمة رقم واحد في دار قضاء "أولدبيلي" التاريخي في لندن، انتهت محاكمة أخرى، قام الصحافيّون الإسرائيليّون بتغطيتها بشكل مكثّف، بإدانة الدبلوماسيّة البريطانيّة العاملة في سفارة بريطانيا لدى تلّ أبيب "رونا ريتشي" بتهريب وثائق إلى عشيقها الدبلوماسي المصري في تلّ أبيب "رفعت الأنصاري"، الذي تبيّن لاحقًا أنّه كان من رجال المخابرات المصريّة.

ظلّ المراسلون الإسرائيليّون ينصتون لبرهة في قاعة المحكمة البريطانيّة بعد الانتهاء من محاكمة رونا ريتشي، وسرّوا لأنّهم فعلوا ذلك. فقد كان من النادر تمامًا أن تكون لقضيّتَين متواليتين في أعلى محكمة للجنايات في بريطانيا صلة بإسرائيل، فقد تبيّن أنّ "هيو جورج هاميلتون" كان يتجسّس أيضًا في الدولة اليهوديّة. وقد جنّدت وكالة المخابرات السوفياتيّة الأستاذ الجامعي، الذي كان يحمل كلاً من الجنسيّة الكنديّة والبريطانيّة، في نهاية أربعينات القرن العشرين. وتبيّن أنّه صيد ثمين للسوفيات بصفة خاصّة عندما حصل على وظيفة خبير اقتصاديّ في منظّمة حلف شمال الأطلسيّ في باريس. وقال المدّعون العامّون البريطانيّون إنّ البروفيسور هاميلتون ألحق ضررًا خطيرًا بطريقة غير عاديّة بمصالح الغرب. وكدليل على مدى تقدير الروس لهاميلتون، فإن "يوري أندروبوف"، رئيس وكالة KGB، والذي أصبح في ما بعد زعيمًا للاتّحاد السوفياتيّ، دعاه شخصيًّا إلى موسكو. وفي خلال حفل ناقش الرجلان الدفاعات الغربيّة والمهامّ الخاصّة التي أخذها البروفيسور هاميلتون على عاتقه وبصفة خاصّة إسرائيل.

وقد اهار هاميلتون تحت تأثير الاستجواب في أولد بيلي، واعترف بجرمه، وحُكم عليه بالسجن لمدّة عشرة أعوام.

إعترف هاميلتون بأنّه زار إسرائيل ثلاث مرّات، في ١٩٧٠، ١٩٧٥، و١٩٧٨ على نفقة السوفيات بالكامل. وقام ببعض الأبحاث الاقتصاديّة المشروعة، لكن كان لديه واجب إضافيّ عهد به إليه سادته في الـ KGB. ففي خلال زيارته الأولى، كلّفه الضابط السوفياتيّ المنوط به في النمسا، والمعروف باسم "بول" فقط، باكتشاف ما إذا كانت إسرائيل قد أنتجت قنابل نوويّة، وبأن يتحرّى مدى علاقات إسرائيل بجنوب أفريقيا. وطلب منه أيضًا إعداد تقارير تتعلّق بمجال خبرته في دنيا الاقتصاد. كما طلب منه تقديم تفاصيل عن النفقات التي يتكلّفها المهاجر اليهوديّ في إسرائيل، في مجالات شتّى، كالتعليم، وإقامة مشروع جديد، والحصول على مسكن جديد، وتساؤلات محدّدة أخرى تقصّاها هاميلتون.

وكان هذا الجاسوس الذي تمّ ضبطه من قبل جهاز MI 5 البريطانيّ قد أبلغ مستجوبيه من قبل الجهاز أنّه كان الواضح له أنّه كان يمهّد الطريق لزرع عملاء سوفيات في إسرائيل. ومن الصعب معرفة إلى أيّ مدى أثّر تقرير هاميلتون، في ما يتعلّق بزرع عميل في إسرائيل، على وكالة المخابرات السوفياتيّة، لكن في ١٠ كانون الثاني - يناير ١٩٨٨، اتّضح أنّ عميلاً سوفياتيًا يقوم بمهام في الدولة اليهوديّة منذ وصوله إليها كمهاجر من روسيا منذ سبعة عشر عامًا.

كان الرجل يدعى "شابتاي كالمانوفيتش"، ولمّا غادر الاتّحاد السوفياتيّ قاصدًا إسرائيل في عام ١٩٧١، كان في الثالثة والعشرين من عمره، وتمّ تجنيده بالفعل من جانب KGB. وأمره الضبّاط المنوطون به بأن يندمج كليّة في المجتمع الاسرائيليّ لبناء قاعدة اقتصاديّة قويّة لنفسه، وليصادق القادة السياسيّين والعسكريّين، وعن طريق

استخدام الأموال السوفياتيّة اكتسب كالمانوفيتش شهرة بوصفه رجل أعمال عالميّ، وامتدّت مصالحه الماليّة من مونتي كارلو إلى أفريقيا. وجذبت إليه القوّة الإغرائيّة للثروة أصدقاء لهم نفوذ كبير في الجيش والحكومة في إسرائيل، وكان أحد هؤلاء البريغادير جنرال "دوف تاماري" الذي كان قائدًا سابقًا لإحدى وحدات القوّات الخاصّة، وقد دعاه كالمانوفيتش لزيارة سيراليون على نفقته لتقديم بعض الاستشارات المتعلّقة بالأمن. كما دعّم كالمانوفيتش روابطه أيضًا مع كبار الساسة، فقد عمل في البداية مستشارًا للبرلماني الغريب الأطوار "صامويل فلانو شارون"، الذي لجأ إلى إسرائيل بسبب اتّهامات جنائيّة واجهته في فرنسا. وضمنت الوظيفة لكالمانوفيتش منفذًا ثمينًا إلى الكنيست الإسرائيلي، ثمّ ساعد "فلاتو شارون" و"بنيامين جيلمان" عضو الكونغرس عن نيويورك عندما عملا مع "فولغانغ فوجل"، المحامي في برلين الشرقيّة، لترتيب تبادل غريب تمّ في بنسلفانيا للمسجونين الدوليّين تضمّن أميركيًّا في ألمانيا الشرقيّة، وإسرائيليًّا في موزمبيق وروسيا.

إزدادت شهيّة كالمانوفيتش لمصادقة صيد أكبر، فقام بدعوة أعضاء مجلس الوزراء إلى حفلات باذخة وإلى مناسبات استقبال في فيلّته الفاخرة في أحدى ضواحي تلّ أبيب. وكان كثيرون من جيرانه، سواء بقصد أو بغير قصد، من كبار رجال مؤسّسة المخابرات. بل إنّ كالمانوفيتش تفاخر أيضًا بأنّ باب غولدا مائير كان مفتوحًا أمامه.

عمل كالمانوفيتش لمدّة قصيرة في قسم شرق أوروبّا في حزب العمل الإسرائيليّ. وكان مكلّفًا بضمان أن يظهر المهاجرون الجدد من الاتّحاد السوفياتيّ عرفانهم بالجميل لوطنهم الجديد عن طريق تأييد حزب العمل. وكقاعدة، فإنّ مؤسّسة المخابرات تجنّبت الخوض في السياسات الإسرائيليّة، لكنّ بعض جيوب هامّة للتأثير ظلّت باقية في

منتصف السبعينات، وكان أحدها مكتب الاتّصال. وقد اعتُبرت وحدة الهجرة اليهوديّة قلعة سياسيّة هامّة، بوصفها تستقدم مواطنين جددًا يجري اقتناصهم من جانب جميع الأحزاب. وقبل أن يجعل مناحيم بيغن "يهودا لابيدوت" مسؤولاً عن مكتب الاتّصال خلفًا لنحميا ليفانون، علمًا بأنّ لابيدوت كان من حزب العمل، فإنّ ليفانون كان قد وضع المكتب بالفعل في معسكر العمل، وبصفة خاصّة عندما كان حزب العمل يتولّى مقاليد السلطة، وهو ما حدث حتّى عام ١٩٧٧، فإنّ كالمانوفيتش كان في المكان المناسب تمامًا.

وفي خلال السنوات الستّ التي أمضاها بيغن في السلطة، وحتّى بعدها، فإنّ اليهوديّ الروسيّ الثريّ ذا النفوذ، ظلّ يحوم حول مراكز السلطة الإسرائيليّة حتّى رصده جهاز شين بيت وهو يسلّم أسرارًا إلى عملاء شيوعيّين معروفين في أوروبّا في نهاية عام ١٩٨٧. وفي ١٥ كانون الأوّل ــ ديسمبر ١٩٨٨، صدر الحكم على كالمانوفيتش بالسجن لمدّة تسعة أعوام، بعد محاكمة سريّة في تلّ أبيب.

أثارت صلات كالمانوفيتش بالمستويات العليا وقدرته على اكتساب أصدقاء في مناصب رفيعة تساؤلات خطيرة حول إخفاق شين بيت على مدى سنوات في رصده في وقت مبكّر.

وعلى العموم، فإنّ الأضرار التي سبّبها كالمانوفيتش لم تكن جسيمة. فهو لم يستطع الحصول على حقّ دخول المنشآت الدفاعيّة السريّة، والمعاهد العلميّة أو قواعد الجيش. وكان بإمكانه أن يقول لسادته الروس كيف يفكّر الأعضاء البارزون في المؤسّسة الإسرائيليّة، لكن لم يكن لديه سوى تفاصيل قليلة جدًّا عمّا تقوم به إسرائيل للدفاع عن نفسها. وعلى النقيض من ذلك، فقد حقّق جاسوس سوفياتيّ آخر، تمّ زرعه على أنّه مهاجر، نجاحًا أكبر من ذلك بكثير.

وصل "ماركوس كلينغبيرغ" إلى إسرائيل قبل كالمانوفيتش بوقت طويل، واستطاع أن يضرب بجذوره داخل عمق البنية الأساسيّة الدفاعيّة لإسرائيل. فقد كان وصول كلينغبيرغ إلى ساحل الدولة الوليدة كمهاجر من أوروبّا الشرقيّة في عام ١٩٤٨، وهو في العشرين من عمره. درس العلوم الطبيعيّة، وفي نهاية ستّينات القرن العشرين تمّ تعيينه نائب مدير المعهد البيولوجيّ في بلدة "نيس صهيونا"، وهو معهد حكوميّ يتمتّع بإجراءات حماية مشدّدة. وبوصفه يبدو مريضًا، كان كلينغبيرغ يسافر إلى سويسرا "للعلاج". وفي عام ١٩٨٣، اختفى فجأة، وجاء رجال غاضبون إلى المعهد، وأخذوا كلّ الأوراق الموجودة في ملفّاته. فقد اكتشف شين بيت أنّ الرحلات السويسريّة كانت زيارات إلى جاسوس سوفياتيّ بارز. وبدون إعلان، وجّهت تهمة التجسّس إلى كلينغبيرغ، وأدين في محاكمة سريّة وحكم عليه بالسجن المؤبّد.

سبّب كلينغبيرغ ضررًا خطيرًا لأنّه كان أحد كبار العاملين في مشروعات بالغة السريّة في نيس صهيونا. وفي وقت مبكّر، وتحديدًا في عام ١٩٧٣، كان الباحثون الأجانب يربطون بين المعهد وبين الموضوعات المتعلّقة بالحرب الكيماويّة والبيولوجيّ. وتوصّل محلّلو المخابرات في الولايات المتّحدة إلى أنّ إسرائيل تقوم، على أقلّ تقدير، بإنتاج وتطوير إجراءات دفاعيّة ضدّ الغازات السامّة المعتقد أنّه يجري تخزينها من جانب عدّة دول عربيّة. وكانت هناك تقارير تثير الخوف أكثر، مفادها أنّ العراق، خلال ثمانينات القرن العشرين، كان يعكف على بحث نشوب حرب جرثوميّة محتملة. وبهذه الحجّة، أبدت إسرائيل أنّه يتعيّن عليها امتلاك مخزونات من اللقاحات والطعوم، ووسائل فحص الجوّ والمياه لمواجهة أيّ هجوم كيماويّ أو بيولوجيّ محتمل.

ويرى مراقبون أنّ تغلغل الجواسيس السوفيات كان ضارًا، لكنّ بيغن رئيس الوزراء كان مستعدًا للإقدام على مخاطر أخرى من أجل الهدف الاستراتيجيّ للعمل من أجل ما يعتبره خيرًا لليهود. ولهذه الغاية، كما يقول باحثون، أقام بيغن صلات مع أنظمة بغيضة في أنحاء العالم. ففي أميركا الجنوبيّة، باعت إسرائيل الأسلحة والخبرة العسكريّة إلى التشيلي والأرجنتين، على الرغم من أنّ المجالس العسكريّة الحاكمة هناك كانت تخفي بالكاد عداءها للساميّة. وفي المقابل، حصلت إسرائيل على تعهّدات من ديكتاتور سانتياغو وديكتاتور بوينس أيرس بحماية اليهود والسماح لهم بالمغادرة ومعهم أموالهم النقديّة وممتلكاتهم. وانتهجت الحكومة الإسرائيليّة سياسة مشابهة مع رومانيا، وهي الدولة الوحيدة في الكتلة السوفياتيّة التي احتفظت بعلاقاتها الدبلوماسيّة مع إسرائيل بعد أن قطعت كافّة الدول الشيوعيّة الأخرى علاقاتها معها في أعقاب حرب عام ١٩٦٧. وقد تبيّن في ما بعد أنّ الديكتاتور الروماني نيكولاي تشاوتشيسكو قد تلقّى وأسرته حوالى ثلاثين مليون دولار أميركيّ نقدًا من إسرائيل على مدى سنوات حتّى سقوطه وإعدامه في عام ١٩٨٩[1].

١ ـ رافيف دان، وميلمان يوسي، أمراء الموساد، ص٣٢١ ـ ٣٢٥، ٣٢٧ ـ ٣٣٦، ٣٣٨.

مَنَاحيم بيغِن ويَهودُ "الفلاشَا" وسُقوط النمَّيري

لم يتوقّف يهود إثيوبيا مطلقًا عن الحلم بأرض التوراة الموعـودة... وأطلقوا علـى أنفسهم إسم "بيتا إسرائيل"، أو "بيت إسرائيل". وفي المقابل، فإنّ جيرانهم من غير اليهود وصفوهم بإسم "الفلاشا" ومعناها "الغرباء"... ما صبغهم بكنوة الأبناء غير الشرعيّين الذين لا ينتمون إلى أيّ مكان...

في الماضي البعيد، كان لهؤلاء اليهود قبيلة من المقاتلين الأقوياء ولهم مملكتهم الخاصّة بهم في جبال إثيوبيا الشماليّة. وبالتدريج، وبعد سلسلة من النكسات في المعارك مع القبائل الأخرى، اضمحلّت قوّتهم. وبحلول منتصف القرن العشرين، بلغ عددهم حوالى عشرين ألفًا، وتركّزوا أساسًا في "جوندار" وغيرها من المناطق.

كان الإثيوبيّون المسيحيّون المسيطرون على المناطق المحيطة بهذه البقعة يمنعون الفلاشا من شراء الأرض، وكنتيجة لذلك أصبح اليهود عمّالاً مهرة، ومزارعين يستغلّون الأرض لمصلحة المالك مقابل جزء من المحصول في بلد يعتبر امتلاك الأرض الفرصة الوحيدة التي تتيح للمرء أن يملك ما يسدّ رمقه. وفي أواسط القرن العشرين، استطاعت حفنة من اليهود الإثيوبيّين الشباب الوصول إلى إسرائيل حيث مارسوا ضغطًا على الحكومة الاسرائيليّة للعمل على إحضار بقيّة اليهود من إثيوبيا.

على الرغم من الروابط السريّة الممتازة التي كانت قائمة بين إسرائيل وإثيوبيا في تلك الحقبة، فإنّ حكومة الأمبراطور هيلاسيلاسي رفضت السماح لليهود بالهجرة

بوصفها مسألة تتعلّق بالكبرياء القوميّ، فلا يمكن لأمبراطور جليل أن يسمح بفقدان جانب من رعاياه. ومن ناحية أخرى، فإنّ الحكومة الإسرائيليّة التي كان يسيطر عليها حزب العمل، لم تتحرّك لمساعدة اليهود الإثيوبيّين. ويتذكّر "روفين ميرحاف" الذي كان يعمل في مركز الموساد في أديس أبابا ذلك قائلاً: "كان اليهود يقرعون أبواب سفارتنا... وتوسّل إلينا زعماؤهم بالعمل على إخراجهم من إثيوبيا... لكنّنا أبعدناهم وقد خاب أملهم".

فقد خشي الاسرائيليّون أن تؤدّي مجرّد إثارة المسألة مع إثيوبيا إلى تدمير العلاقات الاستراتيجيّة مع تلك الدولة، وهي إحدى البلدان الرئيسيّة في الاستراتيجيّة الخارجيّة المحيطيّة التي تستهدف التفوّق دبلوماسيًّا على الدول العربيّة. كما ضاعف من ممانعة إسرائيل للتدخّل لصالح يهود إثيوبيا قيام السلطات الدينيّة التقليديّة في إسرائيل بإعلان رفضها الاعتراف باليهود السود.

لم تُفقد تلك الروح العنصريّة الصهيونيّة اليهود الإثيوبيّين الأمل نهائيًّا بالانتقال إلى إسرائيل، وواصلوا انتظارهم لأيّ إشارة من صهيون، لكنّ الإشارة تأخّرت. ولم يحدث أيّ تغيير دراماتيكيّ في منهاج إسرائيل هذا إلاّ عندما فازت كتلة ليكود بزعامة مناحيم بيغن في الانتخابات العامّة سنة ١٩٧٧، وبعد شهور بدأ حلم يهود إثيوبيا يوشك أن يصبح حقيقة واقعة.

ففي خلال زيارة بيغن الأولى إلى واشنطن كرئيس للوزراء، في تمّوز - يوليو ١٩٧٧، كانت أوّل مسألة آثارها مع الرئيس جيمي كارتر لها علاقة بإثيوبيا. وتحدّث بيغن إلى كارتر على مدى دقائق عديدة لإيقاظ تعاطف الأخير مع تطلّع يهود إثيوبيا لتحقيق حلمهم القديم في الانتقال إلى "أرض أجدادهم". قبل ذلك التاريخ، كان بيغن قد وجّه رسالة إلى الرئيس الماركسي الجديد لإثيوبيا:

الكولونيل "منغيستو هيلا ماريام"، الذي أطاح على رأس فريق من الجيش في عام ١٩٧٤ بالأمبراطور هيلاسيلاسي، الصديق القديم لإسرائيل. وقد صيغت الرسالة بشكل غير عاديّ، فطلب بيغن من منغيستو السماح ليهود إثيوبيا بالانتقال إلى إسرائيل. وقد وضع بيغن مطلبه في إطار نداء إنسانيّ إلى قائد المجلس الإداريّ العسكريّ الموقّت في أديس أبابا.

أحسّ بيغن بأنّ هناك فرصة ملائمة للسعي لمواصلة اهتمامه الخاص بـ"تحرير" يهود إثيوبيا، لأنّ إسرائيل كانت قد تلقّت طلبًا من الكولونيل منغيستو باستئناف مبيعات الأسلحة الإسرائيليّة إلى إثيوبيا. وأعرب الزعيم الماركسي، عبر قنوات سريّة، عن أمله في أن تستطيع إسرائيل إقناع الولايات المتّحدة بمساعدته في حروبه ضدّ دولة الصومال المجاورة وضدّ متمرّدي جبهة تحرير إريتريا.

رفض الرئيس كارتر تغيير التحالفات في القرن الأفريقي، وإمداد إثيوبيا بالأسلحة بدلاً من الصومال جارتها العدوانيّة. فمن وجهة نظر الإدارة الأميركيّة، كان نظام الكولونيل منغيستو نظامًا إستبداديًّا وماركسيًّا وغير جدير بالمساندة الأميركيّة.

إثر ذلك، أبلغ بيغن في رسالة أخرى بعثها إلى منغيستو هذا الأخير بأنّ إسرائيل هي التي ستمدّه بالمعونات العسكريّة التي يحتاجها. وكانت النتيجة قيام تحالفين غريبين في شمال أفريقيا في عام ١٩٧٧، فإثيوبيا الماركسيّة لقيت الدعم من إسرائيل وألمانيا الشرقيّة والاتّحاد السوفياتي، بينما حظيت الصومال بدعم الولايات المتّحدة والمملكة العربيّة السعوديّة ومصر. وفي المقابل، وافقت الحكومة الإثيوبيّة على السماح برحيل أعداد صغيرة من مواطنيها اليهود. فحتّى شباط ـ فبراير ١٩٧٨، تمّ نقل مجموعتين تضمّان ٢٢٠ يهوديًّا من أديس أبابا إلى إسرائيل مباشرة على متن طائرات النقل الإسرائيليّة التي نقلت الأسلحة سرًّا إلى إثيوبيا.

غير أنّ موشي دايان، وزير الخارجيّة الإسرائيليّة في حكومة مناحيم بيغن، قد تفوّه بتصريح يتّسم باللامبالاة، ما أدّى إلى إنهاء شهر العسل بين إثيوبيا منغيستو وإسرائيل. فقد اعترف دايان في خلال مؤتمر صحافيّ بأنّ إسرائيل "تقوم بتقديم إمدادات عسكريّة للجيش الإثيوبيّ"، واستدرك بسرعة أنّ هذه الإمدادات، تعني "أردية عسكريّة"... لكنّه كان من الواضح أنّه قصد الأسلحة. وقد كان هذا التصريح من جانب دايان كافيًا لأن يقطع منغيستو علاقاته السريّة مع إسرائيل، وبالتالي لم يعد يسمح لمواطنيه من اليهود بالهجرة إلى إسرائيل. وقد شعر بيغن بالغضب من فعلة دايان، وزير خارجيّته، لكنّه في الوقت نفسه شعر بالراحة إلى حدّ ما جرّاء تحمّس رئيس الموساد إسحق حوفي للبحث عن طريقة بديلة. وبينما عكف حوفي على الترتيب لخطّته، التزم بيغن الصمت، لحماية العمليّة. وقد اضطرّ لتحمّل المضايقات والانتقادات الموجّهة إليه من جانب المنظّمات اليهوديّة، واتهامها له بأنّه لا يفعل شيئًا في مواجهة التقارير التي تشير إلى الاضطهاد الذي يعانيه يهود إثيوبيا من جانب السلطات الرسميّة وجماعات المتمرّدين وعصابات اللصوص. وأشار المنتقدون إلى أنّ إسرائيل قد تكون غير مبالية بسبب البشرة السوداء ليهود الفلاشا. غير أنّ بيغن لم يتزحزح عن موقفه الصامت رغم تمنّي مستشاريه عليه بالردّ على تلك الانتقادات. فهو لم يكن مستعدًّا على الإطلاق لكشف النقاب عن التحرّك الذي يجري اتّخاذه بالفعل.

كان رئيس الوزراء الإسرائيليّ يعلم منذ عام ١٩٧٩ أنّ عمليّة سحب اليهود الإثيوبيّين يجري الإعداد لها بأقصى سرعة. فقد تمّ تجنيد اليهود الإثيوبيّين الشباب، الذين انتقلوا إلى إسرائيل في وقت سابق، للعمل لحساب الدولة اليهوديّة. ومثلما تمّ إرسال اليهود المغاربة الشباب في مهامّ إلى وطنهم الأصليّ قبل عشرين عامًا، جرى تدريب اليهود الإثيوبيّين لمدّة قصيرة ثمّ أعيدوا إلى إثيوبيا للعمل كعملاء سرّيّين

لإسرائيل. وقد توجّه هؤلاء العملاء غير المتمرّسين إلى الجاليات اليهوديّة في إثيوبيا، واقترحوا عليهم أن يقوم كلّ يهوديّ يستطيع أن يشقّ طريقه إلى دولة السودان المجاورة بأن يفعل ذلك. وقد أطلع العملاء الإسرائيليّون زعماء القرى اليهوديّة على خطّتهم. وفي بعض الحالات قاموا بمرافقة اليهود الإثيوبيّين عبر تلك الرحلة الخطرة والطويلة. فبدأت قرى يهوديّة بكاملها في النزوح من إثيوبيا إلى السودان عبر طرق وعرة ومجهولة. وبسبب هذا المشروع المخابراتي الإسرائيلي غير القانونيّ، ألقت السلطات الإثيوبيّة القبض في حالات كثيرة على عدد كبير من هؤلاء اليهود، وقامت بإعادتهم إلى قراهم. ومات الكثيرون أيضًا، الذين يعدّون بالآلاف، وهم يشقّون طريقهم إلى السودان، لكنّ أولئك الذين تمكّنوا من الوصول إلى جنوب السودان، أقاموا في مخيّمات على مسافة عشرين ميلاً من الحدود الإثيوبيّة ـ السودانيّة.

ويصف باحثون تلك المخيّمات بأنّها كانت بالوعة بشريّة، فقد ازدحمت إلى حدّ الاكتظاظ، إلى جانب عدم توفّر الطعام الكافي، وعدم وجود مياه الشرب النظيفة، وقام مسؤولون من اللجنة العليا للاجئين التابعة للأمم المتّحدة بإدارة هذه المخيّمات، وبذلوا أقصى ما في وسعهم في هذا الصدد. وقد اعتادت لجان الإغاثة في الأمم المتّحدة على معالجة المآسي البشريّة التي طالما تسبّبت بها إسرائيل للعديد من المجتمعات اليهوديّة وغير اليهوديّة. وكان العزاء الوحيد لهؤلاء البشر أنّ حظّهم قد يكون أفضل من الذين قضوا وهم في طريق التسلّل من إثيوبيا إلى السودان. ولكنّ بعضهم فضّل أن يكون في عداد الأموات. فليس من حكومة على وجه الأرض تضع مثل هذه المخطّطات القاسية على البشر لزيادة عدد رعاياها.

إنتشر عملاء إسرائيليّون في المخيّمات للتأكّد من أنّ اليهود الإثيوبيّين ما زالوا على ولائهم لـ"أرض الأجداد". وكان عدد من هؤلاء العملاء من السود، لكي يسهل

اندساسهم بين اليهود الإثيوبيّين، بينما كان البعض الآخر من العملاء الإسرائيليّين البيض ويعملون تحت غطاء أنّهم من العاملين في هيئات إغاثة أوروبيّة مثلاً.

تحدّد الهدف التالي بالنسبة لإسرائيل في الفوز بتعاون سرّي من جانب السودان. وساعدت الحكومة الأميركيّة في ممارسة ضغوط على الرئيس السوداني "جعفر النميري"، العضو في جامعة الدول العربيّة والمعادي لإسرائيل، في مقابل تقديم مساعدات ماليّة له. ولم تكن تلك المساعدات سوى رشاوى يتمّ إيداعها في الحسابات الخاصّة بالنميري في المصارف... والمقول إنّ مصر قد ساعدت في ذلك أيضًا، لأنّ الرئيس أنور السادات الذي كان قد أضحى صديقًا لإسرائيل، كان صديقًا أيضًا، وصديقًا شخصيًّا للنميري، فحثّه، بناء على طلب بيغن، على مساعدة اليهود الإثيوبيّين على الهرب. وهكذا اكتشف بيغن فائدة جانبيّة ثمينة لمعاهدة السلام التي أبرمها مع مصر... بنتيجة كلّ ذلك، وعد الرئيس النميري بأن يغمض عينيه عن عمليّة نقل اليهود المزمعة، طالما ظلّت سرًّا. ولبحث تفاصيل هذه المسألة، بعث الموساد بأحد كبار عملائه إلى الخرطوم في مستهلّ عام ١٩٨٠، فقام بتنسيق العمليّة مع "أبو الطيّب"، رئيس أجهزة الأمن السودانيّة[١].

كان أكثر السبل المناسبة والفعّالة لنقل اليهود الإثيوبيّين هو عن طريق البحر في اتّجاه ميناء إيلات، لكنّ الرئيس السوداني جعفر النميري رفض استخدام ساحله، وطالب، في جميع الأحوال، بأن يتمّ نقل اليهود عبر دولة ثالثة وليس مباشرة من السودان إلى إسرائيل... وتمّ الإتّفاق في النهاية بين الموساد والسودان على ترتيب يجري بمقتضاه نقل اليهود الإثيوبيّين الموجودين في مخيّمات بجنوب السودان،

---

١ ـ رافيف دان، وميلمان يوسي، أمراء الموساد، ص٣٢٠ ـ ٣٢١.

بالتنسيق مع المسؤولين عن لجنة اللاجئين التابعة للأمم المتّحدة، عبر الحدود إلى داخل كينيا. ومن المعروف أنّ الكينيّين حلفاء قدامى لإسرائيل، وأنّهم انضمّوا بالفعل إلى ذلك الاتّفاق السرّي. لكنّ طريق الهروب إلى كينيا تمّ إغلاقه بعد أن قامت طائرة صغيرة خاصّة تابعة لهيئة خيريّة أميركيّة باختراق المجال الجوّي الكيني انطلاقًا من السودان، واضطرّت للقيام بالهبوط الاضطراريّ في كينيا، وكان على متنها خمسة من اليهود الإثيوبيّين تمّ إلقاء القبض عليهم وعلى بقيّة ركّابها. ونشرت صحيفة في نيروبي تفاصيل العمليّة السريّة، ومن بينها معلومات عن مركز للموساد في كينيا، فاضطرّت الحكومة الكينيّة إلى الإصرار على وقف تدفّق الفلاشا خوفًا من المخاطرة بمواجهة عداء العرب وسائر الدول الأفريقيّة. وبالنظر إلى عدم وجود بديل متابع، لجأ الموساد إلى الإرتجال.

احتاجت وكالة الموساد ثانية لبعض المساعدة الأجنبيّة، وفي هذه المرّة أيضًا لجأ عملاء إسرائيل إلى الولايات المتّحدة. فطلب كبير ممثّلي الموساد في واشنطن المساعدة من وكالة المخابرات المركزيّة CIA لإنقاذ عمليّة نقل يهود إثيوبيا. ووافق الأميركيّون على ذلك بسهولة تثير الدهشة. فمع تولّي إدارة الرئيس رونالد ريغن مقاليد السلطة في واشنطن، وصل التعاون العسكريّ والمخابراتيّ بين الولايات المتّحدة وإسرائيل إلى ذروته.

أقام الموساد ووكالت المخابرات المركزيّة الأميركيّة شركة وهميّة إسمها "تافكو"، مهمّتها استئجار أراض في السودان بالقرب من البحر الأحمر بزعم إنشاء قرية سياحيّة للغوّاصين. وبالفعل، سرعان ما وصل الغوّاصون الأجانب إلى المنطقة، ولم يكن هؤلاء سوى مجموعة من قوّة الكوماندوس البحريّة الإسرائيليّة. واستقبل رجال الضفادع البشريّة في قرية "تافكو" اليهود الإثيوبيّين الذين كان يأتي بهم عملاء الموساد،

وتحت ستار الليل جرى نقل اللاجئين في قوارب صغيرة إلى سفن إسرائيليّة ألقت مراسيها قرب الساحل السودانيّ. ومخرت تلك البواخر عباب اليمّ الأحمر حتّى شرم الشيخ، التي كانت آنذاك لا تزال تحت الاحتلال الإسرائيليّ. ومن هناك تمّ نقل اليهود الإثيوبيّين على متن طائرات نقل إلى قواعد سلاح الطيران الاسرائيليّ في قلب الدولة اليهوديّة. وكلّف الموساد فريقًا من المصوّرين بتسجيل المراحل الأخيرة من الخروج الجماعيّ لليهود الإثيوبيّين وانتقالهم إلى إسرائيل، وذلك بهدف الاحتفاظ بهذه الأفلام وشرائط الفيديو في أرشيف وكالة الهجرة السريّة. لكن تمّ عرض هذه الأفلام على اجتماع للحكومة الإسرائيليّة، حيث يقول باحثون "إنّ العديد من الوزراء، ومن بينهم مناحيم بيغن رئيس الحكومة، قد أوشكوا على البكاء، لما رأوه من المشاهد المؤثّرة". ويقول الباحثون أنفسهم إنّ بعض الوزراء أعاد إلى الأذهان العمليّات التي استطاع بها اللاجئون اليهود من أوروبّا التي اجتاحها النازيّ، الوصول إلى سواحل فلسطين قبل نشوء إسرائيل. ولكن الآن، وقد أصبح لليهود دولتهم "الخاصّة بهم"، فـ"من السخف" الاضطرار إلى اللجوء إلى أساليب الهجرة غير القانونيّة مرّة ثانية... وكان ردّ المدافعين عن العمليّة بأنّه عندما لا يريد أحد أن يسجّل مساعدته لليهود للإفلات ممّا أسموه "أهوال إثيوبيا"، فإنّ دولة إسرائيل يتعيّن عليها اللجوء إلى الأساليب السريّة.

وعبر البحر الأحمر، تمّ نقل حوالى ألفي يهوديّ إثيوبيّ إلى إسرائيل، عبر القرية السياحيّة الوهميّة على الساحل السودانيّ. وقد أعرب مخطّطو العمليّة عن قلقهم لعدم استطاعتهم الإسراع في خطى العمليّة. فبعد أن عبر اللاجئون اليهود الصحراء انطلاقًا من إثيوبيا، على الرغم من الصعوبات والمشاق التي واجهتهم، فإنّ ألوفاً أخرى منهم كانوا ينتظرون فرصتهم للوصول إلى إسرائيل. وفي الوقت نفسه، علم الرئيس السودانيّ جعفر النميري أنّ الموساد ووكالة المخابرات المركزيّة الأميركيّة يستخدمان

السودان كمحطّة عبور لليهود الإثيوبيّين. وأصبح قلقًا بشكل متزايد خشية انكشاف العمليّة بأسرها، خاصّة وأنّه لم يكن يستطيع أن يوضّح للأغلبيّة المسلمة في بلاده الأسباب التي دعته إلى مساعدة إسرائيل. كما أنّ النميري خشي أيضًا أن تكشف الأنظمة العربيّة المتطرّفة، وبخاصّة ليبيا، تورّطه مع الإسرائيليّين، ممّا سيترتّب عليه دمغه من جانب تلك الأنظمة بالخيانة. وهكذا اتّخذ الرئيس السودانيّ موقفًا أكثر حزمًا، وأصرّ على ضرورة خفض الخروج الجماعيّ لليهود، من إثيوبيا إلى إسرائيل، إلى أدنى حدّ ممكن. حدث ذلك في الوقت الذي تزايدت فيه عمليّة الخروج الجماعيّ لليهود من إثيوبيا إلى السودان إلى حدّ كبير، لتشكّل موجة بشريّة كبرى.

وعى رئيس الوزراء مناحيم بيغن، ورئيس الموساد إسحق حوفي أنّ الوقت يمرّ، وأنّه لا بدّ من اتّخاذ إجراء ما لمواجهة الموقف. وقرّر الإثنان تنفيذ عمليّة ضخمة لنقل ٢٠ ألفًا من اليهود الإثيوبيّين، من السودان إلى إسرائيل في خلال مدّة زمنيّة قصيرة للغاية. وأُطلق على هذه العمليّة الإسم الشيفريّ "عمليّة موسى".

كانت الخطوة الأولى في تلك العمليّة تقضي بتجديد ممرّ قديم لهبوط الطائرات قرب بلدة "شوبك" السودانيّة. وفي ذات ليلة من ليالي آذار ـ مارس ١٩٨٤، قامت طائرتا نقل من طراز "هيركيوليس" بالهبوط هناك، وصعد إلى متنها مائتان من اليهود الإثيوبيّين تمّ إحضارهم إلى هناك بواسطة سيّارات نقل، ثمّ حلّقت الطائرتان في الجوّ واختفتا في ظلمة الليل. وتكرّرت هذه العمليّة مرارًا في خلال شهر من جانب الطائرتين التابعتين لسلاح الطيران الإسرائيليّ، واللتين لا تحملان أيّ علامة مميّزة، وعني الموساد بعدم ترك أيّ أثر على الأرض من شأنه أن يشير إلى تورّط إسرائيل حتّى ولو كانت مجرّد علبة سجائر فارغة أو علبة كبريت. من ناحية أخرى، تمّ نقل عدد قليل من اليهود الإثيوبيّين من مطار الخرطوم إلى أوروبّا، ومن هناك توجّهوا إلى

إسرائيل. وقد أراد الموساد الاستفادة من مطار الخرطوم، خاصّة وأنّه أكثر أمنًا بكثير من ممرّ الهبوط التي تستخدمه الطائرات الاسرائيليّة بالقرب من بلدة "شوبك"، وكان لا بدّ من الحصول على موافقة جعفر النميري على ذلك... كما سيتعيّن أن تقوم قوّاته بحراسة المطار لإبعاد الفضوليّين عنه في أوقات استخدام الطائرات الإسرائيليّة له. وبضغط من إسرائيل، وعدت الولايات المتّحدة بتقديم مساعدات اقتصاديّة إضافيّة إلى السودان قيمتها ٢٠٠ مليون دولار مقابل أن يَعِد النميري بالسماح لليهود بالطيران من الخرطوم. وكان المفاوض الرئيسيّ في هذا الشأن "جورج فيبر"، الذي يعمل في السفارة الأميركيّة لدى الخرطوم تحت غطاء "منسّق لاجئين". ولضمان موافقة النميري النهائيّة، أودع الموساد ٦٠ مليون دولار في بنوك أوروبيّة، وبصفة أساسيّة في سويسرا ولندن، لحساب النميري وعدد من معاونيه ومن بينهم رئيس أجهزة الأمن السودانيّة: "أبو الطيّب". وقد تمّ جمع معظم هذه الأموال من اليهود في مختلف أنحاء العالم تحت عنوان "مساعدة الفلاشا". كذلك تمكّن الموساد من إقناع المليونير البلجيكيّ اليهوديّ المتديّن "جورج ميتلمان" بمساعدة المشروع السرّي أو عمليّة موسى. وقد كان ميتلمان يمتلك شركة للخطوط الجويّة إسمها "ترانس يوروب"، علاوة على أنّ ملّاحي الشركة كانت لديهم خبرة ومعرفة كبيرة بمطار الخرطوم، حيث سبق أن قاموا على مدى سنوات بنقل الحجّاج السودانيّين من مطار الخرطوم إلى مكّة المكرّمة لأداء فريضة الحج. ووافق ميتلمان على وضع طائراته تحت تصرّف إسرائيل وعلى أن "يقفل فمه"، بعد أن استشار "ويلفريد مارتنس" رئيس وزراء بلجيكا، و"جان جول" وزير العدل البلجيكي، وأيّداه في ذلك. وابتداء من ٢١ تشرين الثاني - نوفمبر ١٩٨٤، وحتّى الأسبوع الأوّل من عام ١٩٨٥، قامت طائرات البلجيكي بخمس وثلاثين رحلة جويّة من مطار الخرطوم لنقل سبعة آلاف يهوديّ إثيوبيّ إلى إسرائيل. وكانت الرحلة

الجويّة تنطلق من مطار الخرطوم، وبعد توقّف لمدّة ساعتين في بروكسل للتزوّد بالوقود، تواصل طيرانها إلى إسرائيل. وتمّت العمليّة بدقّة وسرّية متناهيتين، وعلى الرغم من أنّ مئات من الأشخاص في إسرائيل وخارجها كانوا يعلمون قصّة "عمليّة موسى"، إلاّ أنّ أحدًا لم يفش السرّ. كما وافق رؤساء تحرير الصحف الإسرائيليّة على عدم نشر أيّ تقارير تشير إلى وصول اليهود الإثيوبيّين إلى إسرائيل. حتّى أنّ المراسلين الأجانب في إسرائيل، الذين سمعوا عن العمليّة، وافقوا على عدم إرسال أيّ تقارير للخارج من شأنها أن تلحق الضرر بالعمليّة[1]. لكنّ مسؤولاً إسرائيليًّا لم يستطع أن يغلق فمه، ما أدّى إلى إلحاق أضرار بالغة بـ"عمليّة موسى"، وإلى توقّفها قبل نهايتها. ذاك المسؤول هو "يهودا دومينيتز"، وهو مسؤول كبير في الوكالة اليهوديّة. كان مكتب دومينيتز قد شارك بنشاط في عمليّات استقبال يهود إثيوبيا وتوفير أماكن لسكنهم، وأيضًا في عمليّة جمع الأموال من أنحاء مختلفة من العالم من أجل تمويل هذه العمليّة. وفي بداية شهر كانون الثاني - يناير ١٩٨٥، أجرت صحيفة إسمها "بوينت" يصدرها المستوطنون اليهود في الضفّة الغربيّة المحتلّة، مقابلة مع دومينيتز. وكان هؤلاء المستوطنون يأملون كثيرًا في قدوم يهود إثيوبيا للمشاركة في توسيع نطاق المستوطنات الإسرائيليّة في الضفّة الغربيّة المحتلّة. وفي خلال المقابلة، كشف دومينيتز بلا مبرّر عن تفاصيل المشروع الإسرائيليّ لإنقاذ اليهود الإثيوبيّين. ووجد المراسلون الأجانب الأربعمائة المعتمدون في إسرائيل، في نشر هذه المقابلة الصحافيّة إشارة خضراء من جانب السلطات الإسرائيليّة للحديث عن عمليّة موسى بأسرها، بيد أنّ الأمر لم يكن كذلك على الإطلاق. ولم تجد الحكومة الإسرائيليّة بدًّا من أن تأخذ

---

١ - جميع المعلومات الواردة في هذه الرواية منشورة في: رافيف دان، وميلمان يوسي، أمراء الموساد، ص ٣٣٩ - ٣٥١.

زمام المبادرة، وتكشف بنفسها عن تفاصيل عمليّة موسى، وتستمتع بالنجاح الذي حقّقته... فقد انكشف الأمر ولم يعد هناك سبيل للمداراة والإخفاء.

عقد شيمون بيريز رئيس الوزراء الإسرائيليّ الجديد، الذي لم يكن قد مضى عليه في خلافة مناحيم بيغن ثلاثة شهور، مؤتمرًا صحافيًّا تمّ ترتيبه على عجل. وأجاب بيريز في خلال المؤتمر على جميع الأسئلة والاستفسارات المتعلّقة بكيفيّة تمكّن إسرائيل من نقل حوالى عشرة آلاف يهوديّ إثيوبيّ إلى أراضيها. وبدا أنّ بيريز، وهو رئيس حزب العمل، أراد أن ينسب لنفسه الفضل في عمليّة كانت قد بدأت بمبادرة من مناحيم بيغن وكتلة ليكود. وقد أحدثت تصريحات بيريز ضجّة كبرى في مختلف وسائل الإعلام في أنحاء العالم.

بذلك، تحقّقت مخاوف النميري. وشنّت عليه الدول العربيّة وياسر عرفات رئيس منظّمة التحرير الفلسطينيّة هجومًا عنيفًا، متّهمة إيّاه بالخيانة وبمساعدة الصهاينة على تجنيد مزيد من الجنود لجيشهم. وفي الخامس من كانون الثاني - يناير، وتحديدًا بعد يومين من المؤتمر الصحافيّ لشيمون بيريز، أخطرت الحكومة السودانيّة واشنطن بأنّه سيتعيّن وقف الخروج الجماعيّ ليهود إثيوبيا عبر الخرطوم على الفور. كما قامت إثيوبيا باتّخاذ موقف مماثل، وعمدت إلى إغلاق حدودها مع السودان، واتّهمت النميري والإسرائيليّين باختطاف المواطنين الإثيوبيّين. وكان لا يزال هناك ما يزيد على الألف من اليهود الإثيوبيّين في السودان ذاته، ومعظمهم من الشباب، لأنّ إسرائيل لجأت إلى إجلاء المرضى والمسنّين والنساء والأطفال أوّلاً. وقد مارست الولايات المتّحدة مزيدًا من الضغوط على السودان، وتدخّل الرئيس جورج بوش الأب نائب الرئيس الأميركيّ آنذاك بصفة شخصيّة لحلّ المشكلة، ووافق النميري على أن تهبط طائرات الـ"هيركيوليس" التابعة لسلاح الطيران الأميركيّ في مطارمهجور قرب أحد مخيّمات

اللاجئين، وذلك في الثامن والعشرين من آذار ـ مارس ١٩٨٥. وبالفعل، فقد قامت طائرات النقل الأميركيّة العسكريّة بالتقاط "الفلاشا" المتبقّين وبترحيلهم إلى إسرائيل مباشرة.

بعد تلك العمليّة، أصبحت أيّام الرئيس السوداني جعفر النميري في الحكم معدودة، إثر انكشاف تورّطه في تهجير "الفلاشا". وبالفعل، فقد أطاح بحكمه انقلاب عسكريّ بعد زمن قصير. ومن سخرية القدر، أنّ "صادق المهدي" الذي خلف النميري، كان هو السياسي السوداني نفسه الذي بدأ الاتّصالات السريّة مع إسرائيل في لندن عام ١٩٥٤.

تمّت محاكمة النميري وعدد من أعوانه غيابيًّا، ومن بينهم أبو الطيّب رئيس الجهاز السرّي السوداني، وذلك بتهمة الفساد وقبول رشاوى من الموساد ومن وكالة المخابرات المركزيّة الأميركيّة، والتواطؤ مع العدوّ الإسرائيليّ. ولجأ النميري إلى القاهرة، وجاء ذلك مجاملة من صديقه الرئيس حسني مبارك، خليفة الرئيس محمّد أنور السادات.

لخّص باحثون مجمل عمليّة نقل يهود "الفلاشا" من إثيوبيا إلى الحبشة عبر السودان بالتالي: بيغن بادر، والسادات توسّط، ودايان أفسد، وحوفي صحّح، وريغن دفع، وبيريز تحدّث، والنميري تحطّم[١].

وفي نهاية المطاف، بقي قرابة عشرة آلاف يهوديّ من يهود "الفلاشا" في إثيوبيا يعيشون منبوذين.

---

١ ـ رافيف دان، وميلمان يوسي، أمراء الموساد، ص٣٢٠ ـ ٣٢١، ٣٣٩ ـ ٣٥١.

مناحيم بيغن والإرهابُ اليَهُوديُّ وشين بيت

قبيل الساعة الثامنة من صباح الثاني من يونيو ـ حزيران ١٩٨٠، دوّت ثلاثة انفجارات في الضفّة الغربيّة استهدفت ثلاثة من العمد الفلسطينيّين، وقد نجا بأعجوبة كلّ من "بسّام الشكعة" عمدة نابلس المعروف بشعبيّته ومزاجه الناري، و"كريم خلف" عمدة رام الله الجنتلمان ذو الأسلوب الإنكليزي الأنيق، و"محمّد الطويل" عمدة البيرة الهادئ، من القنابل المزروعة في سيّاراتهم خارج بيوتهم. وساد الغضب والتعاطف في أنحاء العالم من أجل هؤلاء الساسة الذين فقدوا أطرافهم ولم يخفوا تحميلهم المسؤوليّة في ذلك للسلطات الإسرائيليّة.

في هذه الأثناء، قام الجيش الإسرائيليّ بالتحريّات، ونفى مناحيم بيغن رئيس الوزراء أيّ تورّط من قبل السلطات في الهجمات، ورجّح العديد من الإسرائيليّين أن يكون العمد قد هوجموا من جانب فلسطينيّين، اعتمادًا على وجود سوابق لجماعات راديكاليّة تقتل العرب الذين اعتُبروا معتدلين للغاية أو وثيقي الصلة بإسرائيل...

ولكن خلف الكواليس، اعتقد "أفراهام أحيتوف"، مدير جهاز شين بيت، أنّ المعتدين هم من اليهود على الأرجح. ولو تتبّع المحقّقون الخيط فمن المحتمل أن يؤدّي إلى المستوطنات اليهوديّة في الضفّة الغربيّة المثيرة للجدال. فالمستوطنون المتطرّفون، لديهم الوسائل والدوافع لإرهاب العمد العرب.

واستنادًا إلى قنابل السيّارات التي كانت تتّسم بالتعقيد، وإلى غياب البصمات والقرائن الماديّة الأخرى، كان هناك ما يدعو للاعتقاد بأنّ الجماعة السريّة المسؤولة عن الحادث لا بدّ وأن تؤخذ على مأخذ الجد، باعتبار هذا العمل تحدّيًا لاستتباب القانون بغضّ النظر عن الاعتبارات السياسيّة.

إلتقى أحيتوف مع بيغن وطلب تصريحًا بزرع عملاء شين بيت كجواسيس بين المستوطنين اليهود. وقد استُخدمت شبكات التنصّت على الاتّصالات الهاتفيّة وشبكات المخبرين بفعاليّة ضدّ اليهود اليساريّين الذين اعتبروا متطرّفين في إسرائيل خلال خمسينات وستّينات وسبعينات القرن العشرين. وقد اعتقد كبار ضبّاط شين بيت دائمًا اليسار عرضة للتخريب من الخارج سواء من قبل المخابرات السوفياتيّة أو المصالح الغربيّة.

من جهة أخرى، ففي الأعوام التالية لحرب عام ١٩٦٧، أصبح اليمين في إسرائيل مصدرًا متناميًا للقلق. فقد أنتجت هذه الجماعة الهامشيّة اليهوديّة رؤية مركّبة لـ"المهدي المنتظر"، وتعصبًّا دينيًّا وقوميّة متطرّفة، وكراهية بلا حدود للفلسطينيّين.

مُنحت شين بيت يدًا مطلقة في مراقبة إحدى المنظّمات اليمينيّة، وهي حزب "كاخ" الذي يتزعّمه الحاخام "مائير كاهانا". وهذا الحزب هو وريث إسرائيليّ لـ"رابطة الدفاع اليهوديّة" التي أسّسها كاهانا في الولايات المتّحد. ويدعو برنامجه السياسيّ إلى طرد كلّ العرب من إسرائيل والأراضي المحتلّة.

تسلّل عملاء شين بيت إلى داخل حزب كاهانا وقدّموا تقارير كاملة عمّا يحدث بداخله، ليكون هناك تحذير مسبق في حال قيام عضو من الحزب بالبدء في شنّ حملة قتل أو تشويه. ومن وقت إلى آخر، كان يتمّ القبض على أعضاء "كاخ" الناشطين بناء على معلومات سريّة من المخبرين. وعبر السنين، أُلقي القبض على عدد من

الإسرائيليّين الآخرين، المنتمين إلى جماعات صغيرة، ساذجة المذهب، غير مستقرّة ذهنيًّا، أو سريعة الزوال، لقيامهم بالتخطيط لشنّ هجمات ضدّ المدنيّين العرب، أو حتّى لنسف المساجد المقدّسة على جبل المعبد المقدّس. فإنّ العديد من المتديّنين اليهود يؤمنون بأنّه يتعيّن هدم أماكن عبادة المسلمين قبل قدوم "المهدي المنتظر" أو "المشيح المنتظر" لينقذ العالم. وذلك لأنّه سيقوم ببناء معبد ثالث لليهود مكان القبب الذهبيّة والفضيّة لمسجدي الأقصى وعمر.

أثبتت شين بيت فعاليّتها في مواجهة ما يسمّى بقضايا التطرّف، لكنّها واجهت مهمّة أكبر دقّة بكثير في ما يتعلّق بمستوطني الضفّة الغربيّة. فمعظم هؤلاء يعتبرون، على نطاق واسع، وطنيّين جادّين، وعلى صلات ممتازة وواضحة مع بيغن ومؤسّسة ليكود التي يتزعّمها. وكما خشي أحيتوف، فقد رفض رئيس الوزراء طلبه لزرع جواسيس بين هؤلاء المستوطنين. فقد نحى بيغن اعتبارات المهنة التي يتطلّبها الأمن والمخابرات جانبًا، في سبيل اعتبارات أخرى عاطفيّة وسياسيّة أملت عليه ألاّ يفعل ذلك. ويقول باحثون إنّه "كان هذا مناحيم بيغن المختلف عن مناحيم بيغن الذي تولّى مقاليد الحكم في عام ١٩٧٧. فبعد أن ضمن دوره كصانع سلام عن طريق تقديم تنازلات للتوصّل إلى معاهدة سلام مع مصر، بدأ بيغن الحقيقيّ شديد الديماغوجيّة والوطنيّة، كما يصفه معارضوه بتلهّف للخروج من قوقعته المعتدلة".

بحلول عام ١٩٨٠، بعد عام من الحدث التاريخيّ الذي صنعه مع رئيس مصر الكاريزمي محمّد أنور السادات، بدأ بيغن يقع تحت تأثير الجنرال "إيرييل شارون"، صاحب التاريخ الدمويّ والتطرّف الاستيطانيّ.

كان شارون يراقب عن قرب الشجار القائم بين رئيس الوزراء وبين أحيتوف رئيس شين بيت، حول انفجار السيّارات في عام ١٩٨٠، وكان أحيتوف يفكّر في

الاستقالة، لقيام بيغن بإعاقة مطلبه القاضي بإجراء تحقيق أكثر تشدّدًا حول الاندلاع الظاهر للإرهاب اليهوديّ. وقد أدرك رئيس شين بيت أنّ رحيله المفاجئ سيربك وكالة الأمن الداخليّ، وسيثير عاصفة سياسيّة هائلة لن تعود بالنفع على أحد. لذلك قرّر أن يبتلع كبرياءه المهنيّ، وأن يستمرّ في منصبه لعام آخر.

عندما ترك أحيتوف أخيرًا شين بيت في عام ١٩٨١، ذكر رجال مؤسّسة المخابرات المطّلعون، والذين كلّفوا بكتابة تقرير ينتقده، أنّ أحيتوف أخطأ عندما طلب تصريحًا من بيغن للتجسّس على المستوطنين. وأضافوا أنّه إذا كان رئيس شين بيت يعتقد بوجود تخريب وعنف في المجتمع الإسرائيليّ، لكان ينبغي عليه أن يستخدم حكمه الخاصّ وسلطته لزرع شبكة من المخبرين بين يهود الضفّة الغربيّة.

وهكذا، ففي غياب أيّ معلومات ماديّة عن مفجّري السيّارات، فإنّ شين بيت والجيش عجزا عن منع الحركات السريّة اليهوديّة من الاستمرار على طريق العنف. وتنكّر العديد من مستوطني الضفّة الغربيّة في الزيّ العربيّ، واقتحموا حرم الجامعة الإسلاميّة في الخليل في حزيران - يوليو ١٩٨٣، وهم يطلقون الرصاص على الطلبة، ما أدّى إلى مصرع ثلاثة فلسطينيّين. وظلّت هذه الجريمة أيضًا دون حلّ حتّى أيّار - مايو ١٩٨٤، كما سيأتي لاحقًا[1].

---

١ - رافيف دان، وميلمان يوسي، أمراء الموساد، ص٣٥٣ - ٣٥٦، ٣٥٩ - ٣٦٠.

ضَرَبُ مفاعِل التويثة في شَمال العراق

بادرت العراق في عام ١٩٧٧ بالدخول للعالم النوويّ وإقامة مفاعل ذرّي، حيث استطاعت من خلال علاقتها بفرنسا أن تبدأ في بناء المفاعل النووي العراقي بخبرات فرنسيّة وعربيّة. ومارست إسرائيل ضغوطًا على فرنسا بواسطة أميركا لإيقاف الدعم الفرنسيّ لتحويل العراق إلى دولة نوويّة، غير أنّ تلك الضغوط لم تفلح. وأعلنت إسرائيل بشكل صريح عن أنّها لن تقف مكتوفة الأيدي أمام المفاعل الذرّي العراقي" "لأن العراق سوف يمثّل خطرًا حقيقيًّا عليها، فلا بدّ لها من معالجة الأمر في وقت مبكّر قبل أن ويبدأ الإنتاج"[١]...

يقول باحثون إنّ السلام مع مصر، لم يعنِ أنّ رئيس الوزراء الليكودي مناحيم بيغن قد لان، كما برهن هو نفسه بقراره الجسور في العام ١٩٨١، إذ في الرابع من تمّوز - يونيو، قامت أربع عشرة طائرة قاذفة مقاتلة من طراز F 16 وF 15 تابعة لسلاح الطيران الإسرائيلي بتدمير المفاعل النوويّ العراقيّ في بغداد. وهو المفاعل الذي أطلق عليه العراقيّون إسم "تمّوز"، نسبة إلى إله كنعانيّ، وإشارة إلى الشهر الذي تولّى فيه حزب البعث الاشتراكيّ مقاليد السلطة في العراق عام ١٩٦٨. وفي خلال الحقبة السابقة على تولّي مناحيم بيغن رئاسة الوزراء في عام ١٩٧٧، استخدمت

١ - عابدين، المخابرات والأمن والجاسوسيّة، ص٢٨٢ - ٢٨٣.

الحكومة الإسرائيليّة الدبلوماسيّة الهادئة لإثناء فرنسا وإيطاليا والبرازيل عن عزمها على إمداد العراق بالمعدّات، واليورانيوم، والخبرة الفنيّة في إطار مشروع تمّوز. كذلك طالبت إسرائيل الولايات المتّحدة بالتدخّل على أمل أن تؤثّر حملة الرئيس جيمي كارتر لمنع انتشار الأسلحة النوويّة في فرنسا[1].

فمنذ قيام الدولة اليهوديّة وحالة الحرب الرسميّة تقوم بين العراق وإسرائيل. كانت إسرائيل على ثقة من أنّ بإمكان قوّاتها تحقيق الانتصار في أيّ حرب تقليديّة. ولكن في عام ١٩٧٧، اكتشف الموساد أنّ الحكومة الفرنسيّة التي كانت قد زوّدت إسرائيل بالقدرة النوويّة، أعطت العراق أيضًا مفاعلاً نوويًا وأمدّته بـ"المساندة التقنيّة"، وقد أقيم المرفق في "التويثة" في شمال العراق. فبدأ سلاح الجوّ الإسرائيلي التخطيط لضرب الموقع بالقنابل قبل أن يُحمّى بقضبان الأورانيوم ويبدأ الإنتاج، لأنّ تدميره عندئذ يؤدّي إلى تفشّي الموت والتلوّث في المنطقة كلّها ويعرّض إسرائيل للإدانة العالميّة.

ذلك أنّ مناحيم بيغن كان قد قرّر تبنّي سياسة جديدة تمامًا حيث استدعى رؤساء المخابرات وأعلن أنّه من الآن فصاعدًا سيكون تدمير المفاعل النوويّ العراقيّ أحد الأهداف القوميّة العليا لإسرائيل. وأمر بيغن أجهزة المخابرات ببذل كلّ جهد ممكن للحصول على معلومات عن المفاعل النوويّ لمشروع تمّوز، كمدى سرعة بنائه ومدى التعاون بين العراق والدول الأخرى في شأنه.

ويقول باحثون إنّ بيغن كان متأثّرًا، أكثر من أيّ زعيم إسرائيليّ آخر، بالإبادة الجماعيّة لليهود التي اقترفها النازيّ. واعتبر القضاء على ستّة ملايين يهوديّ أوروبيّ ليس فقط حدثًا تاريخيًّا مخيفًا، وإنّما أيضًا تحذير واضح من أخطار الحاضر... ونتيجة

---

١ ـ رافيف دان، وميلمان يوسي، أمراء الموساد، ص٣٦١.

لذلك، أرسى رئيس الوزراء مبدأ جديدًا مفاده أنّ إسرائيل لن تسمح لأيّ دولة عربيّة بإنتاج قدرة نوويّة هجوميّة.

عارض رئيس الموساد إسحق حوفي الإغارة على المفاعل العراقيّ بحجّة أنّ الضربة الجويّة ستتسبّب في كلّ حال بخسارة باهظة بالأرواح في صفوف التقنيّين الفرنسيّين وتثير شكّ البلدان الأوروبيّة بنوايا إسرائيل. كما أنّ قصف المفاعل سيضع حدًّا نهائيًّا للمحاولات الضعيفة الجارية لإقناع مصر بتوقيع معاهدة سلام. إلاّ أنّ إسحق حوفي وجد نفسه ربًّا لأسرة منقسمة في ما بينها. وكانت حجّة عدد من رؤساء الدوائر عنده أن لا بديل عن تعطيل المفاعل. فصدّام حسين عدوّ لا يرحم. ومتى اقتنى سلاحًا نوويًّا فلن يتردّد في توجيهه نحو إسرائيل. ومنذ متى تهتمّ إسرائيل بكسب الأصدقاء في أوروبّا؟ إنّ أميركا هي من يهتمّ الإسرائيليّون لموقفها، وما تقوله واشنطن سرًّا هو أنّ تدمير المفاعل لن يترتّب عليه سوى صدور تأنيب خفيف من الإدارة الأميركيّة.

أمام هذا الواقع، سلك حوفي مسلكًا آخر، فاقترح أن تضغط الولايات المتّحدة دبلوماسيًّا على فرنسا لوقف تصدير المفاعل. ولكنّ واشنطن تلقّت ردًّا صادًّا جافًّا على طلبها من باريس، وعندها اختارت إسرائيل الطريق المباشر، فأرسل حوفي على وجه السرعة فريقًا من العملاء الميدانيّين للإغارة على المصنع الفرنسيّ في "لا سين سور مير" قرب "تولون" حيث كانوا يبنون المفاعل العراقيّ، فجرى تدمير قلبه، وأعلنت المسؤوليّة عن ذلك منظّمة لم يُسمع بها من قبل، أطلقت على نفسها إسم "المجموعة البيئيّة الفرنسيّة"، وهو الإسم الذي اختاره حوفي بنفسه. وسرعان ما استنتجت وكالة المخابرات الفرنسيّة SDECE أنّ تدمير المكوّنات النوويّة كان عملاً لحساب إسرائيل، وأنّ الموساد هو الذي لرتكبه في الغالب.

أمل بيغن ومؤسّسة المخابرات الإسرائيليّة في أنّ فرنسا ستستخدم هذا التدمير كذريعة لإنهاء معونتها النوويّة إلى العراق، لكنّ هذا الأمل تبدّد في غضون وقت قصير جدًّا. فقد أعلنت الحكومة الفرنسيّة أنّها ستلتزم بتنفيذ اتّفاقاتها مع العراق وستمدّه بقلبي مفاعلين جديدين. وشرع الفرنسيّون في إعادة بناء قلب جديد للمفاعل، وأرسل العراقيّون عضو وكالة الطاقة النوويّة العراقيّة "يحيى المشدّ" إلى باريس للاتّفاق على شحن الوقود النوويّ إلى بغداد، فأرسل حوفي إلى فرنسا فريقًا من القتلة لاغتيال المشدّ.

قام بعض أعضاء فريق القتل الاسرائيلي بمراقبة الشوارع المحيطة فيما استعمل اثنان منهم مفتاحًا خاصًّا لدخول غرفة نوم المشدّ فذبحوه وطعنوه في القلب ثمّ نهبوا الغرفة للإيحاء بأنّ الغرض من القتل كان السرقة. وقد أخبرت غانية كانت في غرفة ملاصقة رجال الشرطة بأنّها سمعت "حركة غريبة" في غرفة المشد. وبعد ساعات من إدلائها بإفادة إلى الشرطة قُتلت المرأة في حادث اصدام مدبّر، ولم يُعثر على السيّارة الجانية. أمّا القتلة فعادوا إلى إسرائيل على متن طائرة لشركة العال الإسرائيليّة[1].

استمرّ العراقيّون بدعم من فرنسا في محاولتهم التحوّل إلى دولة نوويّة رغم الضربتَين. وتحوّل بيغن إلى ما اعتبره طريق التحرّك الأخير الباقي لإسرائيل، وهو

---

١ ـ وضع الموساد خطة لاغتيال العلماء العرب وبدأ في تنفيذها، ففي ١٤ حزيران ـ يونيو ١٩٨٠ اغتال العالم المصري الدكتور يحي المشد في إحدى الفنادق بباريس بغرض إبعاد العالم المصري عن العمل الذي يقوم به لصالح الأبحاث النووية العراقية، كما قام باغتيال الدكتور "شبيل القليني" في براغ، وطالت أيادي الموساد عالمة الذرة المصرية الدكتورة سميرة موسى في تدبير حادث سقوط سيارتها من ارتفاع شاهق. كما رسم الموساد خطة لاغتيال عالم الذرة الفلسطيني "نبيل فليفل"، كما اغتال العالم الفلسطيني "إسماعيل راجي الفاروقي" وزوجته. ومن أجل قطع الصلة بين الدول العربية ومناهج التطور العلمي يقوم جهاز الموساد بتصفية العلماء العرب والأجانب الذين يقدمون مساهماتهم العلمية لصالح أي من الدول العربية.

الخيار العسكريّ ضدّ العراق ذاته. وبالتنسيق مع "رافول إيتان"[1]، رئيس الأركان، أمر بيغن الموساد وأمان ببحث إمكانيّة شنّ هجوم مباشر بقوّات بريّة، سواء بواسطة قوّات كوماندوس الجيش أو أيّ قوّات غير نظاميّة أخرى، على المفاعل العراقيّ. فوضع المتفجّرات عن طريق عملاء يعطي نتائج أكثر دقّة من الهجوم الجوّي.

في هذا الوقت، تابع سلاح الطيران الاسرائيلي استعداداته الخاصّة فيما استمرّ جدل رؤساء أجهزة الاستخبارات مع حوفي في شأن اعتراضاته المتواصلة. وواجه رئيس الموساد معارضة لموقفه من جهة لم يكن يتوقّعها، إذ ادّعى نائبه، ناحوم عدموني، أنّ تدمير المفاعل وإن لم يكن ضروريًا، لكنّه سيلقّن أيّ عربيّ آخر ذا طموحات كبرى درسًا لن ينساه. وفي تشرين الأوّل ـ أكتوبر ١٩٨٠، استحوذ الجدل على اهتمام جميع جلسات الحكومة برئاسة مناحيم بيغن. وأُعيد طرح وجهات النظر ذاتها من جديد. وشيئًا فشيئًا أصبح موقف حوفي المعارض للهجوم يفتقر إلى السند. ومع ذلك بقي حوفي يجاهد من أجل الدفاع عن وجهة نظره، فعرض موقفه في مقالات متقنة كتبها وهو يدرك أنّه كان بذلك يكتب "نعيه المهني". وراح عدموني يصعّد ازدراءه لموقف حوفي علنًا. ومع ذلك، استغرق الصراع المرير بين رئيس الموساد المحاصر وكبار موظّفيه ستّة أشهر أخرى قبل أن توافق الأركان العامّة على الهجوم على المفاعل النوويّ العراقيّ في ١٥ آذار ـ مارس ١٩٨١.

غير أنّه مع بدء الاستعدادات للهجوم، ظهرت خلافات هامّة بين صنّاع القرار الإسرائيليّين. فقد كان يجري بحث شنّ غارة على بغداد والتخطيط لها، والانتخابات العامّة تلوح في الأفق. وقبل بضعة أسابيع فقط من إجراء الانتخابات، في السابع من

---

١ ـ هو غير رافي إيتان الإستخباراتي.

حزيران ـ يونيو ١٩٨١، علم شيمون بيريز وجنرالات الجيش السابقين في حزب العمل بالخطط من أصدقاء وزملاء سابقين في المؤسّسة العسكريّة ومؤسّسة المخابرات. وكان الجنرال إيتان قد أمر القوّات الجويّة ببناء نموذج كامل للمفاعل استنادًا إلى تقارير التجسّس، والتدرّب على قصفه.

إتّصل بيريز برئيس الوزراء مناحيم بيغن لحثّه على عدم الهجوم على العراق. ففي السرّ، كان زعماء العمل يخشون أن تؤدّي الغارة على المفاعل إلى دعم شعبيّة ليكود وبيغن بين الناخبين. كما عارض بعض أكثر الأصوات نفوذًا وتأثيرًا في مؤسّسة المخابرات الخيار العسكريّ المكشوف. فاعتقد إسحق حوفي رئيس الموساد، و"شلومو غازيت" رئيس أمان حتّى حلّ محلّه "يهوشوا ساغاي" في شباط ـ فبراير ١٩٧٩، أنّ المفاعل العراقيّ لن يشكّل خطرًا قبل مضيّ مدّة طويلة. واقترح رجال المخابرات أولئك الذين كانوا يمثّلون شبه أغلبيّة، البدء في مبادرة دبلوماسيّة أكثر حزمًا من سابقاتها. وحذّروا من أنّ قصف بغداد قد يحفز العراق وإيران على إنهاء حربهما في الخليج والتوحّد ضدّ إسرائيل، وأنّه قد يثير موجة هائلة من الإدانة الدوليّة. ومن المعروف أنّ حرب الخليج عندما بدأت في عام ١٩٨٠، بدا أنّها تخدم مصالح إسرائيل.

من ناحية أخرى، تجمّع ائتلاف قويّ من أعضاء الحكومة التابعين لليكود بقيادة إرييل شيرون حول الجنرال إيتان مساندين له في تأييده لشنّ الغارة. وبالطبع، كان مناحيم بيغن رئيس الوزراء معجبًا بالفكرة، وخطّط ساغاي قائد أمان للعمليّة بحماسة بالغة.

وهكذا، ففي ١٥ آذار ـ مارس ١٩٨١، طارت ثماني قاذفات مقاتلة من طراز "F 16" الأميركيّة ترافقها ستّ مقاتلات معترضة من طراز "F 15" الأميركيّة أيضًا على مستوى كثبان الرمل، فعبرت الأردن قبل أن تندفع بسرعة البرق باتّجاه العراق،

حيث بلغت الهدف في اللحظة المحدّدة، في الساعة الخامسة وأربع وثلاثين دقيقة بعد الظهر بالتوقيت المحلّي، أي بعد دقائق قليلة من رحيل فريق الإنشاء الفرنسيّ. بلغ عدد الضحايا تسعة واستحال المصنع النوويّ أنقاضًا. وعادت الطائرات المغيرة سالمة[1].

بعدها، فازت كتلة ليكود في صناديق الاقتراع مرّة أخرى، وفاز بيغن بولاية ثانية كرئيس للوزراء.

وقد تبيّن أنّ وجهة نظر بيغن حول ردود الفعل الدوليّة كانت في محلّها. وثبت أنّ التحذيرات البائسة من جانب بيريز وغازيت وإسحق حوفي رئيس الموساد كانت خاطئة.

لم تعان إسرائيل سوى من أضرار دبلوماسيّة محدودة، ومردّ ذلك بدرجة كبيرة إلى أنّ الأميركيّين والسوفيات شعروا بالارتياح ضمنًا من جرّاء تسوية برج بابل النوويّ للعراق بالأرض. فالدولتان الأعظم، في ذلك التاريخ، لم تعلّقا كثيرًا على الغارة. والأهمّ من ذلك أنّ الرئيس الاشتراكي الجديد لفرنسا "فرنسوا ميتران"، استخدم الهجوم كذريعة لخفض التعاون النوويّ مع العراق. وقرّرت فرنسا عدم التعويض على العراق عن المفاعل النوويّ الذي دمّرته إسرائيل.

---

١ ـ طوماس غوردون، إنحطاط الموساد، ص١٨٠ ـ ١٨٢؛ رافيف دان، وميلمان يوسي، أمراء الموساد، ص٢٦٢ ـ ٣٦٤.

دورُ قمَر التجسُّس الأميركيّ KH-11 في الإغارة على تمُّوز

قرّر الرئيس الأميركيّ جيمي كارتر تزويد إسرائيل صورًا يلتقطها القمر الصناعيّ KH-11 في آذار ـ مارس ١٩٧٩، فقد سُمح لإسرائيل باستخدام لغة الوصول إلى معلومات محدّدة من قمر التجسّس، غير أنّ المعلومات التي سمح لإسرائيل باستقائها من قمر التجسّس لم تكن تشمل سوى الدول المحيطة بإسرائيل: لبنان وسوريا والأردن ومصر، كما نصّ الاتّفاق على عدم حقّ إسرائيل بالاستفادة من صور القمر لأغراض هجوميّة. إلاّ أنّه كان لإسرائيل بالفعل، كما اعتقد البريطانيّون، نوايا مبيّتة في محاولاتها الدؤوبة للوصول إلى كلّ المعلومات للـ KH-11. على أنّ هذه النوايا لم يكتشفها بعض أعضاء إدارة الرئيس رونالد ريغن إلاّ في خريف ١٩٨١، فقد بدأت الخيوط تتجلّي بعد شنّ الغارة على مفاعل "التويثة" النوويّ في العراق.

ويروي مؤرّخون أنّه بعد ظهر يوم أحد في أوائل حزيران ـ يونيو ١٩٨١، كان "ريتشارد ف. ألن" مستشار الرئيس رونالد ريغن لشؤون الأمن القوميّ، جالسًا بهدوء على الشرفة المشمسة في منزله في ضواحي فيرجينيا يحتسي الشاي المثلّج ويتصفّح البرقيّات التي لم يقرأها طوال الأسبوع، والتي كان عدد كبير منها مصنّفًا "في غاية السريّة".

إتّصل به مساعد في غرفة الأزمات في البيت الأبيض، وهي غرفة يشغلها موظّفون ٢٤ ساعة يوميًا، لينبئه بأنّ الإسرائيليّين أبلغوا واشنطن أنّهم قصفوا مفاعل

تمّوز النوويّ العراقيّ بنجاح، وهو يقع على بعد ٢٠ كلم جنوبي بغداد. فاتّصل ألن على الفور بريغن الذي كان يقضي عطلة نهاية الأسبوع في المنتجع الرئاسيّ في كامب ديفيد في جبال "كاثوكتين" المجاورة لـ"ماريلاند". فقيل له إنّ الرئيس استقلّ لتوّه طوّافة عائدًا إلى البيت الأبيض. فأمرهم ألن قائلاً: "دعوه يهبط". كانت هذه أوّل أزمة تواجهها الإدارة الجديدة في الشرق الأوسط. تناول الرئيس سمّاعة الهاتف في مؤخّرة الطوّافة وسط هدير المحرّكات والمراوح.

- سيّدي الرئيس، لقد أغار الإسرائيليّون لتوّهم على مفاعل نوويّ في العراق بطائرات F-16.

وكان قد سُمح لإسرائيل التي تمكّنت عام ١٩٧٥ من شراء ٧٥ مقاتلة من طراز F-16 بفضل تسليفات أميركيّة طويلة الأجل بفائدة مخفّضة، باستخدام هذه الطائرات "لأغراض دفاعيّة فقط".

- ما هي معلوماتك عن الغارة؟

- ليست لديّ معلومات سيّدي الرئيس. إنّني أنتظر تقريرًا عنها.

- ما الذي حملهم برأيك على شنّ الغارة؟

بقي السؤال من دون جواب لمدّة من الوقت. ثمّ أضاف الرئيس: "الولد يبقى ولدًا ولو حكم بلدًا".

في صباح اليوم التالي، عقد ريغن اجتماعًا مع كبار مساعديه، إستنادًا إلى ألن، إقترح فيه وزير الدفاع "كاسبار واينبرغر" إلغاء عمليّة بيع مقاتلات الـ F-16 إلى إسرائيل. فيما اعتبر آخرون مشاركون في الاجتماع مثل جورج بوش الأب نائب الرئيس وجايمس بيكر رئيس أركان البيت الأبيض، أنّ اتّخاذ بعض

العقوبات بحقّ إسرائيل أمر أساسيّ. فرمق ريغن ألن بنظرة وأوضح أنّه لا ينوي اتّخاذ خطوة كهذه.

لم تعكس التحرّكات العلنيّة للإدارة الأميركيّة قبول الرئيس الشخصيّ للغارة. فقد أصدرت وزارة الخارجيّة الأميركيّة بعد ظهر ذلك اليوم بيانًا قيل إنّه حظي بموافقة الرئيس ووزير الخارجيّة "ألكسندر هيغ"، دانت فيه الغارة رسميًّا، "فليس من شأنها إلاّ أن تزيد من حدّة توتّر الوضع السائد في المنطقة". ويتذكّر ألن قائلاً إنّ الرئيس كان رغم ذلك مسرورًا... وراضيًا تمامًا "عن الغارة التي شُنّت على مفاعل تمّوز النوويّ". فقد أظهرت أنّ للإسرائيليّن مخالب وحسًّا بالاستراتيجيّة، وأنّهم قادرون على معالجة المشاكل قبل تفاقمها. وفي مطلق الأحوال ما هو الضرر الذي ألحقته إسرائيل؟ هذا ما كان يقوله هيغ في مجالسه الخاصّة.

أثارت الغارة الإسرائيليّة موجة احتجاج عارمة في كلّ أنحاء العالم. وبعد أيّام قليلة أعلن البيت الأبيض تجميد تسليم أربع مقاتلات F-16 متبقّية من أصل الطائرات التي تمّ الاتّفاق على بيعها لإسرائيل عام ١٩٧٥. لكن لم ينقضِ شهران حتّى برز الوجه الحقيقيّ لسياسة الإدارة الأميركيّة من دون إثارة أيّ ضجّة، إذ رُفع الحظر المفروض وسُلّمت المقاتلات من دون أيّ حادث يُذكر[١].

---

١ ـ هيرش سيمور م.، خيّار شمشوم، ص١٤ ـ ١٦.

محَاولَة حرمَان مصر من الطاقَة النويّة

قدّمت مصر مشروعًا للإستخدام السلميّ للطاقة النوويّة لمواجهة إشكاليّات استهلاك الكهرباء وارتفاع أسعار البترول، وللإستفادة من علماء الذرّة في مصر، بالمساهمة في حلّ المشاكل الاقتصادية.

عندما بدأت مصر في التفاوض مع كندا حول هذا المشروع، قامت إسرائيل بتحريك العناصر الصهيونيّة في الأجهزة الإعلاميّة لإثارة معارضة الحكومة الكنديّة من خلال التظاهرات لمنع إتمام توقيع الاتّفاق في هذا المجال، وبالرغم من ذلك فقد حققت مصر انتصارًا وتمكنّت من توقيع اتفاقيّة التعاون النوويّ مع كندا.

كما فشلت إسرائيل في الحيلولة دون توقيع مصر اتفاقات دوليّة حول الاستخدام السلميّ للطاقة النوويّة، وبدأت في وضع العراقيل للحيلولة دون تنفيذ هذه الاتفاقيّات عن طريق عملائها في "البنك الدولي للاستيراد والتصدير الأميركي" لتؤكد للبنك على ضرورة منع مصر من الدخول في هذا المجال، فقام البنك بإصدار بيان يعلن فيه أنّ مصر مفلسة واقتصادها منهار ولا تستطيع كدولة أن تقوم بإنشاء وتشغيل هذا المشروع العملاق، كما أوعز البنك الغنيّ بالعناصر الصهيونية إلى باقي البنوك العالميّة بعدم المغامرة في تمويل هذا المشروع. وسارعت مصر إلى التأكيد على سلامة موقفها الاقتصاديّ الذي لا يُعدّ منهارًا، وإنّما يعاني من المشاكل مثل أيّ اقتصاد في أيّ دولة أخرى، وقد أقنعت مصر الإدارة الأميركيّة بسلامة موقفها الاقتصاديّ. إلاّ أنّ إسرائيل ما زالت تسعى لحرمان مصر من الدخول في عصر الذرة[1].

---

١ ـ صالح محمود عابدين، المخابرات والأمن والجاسوسيّة، ٣٨٣.

إريِيل شَارُون ورافي إيتَان وبنيَامين بلُومبُيرغ وإسحق حُوفي

وُلد "شارون" في عام ١٩٢٨ تحت إسم "إرييل شينرمان" في مزرعة تقع في شمال تلّ أبيب، وشبّ على التعاليم الاشتراكيّة. وفي وقت لاحق، اختار لنفسه إسم "شارون"، وظلّ في أحضان حركة العمل المسيطرة على الصهيونيّة. والمقول إنّ إرييل شارون قد أظهر شجاعة ومهارة فائقتين في خلال خدمته العسكريّة الإلزاميّة، وقرّر أن يسلك في سلك الجيش.

جرح شارون في حرب ١٩٤٨، ولكنّه في عام ١٩٥٣ ساعد في تشكيل "القوّات الخاصّة الإسرائيليّة" بوصفه رئيسًا لـ"الوحدة ١٠١" الشهيرة ومرهوبة الجانب، وهي طليعة القوّات الخاصّة التي تشكّلت في ما بعد.

كانت "الوحدة ١٠١" مخصّصة للردّ على الهجمات الفلسطينيّة المناضلة، والتي تسمّيها إسرائيل بالإرهابيّة. ووكانت تلك الوحدة تتألّف من ٤٥ رجلاً، واستمرّت قائمة لمدّة قصيرة. ويقول شارون في ذلك: "إنّ خمسة شهور كانت كافية ليكون لها تأثير أساسيّ على جهود الدولة للقضاء على الإرهاب".

ويضيف شارون، الذي قاد رجاله عبر الحدود إلى داخل الدول العربيّة للردّ على الغارات: "كانت لدينا مجموعة مستعدّة للردّ على الهجوم".

كان جنود "الوحدة ١٠١" يتّسمون بالخشونة وصلابة العود، والانبهار بشارون. ويتمثّل أسوأ هجماتهم سمعة في الهجوم ضدّ قرية "قبية" الأردنيّة ليلة الرابع عشر من

شهر تشرين الأول ـ أكتوبر ١٩٥٣. فردًا على مقتل امـرأة إسرائيليّة، دخلت "الوحدة ١٠١" القرية، يساندها بعض القوّات، ومعها كميّة هائلة من المتفجّرات. وهرب معظم سكّان قبية البالغ عددهم نحو ألف وخمسمائة نسمة قبل أن يسوّي الإسرائيليّون قرابة خمسين منزلاً بالأرض. وأدّت المتفجّرات إلى مصرع ٦٩ رجلاً وامرأة وطفلاً كانوا يختبئون في بيوتهم.

بعد مرور سنوات على الغضب العالميّ الذي أثاره هذا العمل الشنيع، قال شارون إنّها كانت مأساة غير مقصودة، ولم يكن القصد أنّ يفقد المدنيّون أرواحهم...

عجّلت الإدانات من الأمم المتّحدة وغيرها بقيام جيش إسرائيل بحلّ "الوحدة ١٠١"، وجعلها جزءًا من قوّات المظلاّت.

ومهما كان الأمر، فقد ذاع صيت شارون، ورُقّي إلى منصب قائد قوّات المظلاّت، وأصبح المرشّح الأوّل لمنصب رئيس أركان الجيش.

كانت قوّاته المظليّة تفعل ما هو أكثر بكثير من مجرّد القفز من الطائرات بواسطة المظلاّت... ووصف شارون جنوده بأنّهم رجال حرب عصابات لمكافحة الإرهاب، ومقاتلين غير تقليديّين، وقد تولّوا عام ١٩٧١ مهمّة القضاء على ما يُسمّى الإرهاب في قطاع غزّة المحتلّ، حيث تنكّر الإسرائيليّون بصفة منتظمة في زيّ عربيّ، وتظاهروا بأنّهم فدائيّون، ليتمكّنوا من اختراق خلايا المقاومة الفلسطينيّة. وفي غضون سبعة شهور، وعلى حدّ حسابات شارون نفسه، قتل رجاله ١٠٤ من الفلسطينيّين، وقبضوا على ٧٤٢ آخرين، لكنّ شارون لم يتمكّن أبدًا من أن يحصل على أعلى منصب في الجيش: رئاسة الأركان.

فعلى الرغم من أنّه فاز بالسطوة على مجموعة من أصدقاء عمره، إلاّ أنّه احتكّ بأناس آخرين عديدين بطريقة خاطئة. ونتيجة شعوره بخيبة الأمل، استقال شارون من

الجيش، وكان ذلك بالمصادفة قبل مجرّد ثلاثة شهور من حرب "يوم الغفران" أو "يوم كيبور" عام ١٩٧٣.

عاد شارون بسرعة إلى الخدمة للمساعدة في التغلّب على نكسات إسرائيل الأولى في الحرب، وعبر بجسارة إلى غربي قناة السويس في قلب الأراضي المصريّة للتوصّل إلى وقف لإطلاق النار.

بعد ذلك وجّه شارون طموحاته وخبرته التكتيكيّة إلى الاشتغال بالسياسة.

كان لدى حزب العمل بالفعل كثرة من الجنرالات يقومون بأدوار بارزة، لذلك قرّر أنّه يمكن أنّ يحقّق ما هو أفضل في حزب سياسيّ يلعب فيه الدور الرئيسيّ. وهكذا وجد طريقه للانضمام إلى الحزب الليبيرالي الذي كان حزبًا يمينيًّا على الرغم من إسمه. وبطاقته اللامحدودة، سرعان ما أقنع شارون أحزابًا عديدة، والتي كانت آنذاك تشكّل معارضة يمينيّة مهشّمة، بالاندماج تحت سقف منظّمة واحدة أطلقت على نفسها إسم "ليكود"، وهو لفظ عبريّ يعني "التضامن" أو "الوحدة". وفي أقلّ من أربع سنوات، رأى شارون ابتكاره يفوز بتفويض الناخبين ليحكم إسرائيل.

بعد انتصار ليكود في انتخابات عام ١٩٧٧، دبّر شارون أساليب على جبهة البيروقراطيّة الحكوميّة، حيث أدرك بخلفيّته العسكريّة أهميّة السيطرة على مؤسّسة المخابرات والإشراف عليها. فالمخابرات تعني المعلومات، والمعلومات تعني السلطة. وأدرك الجنرال المتقاعد أنّ مخابرات إسرائيل دولة داخل الدولة، حيث تمارس سياستها الخارجيّة الخاصّة وتؤثّر في سياسات الدفاع والسياسات المحليّة. وقد اهتمّ شارون اهتمامًا كبيرًا بمثل هذه الاستقلاليّة الذاتيّة.

عندما علم شارون بأن مناحيم بيغن الذي أصبح رئيسًا للوزراء في عام ١٩٧٧ كان يخطّط لمنح مسؤوليّة وزارة الدفاع للجنرال "عازر وايزمن"، القائد السابق لسلاح

الطيران، والذي كان العقل الموجّه للحملة الانتخابيّة التي فاز فيها الليكود في تلك السنة. رشّح شارون نفسه لتولّي مسؤوليّة وزارة للمخابرات، دعا إلى استحداثها. وكانت اقتراحات مماثلة قد طرحت قبل حوالي اثني عشر عامًا، وتحديدًا في عام ١٩٦٦، عندما رشّح جنرال آخر هو "بيغال ألّون" نفسه للمنصب ذاته، لكنّ وزارة المخابرات لم تنشأ آنذاك.

كانت وجهة نظر شارون أنّ الوزارة ستصبح مسؤولة عن جميع وكالات المخابرات، بل ويمكن أن تستقلّ بوكالة المخابرات العسكريّة "أمان" عن وزارة الدفاع. إلاّ أنّ مناحيم بيغن رفض اقتراح شارون، ومنحه بدلاً من ذلك وزارة الزراعة.

في وزارة الزراعة، استغلّ "بطل الحرب" منصبه لشنّ هجومه الخاص، وهو إقامة مستوطنات يهوديّة في الأراضي المحتلّة، والتي وصفها بأنّها "حقائق على الأرض"، وكأنّه بهذا يتحدّى العالم الخارجيّ الذي يريد إزالة اليهود من الأراضي التي استولوا عليها.

وفي انتظار سنوح فرص أكبر، راقب شارون عن قرب الشجار القائم بين رئيس الوزراء مناحيم بيغن وبين أحيتوف رئيس شين بيت حول انفجارات السيّارات في الضفّة الغربيّة في الثاني من حزيرن – يونيو ١٩٨٠ التي استهدفت ثلاثة من العمد الفلسطينيّين الذين نجوا بأعجوبة، وهم "بسّام الشكعة" عمدة نابلس، و"كريم خلف" عمدة رام الله"، و"محمّد الطويل" عمدة البيرة، وقد أصيب هؤلاء إصابات أفقدت بعضهم أطرافهم. وكان أحيتوف يفكّر في الاستقالة، لقيام بيغن بإعاقة مطلبه لإجراء تحقيق أكثر تشدّدًا حول "الاندلاع الظاهر للإرهاب اليهودي". غير أنّ شارون الذي بقي صامتًا في العلن، كان يساند رئيس الوزراء مناحيم بيغن في موقفه، كما سانده ضدّ خصومه السياسيّين والمخابراتيّين في موقفه الداعي إلى ضرب مفاعل تمّوز النووي

في العراق عام ١٩٨١، ما جعل الليكود يفوز مرّة ثانية في الانتخابات الاسرائيليّة، وبيغين يعود إلى رئاسة مجلس الوزراء إثر تلك الانتخابات لولاية جديدة. وفي تلك الحكومة ألزم شارون مرّة جديدة بوزارة الزراعة وبقي كذلك لأكثر من عام، وبدلاً من أن يمنح بيغين وزارة الدفاع إلى شارون، تولّى بيغن بنفسه منصب وزير الدفاع بعد استقالة "عازر وايزمن" احتجاجًا على النهج العسكريّ الجديد. بينما كان شارون يطمح بشدّة إلى تولّي وزارة الدفاع. وفي إطار مواصلته لمقاومة مطمح شارون، ذكر بيغن بطريقة شبه مازحة، أنّ شارون سيطوّق مقرّ رئيس الوزراء بالدبّابات، في اليوم نفسه الذي سيعيّن فيه وزيرًا للدفاع.

غير أنّ بيغن عاد وأناط وزارة الدفاع بإرييل شارون. ولم يكن ذلك ليكفي شارون، فبطريقة أو بأخرى، كان ما زال راغبًا في السيطرة على مؤسّسة المخابرات. وقد استطاع أن يقنع بيغن بتعيين "رافي إيتان"، وهو صديق حميم لشارون، مستشارًا لرئيس الوزراء لشؤون مكافحة الإرهاب.

كان رافي إيتان رجل مخابرات متمرّسًا حقّق أكبر ضرباته الموفّقة بواسطة فريق الاختطاف الذي أمسك "أدولف آيخمن" في عام ١٩٦٠، كما سبقت الإشارة في فصل سابق من هذا الكتاب. وهو معروف في مؤسّسة الاستخبارات باسم "رافي كريه الرائحة". ولا يرجع ذلك إلى نشاطاته الكريهة ولكن لأنّه اضطرّ لأن يخوض في مياه الصرف الصحّي في خلال قيامه بمهمّة تخريبيّة لصالح البالماخ وضدّ البريطانيّين في فلسطين قبل عام ١٩٤٨.

ولد رافي إيتان عام ١٩٢٦ في كيبوتز "عين هارود" بفلسطين، وبعد أن ذهب إلى السينما مرّة مع أمّه، قال لها: "أريد أن أصبح جاسوسًا مثل ماتا هاري". وبعد عشرات السنين، كان من الأنسب أن يسمّى "جيمس بوند"، كما يقول بعض الباحثين. فقد حوّل

إيتان أحلام طفولته إلى واقع طفوليّ لأنّه نفّذ مهامًا سريّة لـ"الهاغاناه" وهو في سنّ الثانية عشرة.

جُرح إيتان في يوم نشوء دولة إسراعيل في الخامس عشر من أيّار ـ مايو ١٩٤٨، ثمّ التحق بوحدة مخابرات الجيش. وبعد حرب الاستقلال تمّ تجنيده بواسطة "إيسر هاريل" وخدم في قسم العمليّات المشتركة التابع لوكالتي شين بيت والموساد. والتحق بوكالة شين بيت منذ عام ١٩٥٠ وظلّ كذلك حتّى عام ١٩٥٣، ثمّ انتقل إلى الموساد حيث أصبح رئيسًا للعمليّات، وشارك عمليًّا في كلّ عمليّة من العمليّات التي قامت بها مؤسّسة المخابرات الإسرائيليّة. وعندما شُنق أيخمان في عام ١٩٦١، كان إيتان أحد شهود عمليّة الشنق في السجن. وقد وجّه مجرم الحرب النازيّ آخر كلماته إلى إيتان قائلا: "آمل أن تتبعني سريعًا".

في عام ١٩٧٢، أحسّ رافي إيتان بأنّه مضطرّ للاستقالة عندما علم أنّه لم تعد أمامه أيّ فرصة ليحلّ محلّ "زفي زامير" كرئيس للموساد. فقد كانت لإيتان خلافات حادّة على المستويَين العمليّ والشخصيّ مع زامير ومع خليفته إسحق حوفي عندما تمّ استدعاؤه للعمل كمستشار.

بدأ إيتان يشارك صديقه شارون الرأي في أنّ الموساد بحاجة إلى الإصلاح والترويض بل والإضعاف. وفي ١٩٧٢ عندما بلغ السادسة والأربعين، جرّب إيتان حظّه في عدّة أعمال تباينت من تربية الأسماك الإستوائيّة وحتّى التعامل في أرض الضفّة الغربيّة. لكنّه لم ينجح في ذلك، مثله مثل الكثيرين غيره ممّن حاولوا مبادلة العباءة والخنجر بالملابس المدنيّة. لذلك انتشل شارون صديقه القديم من الغرق في مزيد من الملل، وأعاده إلى خدمة الحكومة في عام ١٩٧٨ كخبير رسميّ في مكافحة الإرهاب، وهي وظيفة تنسيقيّة ذات سلطة محدودة، على هامش مؤسّسة المخابرات.

اكتشف شارون أيضًا، داخل وزارة الدفاع، الكنز المخابراتيّ المعروف باسم "لاكام": مكتب الاتّصال العلميّ، والذي لم يكن وجوده معروفًا سوى من قبل القليلين. وبوصفه رجلاً منظّمًا ودقيقًا، فإنّ شارون درس تاريخ لاكام في الملفّات السريّة للوزارة، ولاحظ كيف حوّلت الوكالة نفسها من مجرّد حامية لأمن مفاعل ديمونة لتقوم بدور أكبر في تدبير موادّ ذات شأن في عمليّة التسلّح الإسرائيليّ. وقد اعتبر العديدون داخل جهاز الدفاع والمخابرات "بنيامين بلومبيرغ" مدير لاكام عبقريًّا على الرغم من أنّ واجباته ونشاطاته لم تكن معروفة على وجه الدقّة. وعلى أيّ حال، لم يشعر شارون بالسرور لأنّه لاحظ أنّ لاكام أصبحت "إقطاعيّة خاصّة" تقدم على فعل كلّ ما تريد دون أن تحسب حسابًا لأحد. فعندما كان القادة البارزون في مؤسّسة المخابرات يطلبون بصفة دوريّة تقريرًا عن أعمال لاكام، فإنّ بلومبيرغ كان يتجاهلهم ببساطة. وقد منح موشي دايان عندما كان وزيرًا للدفاع وكالة الاتّصال العلميّ بالغة السريّة تأييده الكامل دون أن يريد على الإطلاق معرفة ما تقوم به بالضبط... وفوّض مساعده الجنرال "زفي تسور" المسؤوليّة عن لاكام. وقد أطلق الجنرال "تسور" الذي كان رئيسًا لأركان الجيش في بداية ستّينات القرن العشرين يد بلومبيرغ. وقد امتدّ هذا الموقف الليبيرالي إلى مدى أبعد عندما عاد شيمون بيريز لوزارة الدفاع سنة ١٩٧٤، بعد غياب دام أحد عشر عامًا، كوزير للدفاع ليحلّ محلّ دايان بعد الإذلال الذي لقيه الأخير في حرب يوم الغفران، أو يوم كيبور.

من بين القلّة من الإسرائيليّين التي كانت تعرف لاكام، فإنّ البعض شكا من أنّ بلومبيرغ كان متحيّزًا جدًّا لأصدقائه الذين كان يعطيهم المعلومات، ويكلّفهم بمهمّات أسهمت في جعلهم أغنياء، بل كانت هناك شائعات بغيضة مفادها أنّ رئيس لاكام ينتفع شخصيًّا، على الرغم من أنّ قلّة من الناس هي التي تشكّكت في أسلوب حياته

المتواضع. ومع ذلك، شعرت سلطات وزارة الدفاع أنّه يتعيّـن عليهـا فحص الشكاوى حول إدارة لاكام التي تثير الشكوك.

بعد تولّي مناحيم بيغن وكتلة ليكود اليمينيّة مقاليد السلطة في أيّـار ـ مـايو ١٩٧٧، ازدادت الجهود الرامية لفصل بلومبيرغ كثافة. ففـي عيـون الإدارة الجديـدة، كـان بلومبيرغ مرتبطًا بالمؤسّسة القديمـة لحزب العمل. خاصـّة بعد أن تشكّك البريغـادير جنرال "موردخاي تسيبوري" نائب وزير الدفاع الإسرائيليّ المنتمي إلـى ليكـود فـي أنّ بعض عمليّات لاكام تضمّنت نهب الأموال لصالح حزب العمـل... وسـعى إلـى إقنـاع "عازر وايزمن" بإقالة بلومبيرغ في عام ١٩٧٩، إسـتنادًا إلـى عـدم وجـود أيّ ضـوابـط عليه. وعقد وايزمن وزير الدفاع اجتماعًا وحصل على موافقة بلومبيرغ علـى أن يقـدّم له تقارير أكثر اكتمالاً وبصورة منتظمة أكثر.

قرأ شارون تاريخ لاكام ولستمع أكثر من ذلـك لمستشـارين عـدّة، وأخذ الشكاوى ضدّ بلومبيرغ بجدّية أكثر من سلفه وايزمن.

كان هناك ما هو أكثر من الشكاوى، فقد تقدّم موظّفـون فـي لاكـام بأدلّـة علـى أنّ الوكالة قد قامت بجمع أموال بطريقة غير مشروعة. ولم يكن شارون بحاجة إلى وقائع محدّدة لطرد بلومبيرغ، فقد خطّط وزير الدفاع الجديـد لأن يستبدله برجـل مـن رجالـه مناوئ لحزب العمـل بـأيّ وسيلة، والآن قـد أصبـح لديـه المبرّر. وفـي هـذا الإطـار، انتشرت الشكاوى كشائعات... ثمّ نمت لتصبح عمليّة تشويه وتلويث، وعلى الرغم مـن أنّها في معظمها كانت بـلا أسـاس، إلاّ أنّهـا جعلت إقالـة بلومبيرغ أمـرًا سـهلاً. وبعد مرور ثلاثين عامًا على عمل باومبيرغ فـي مؤسّسـة المخـابرات، مـن بينهـا أكثر مـن عشرين عامًا كرئيس للاكام، كـان مـن الطبيعـيّ أن يثـير رحيلـه عـن موقعـه فـي عـام ١٩٨١ عاصفة هائلة داخل مؤسّسة المخابرات فقط، حيث أنّ الصحافة الإسرائيليّة لـم

تشر إليه على الإطلاق ولو لمرّة واحدة. وسرعان ما كلّف شارون صديقه رافي إيتان بأن يصبح مسؤولاً عن لاكام لفرض النظام وفرض إرادته. ولمرّة الأولى منذ أيّام "روفين شالوح"، والشهور التسعة التي أمضاها "مائير عميت"، أصبح مسؤول كبير في مؤسّسة المخابرات لا يشغل منصبين فحسب، بل ويتبع رئيسين. فإيتان بوصفه مستشارًا لرئيس الوزراء في شؤون مكافحة الإرهاب، أصبح يخضع لرئاسة بيغن، وبوصفه رئيس لاكام أصبح تحت رئاسة شارون. وهكذا فإنّ الإنقلاب في لاكام كان خطوة هامّة في إطار جهود شارون ليصبح الشخصيّة المسيطرة في مؤسّسة المخابرات والأمن الإسرائيليّة. غير أنّ منظّمتين مستقلّتين وقفتا في طريقه، هما الموساد وشين بيت. وقد وعى شارون أنّ أيّ رئيس وزراء لن يوافق على السماح له بالإشراف الوزاريّ المباشر على هاتين الوكالتين، لكنّه كان يأمل في إقناع بيغن بتغيير رئيسيهما. وكان شارون مهتمًّا بصفة خاصّة بإبعاد إسحق حوفي عن الموساد.

لم يكن منبع العداوة بين شارون وحوفي خلافاتهما الأساسيّة حول السياسة والدفاع ودور المخابرات فقط، لكنّه يعود أيضًا إلى العداء المتبادل الخفيّ بينهما والذي يرجع إلى أعوام عديدة ماضية.

ففي أعقاب حملة السويس عام ١٩٥٦، تمرّد قادة أربع كتائب في لواء المظلاّت ضدّ قائدهم البريغادير كولونيل إرييل شارون، وكان قائد المتمرّدين نائبه اللفتنانت كولونيل إسحق حوفي...

كان هؤلاء الذين تمرّدوا قد أشاروا إلى جبن قائدهم، وقالوا إنّ شارون لم يقد رجاله إلى المعركة، كما يعظ هو دائمًا بأنّ ذلك هو واجب القائد. وزعموا أنّه بدلاً من ذلك فضّل البقاء في المؤخّرة. ولجأ شارون والمتمرّدون إلى ضابطين محايدين لتسوية نزاعهم، لكنّ المحكّمين توصّلا إلى نتائج متضاربة، ولم يتّفقا على قرار. وقد ظلّت

هذه الحادثة الغريبة سرًّا لسنوات عديدة، لكنّ شارون مشهور بأنّه يتمتّع بذاكرة فيل، ولم ينس عصيان حوفي... واعتزم شارون أن يقتنص فرصة عمره لتسوية حسابه القديم مع حوفي. وزاد التدمير بعيد المدى للمفاعل النوويّ العراقيّ من فرصه ليفعل. فقد ضايق حوفي بيغين بمعارضته للغارة على بغداد...

غير أنّ رئيس الموساد لم يكن خائفًا من شارون بأيّ شكل من الأشكال، ذلك أنّ حوفي كان واعيًا أنّه في غضون اثني عشر شهرًا، سيكمل ثمانية أعوام في الموساد، وهي أطول مدّة ظلّ فيها أيّ شخص على قمّة الوكالة منذ عهد إيسر هاريل، وكان أوان التقاعد يقترب، وبدلاً من أن يتّخذ حوفي موقفًا دفاعيًّا بيروقراطيًّا بدأ في هجوم محموم لم يسبق له مثيل.

ففي الثامن عشر من حزيران - يونيو ١٩٨١، أدلى حوفي بحديث إلى صحيفة "هاآرتس" الإسرائيليّة بوصفه رئيس الموساد مجهول الهويّة دون أن يسعى للحصول على تصريح من بيغن. وحذّر رئيس الموساد في تصريحه الساسة الإسرائيليّين من مواصلة الإفراط في الحديث لينسبوا إلى أنفسهم الفضل في الغارة الجويّة على المفاعل النوويّ العراقيّ...

وعلى الرغم من أنّ إسم حوفي لم يذكر وفقًا للقانون الإسرائيليّ، إلاّ أنّ تصريحاته قد سجّلت المرّة الأولى في تاريخ إسرائيل التي يجري فيها رئيس للموساد مقابلة صحافيّة. وقد ادّعى رئيس الموساد أنّ تسريب المعلومات المتكرّر للصحافة حول قصف بغداد يحدث ضررًا بالغًا، ومن المحتمل أن يؤثّر على مصادر المعلومات وعلى الروابط مع أطراف خارج إسرائيل.

أثارت المقابلة الصحافيّة تفسيرات وتخمينات حول من الذي يقصده رئيس الموساد بالتحديد. وقد أجاب على ذلك عدد من الصحافيّين الذين يعدّون من أوثق أصدقاء

حوفي قائلين إنّه كان يشير إلى شارون وإلى الكاتب الصحافيّ "يوري دان" وهو واحد من أوثق أصدقاء الوزير المثير للجدل.

وكما هو متوقّع، ردّ شارون على حوفي بنفس الطريقة، فقد نشر دان هجومًا قاسيًا على رئيس الموساد مجهول الإسم في صحيفة معاريف المسائيّة، مدّعيًا أنّ المقابلة الصحافيّة التي أجراها زوّدت حزب العمل المعارض بذخيرة من المعلومات الهامّة وأنّ رئيس المخابرات قد اعتزم تحقيق الهدف المحدّد التالي: خدمة حزب العمل الذي عيّنه في موقعه. وادّعى دان أيضًا أنّ حوفي على اتّصال مستمرّ بزعماء المعارضة، وأنّه سرّب الأسرار لهم، وضلّل رئيس الوزراء بعد إمداده بمعلومات دقيقة حول المفاعل النوويّ العراقيّ. ودعا دان رئيس الوزراء مناحيم بيغن بوضوح إلى طرد رئيس الموساد من منصبه. غير أنّ رئيس الوزراء رفض الاستجابة إلى دعوة يوري دان رغم معرفته أنّ شارون هو القوّة الكامنة خلف كتابة هذا المقال، ورغم أنّ بيغن نفسه ثار غضبه بسبب الحديث الصحافيّ لحوفي دون موافقة السلطات المعنيّة. واعتبر العامود الذي كتبه يوري دان في صحيفة معاريف إنفعاليًا ومتحيّزًا للغاية، ومثيرًا للشقاق السياسيّ بدرجة كبيرة. وقد أدّى ذلك إلى استياء المسؤولين عن التحرير في صحيفة معاريف، كما تخلّى يوري دان عن عمله في الجريدة في سبيل وظيفة جديدة هي: المستشار الصحافي لشارون والمتحدّث باسم وزارة الدفاع.

ظلّ حوفي رئيسًا للموساد على رغم أنف شارون الذي أدرك، بوصفه بارعًا ومتمرّسًا في التكتيك العسكريّ، أنّ أهدافه لن تتحقّق عن طريق هجوم مباشر، وغيّر منهجه لصالح الاستراتيجيّة غير المباشرة. وأسهم في إنشاء "منابر" متعدّدة أغلبها معاقل للفكر غير رسميّة تضمّ مسؤولي الحكومة ومواطنين عاديّين. وقد أشار المعارضون السياسيّون إلى تلك الاجتماعات، التي كانت تعقد في مكتب وزير الدفاع

في تلّ أبيب، بوصفها "غرفة حرب" أو "بلاط إريك"، وإريك هو لقب يطلق على إرييل شارون. وكان من بين المشاركين في تلك الاجتماعات التي أصبحت بسرعة أداة مؤثّرة، رافي إيتان، و"ريحافيا فاردي" وهو عميل سابق للموساد عيّنه شارون كمنسّق للحكومة في الأراضي المحتلّة، والميجور جنرال "أفراهام تامير" مساعد الوزير للتخطيط والاستراتيجيّة، و"يعقوب نيمرودي" وهو تاجر أسلحة خاصّة وعضو قديم في أمان، و"ديفيد كيمحي" العميل المتمرّس في أفريقيا، الذي قفز ليحصل على ثاني أكبر وظيفة في الموساد قبل أن يصبح المدير العام لوزارة الخارجيّة. وكان كيمحي يحضر هذه الاجتماعات من حين لآخر. وكان كيمحي، على مدى ربع قرن، ومنذ اليوم الذي انضمّ فيه إلى الموساد عام ١٩٥٦ كأكاديمي بريطانيّ المولد، يحلم دائمًا برئاسة الوكالة[1].

إلاّ أنّ جامعًا مشتركًا قد قرّب في النهاية بين شارون وحوفي، هو اتّفاق وجهتي نظرهما بالنسبة لاجتياح الأراضي اللبنانيّة، وهذا ما أبقى كيمحي حتّى نهاية ولايته، حيث خلفه ناحوم عدموني. ولكن قبل ذلك التاريخ، كان شارون قد نفّذ خطّته باجتياح الأراضي اللبنانيّة.

---

١ ـ رافيف دان، وميلمان يوسي، أمراء الموساد، ص٣٥٦ ـ ٣٥٩، ٣٦٥ .

إسرائيل تجتاح نصف لبنان

يقول باحثون إنّه على الرغم من انغماس وزير الدفاع الإسرائيليّ إرييل شارون في العديد من المخطّطات المركّبة، إلاّ أنّه كرّس معظم اهتمامه لتحقيق هدف استراتيجيّ أكثر قربًا من إسرائيل، وهو خلق لبنان جديد على الحدود الشماليّة لإسرائيل.

عقد شارون العزم على تدمير البنية الأساسيّة لمنظّمة التحرير الفلسطينيّة في جنوب لبنان، والتي اعتبرتها إسرائيل "دولة إرهابيّة داخل دولة" على حدّ كلمات صنّاع السياسة الاسرائيليّة. وبعد سلسلة من الهجمات الفدائيّة المؤلمة والهجمات بالصواريخ ضدّ البلدات والمزارع الإسرائيليّة في شمال الجليل، والتي ردّت عليها إسرائيل بغارات جويّة أو قصف مدفعيّ، وافق بيغن على مضض، في تمّوز ـ يوليو ١٩٨١، على وقف لإطلاق النار مع منظّمة التحرير الفلسطينيّة تمّ التوصّل إليه تحت إشراف أميركيّ. إلاّ أنّه كان واضحًا أنّ ذلك الاتّفاق كان موقّتًا وهشًّا. وواصلت الجماعات المنشقّة الفلسطينيّة هجوماتها على القوّات الإسرائيليّة، ما استحثّ الجيش والطيران على الردّ.

كان رئيس الوزراء الإسرائيليّ وإيرييل شارون وزير الدفاع يكنّان كراهية شديدة لمنظّمة التحرير الفلسطينيّة، التي كانا يعتبرانها "جماعة من القتلة تسعى لتدمير إسرائيل". وشبّه بيغن ياسر عرفات علنًا بأدولف هتلر. وبدا واضحًا أنّ مهاجمة

إسرائيل للمعاقل الفلسطينيّة في لبنان مجرّد مسألة وقت. وكانت التساؤلات الوحيدة هي متى سيقوم الإسرائيليّون بالهجوم، وما هو اتّساع عمليّتهم، ومدى طموحها[1].

لقد سهّلت الحرب اللبنانيّة الداخليّة على الإسرائيليّين عمليّة الاجتياح. فبنتيجة القتال البالغ الدمويّة الذي نشب بين الفلسطينيّين والمسيحيّين في لبنان، تمكّنت إسرائيل من اختراق شريحة كبرى من المجتمع اللبنانيّ الذي رأى نفسه مضطرًّا إلى التعامل مع إسرائيل للدفاع عن وجوده. تلك الشريحة كانت أكثريّتها من المسيحيّين في لبنان. وقد ظلّ الموساد وأمان على اتّصال وثيق ببعض الميليشيات المسيحيّة في لبنان على مدى ستّة أعوام. وقد بدأت الاتّصالات الأولى عندما خشي الزعماء المسيحيّون أن يفقدوا سيطرتهم التي يتمتّعون بها في بلادهم. وشكّل منافسوهم المسلمون ائتلافًا مع اللاجئين الفلسطينيّن الكثيرين في لبنان، لزيادة قوّتهم وتأثيرهم وهم يطالبون بنصيب أكبر من الفطيرة السياسيّة... وكان شارون مصمّمًا على أنّ الوقت حان لتنفيذ خطّته لتغيير مجرى التاريخ. وفي الواقع، إتّفق لأوّل مرّة حول وجهة نظر واحدة وزير الدفاع إرييل شارون ورئيس المخابرات إسحق حوفي الذي رأى أنّ خطّة شارون يمكن أن تنجح.

عندما أدرك الجنرال ساغاي رئيس جهاز أمان أنّه قد خسر المعركة البيروقراطيّة الداخليّة لمعارضته اجتياح الأراضي اللبنانيّة، وافق على أن يكون المسؤول عن إطلاع الأميركيّين على ما يجري، وهم أهمّ حلفاء إسرائيل. وفي خلال زيارته إلى واشنطن في نهاية كانون الثاني ـ يناير ١٩٨٢، أبلغ رئيس المخابرات العسكريّة الإسرائيليّة وزير الخارجيّة الأميركيّة ألكسندر هيغ أنّه في حال استمرار الاستفزازات الفلسطينيّة

---

١ ـ رافيف دان، وميلمان يوسي، أمراء الموساد، ص ٣٨٢ ـ ٣٨٣.

من الأراضي اللبنانيّة، لن يكون أمام إسرائيل أيّ خيار سوى غزو لبنان حتّى أطراف بيروت. وطار شارون إلى واشنطن بعد بضعة شهور ليكرّر التحذير نفسه.

في الثالث من حزيران ـ يونيو ١٩٨٢، أطلق فلسطينيّون الرصاص على "شلومو أرغوف" سفير إسرائيل لدى لندن، وأصابوه بعاهة مستديمة، بعد أن نصبوا له كمينًا لدى مغادرته لحفل دبلوماسي. وكان المسلّحون ينتمون إلى جماعة أبو نضال المنشقّة عن منظّمة التحرير الفلسطينيّة. ولكنّ شارون اعتبر محاولة الاغتيال عود الثقاب الذي أشعل الفتيل. وبعد مرور ثلاثة أيّام على الحادث، وتحديدًا في السادس من حزيران ـ يونيو ١٩٨٢، أرسل شارون قوّاته لتعبر الحدود مع لبنان، وكانت تلك هي الحرب الثالثة التي أشعلتها إسرائيل، ويقول باحثون محايدون إنّ تلك الحرب تحوّلت لتصبح "واترلو شارون".

فكما سبق أن حذّرت أمان، لم تساعد القوى المسيحيّة الإسرائيليّن في قتال منظّمة التحرير الفلسطينيّة، ورفض زعيم القوّات اللبنانيّة الشيخ بشير الجميّل في وقت لاحق توقيع معاهدة سلام مع إسرائيل، وما لبث أن انتخب رئيسًا للجمهوريّة اللبنانيّة، لكنّه اغتيل قبل تسلّم مهامّه. وكذلك فعل شقيقه الذي انتخب بديلاً عنه رئيسًا للجمهوريّة اللبنانيّة، برفضه إبرام معاهدة سلام مع إسرائيل. وغرق شارون في عمق المستنقع اللبنانيّ.

يقول باحثون إنّ الهدف المعلن للاجتياح الإسرائيليّ للبنان عام ١٩٨٢، كان القضاء على مواقع المدفعيّة والصواريخ الفلسطينيّة التي كانت تهدّد المدنيّين في شمال إسرائيل. وأُطلق على الغزو رسميًّا إسم "عمليّة السلام من أجل الجليل". وقد تحدّدت الآمال الأعرض لزعماء إسرائيل في أنّ إلحاق هزيمة صاعقة بمنظّمة التحرير الفلسطينيّة سيقوّض الإرتباط الذي يحسّ به الفلسطينيّون في الضفّة الغربيّة وقطاع

غزّة تجاه المنظّمة. وكان بيغن يتمنّى أن يدعم قبضة إسرائيل في الأراضي المحتلّة، في الوقت الذي يعرض فيه على السكّان العرب شكلاً من أشكال الاستقلال الذاتيّ كما وعد في معاهدة السلام مع مصر، لكنّ منظّمة التحرير الفلسطينيّة رفضت الاستقلال الذاتي رفضًا تامًّا، وأصرّت على إقامة دولة. فتطلّع بيغن إلى تشجيع الزعماء الفلسطينيّين البدلاء المستعدّين للعمل مع الإسرائيليّين. أمّا تطلّعات شارون، فكانت أكثر طموحًا. وأمر دبّاباته بمواصلة القتال والتقدّم حتّى تصل إلى ضواحي بيروت. وهناك تنضمّ إلى القوّات المسيحيّة اللبنانيّة وتساعدها في فرض قانونها ونظامها في لبنان... غير أنّ حساب الحقل كان غير حساب البيدر، ذلك أنّ القوّات المسيحيّة اللبنانيّة قد رفضت القيام بهذا الدور.

في الواقع، مع تطوّر الحرب اللبنانيّة لتصبح أكثر دمويّة، فإنّ وعود شارون الأولى بحرب خاطفة سريعة تراجعت لتفسح الطريق لواقع أرض محتلّة تمتدّ بين الحدود الشماليّة لإسرائيل وبيروت، وهي منطقة تمتلئ بالفلسطينيّين والفوضى، وكان من المتعيّن السيطرة عليها.

تولّى أفراهام شالوم رئيس شين بيت مهمّة الانتشار في لبنان، في الوقت نفسه، أصبحت القرى الشيعيّة الجنوبيّة مركزًا لمقاومة الاحتلال الإسرائيلي. وبدأت الشاحنات الملغومة مهاجمة الوحدات الإسرائيليّة في الجنوب. ولم تكن شين بيت مستعدّة بأيّ شكل لمثل هذا النوع من المواجهات. كان لشالوم ورجاله خبرة بالفلسطينيّين في الضفّة الغربيّة وغزّة الذين لم يكونوا سعداء للعيش في ظلّ الاحتلال الإسرائيلي منذ ١٩٦٧، لكنّهم لم يتطوّعوا أبدًا لنسف أنفسهم للإعلان عن موقفهم.

كان أفراهام شالوم قد انضمّ إلى شين بيت بعد أن أمضى مدّة قصيرة كعضو في أحد الكيبوتزات ومدّة أخرى كجندي. وقد أراد دائمًا الانتماء إلى النخبة الإسرائيليّة من

الروّاد التي ارتبطت حياتها بالسلطة والساسة والتطوّع لخدمة إسرائيل، أولئك الذين لا يستطيعون الحياة بدون وطنهم إسرائيل، ولا تستطيع إسرائيل على ما يبدو أن تكون موجودة بدونهم.

ولد أفراهام شالوم في عام ١٩٢٩ تحت إسم "أفراهام بندور" لأبوين انتقلا من ألمانيا إلى فلسطين بعد تولّي أدولف هتلر مقاليد السلطة في ألمانيا. وفي تلّ أبيب، كما في برلين، حاول أبواه تعليمه تعليمًا بورجوازيًّا يستطيع من خلاله أن يصبح رجل أعمال ألمانيًّا ـ يهوديًّا ناجحًا، ولكنّ أفراهام فضّل القيم الإشتراكيّة، وانضمّ إلى أحد الكيبوتزات. ودفعته حرب ١٩٤٨ إلى الالتحاق بالجيش، حيث لفت انتباه "إيسر هاريل" وطلب ضمّه إلى شين بيت، وقام بتجنيده بالفعل.

تميّز شالوم بروح الجنديّ الذي يكرّس نفسه لأيّ مهمّة يقوم بها حتّى ولو كانت مجرّد تمارين للتدريب، هذا بالإضافة إلى مواهبه في اللغتين الإنكليزيّة والألمانيّة، وكان دائمًا هادئًا، على خلق، بارد المظهر، ومع ذلك يبدو دائمًا غاضبًا ومستاء دون أن يعرف أحد سرّ ذلك. وخلال ٣٥ عامًا من العمل في شين بيت، شارك شالوم في معظم العمليّات الهامّة، ومن بينها المهمّة المشتركة مع الموساد لاختطاف أدولف أيخمن في الأرجنتين. فقد كان شالوم دائمًا رجل عمليّات ميدانيّة، وقد أقام علاقة عمل وثيقة مع "يهودا إربيل"، وقاما معًا بشنّ العديد من الهجمات السريّة ضدّ الفدائيّين الفلسطينيّين. وظلّ ذلك هو ما يركّز عليه شالوم بعد أن أصبح رئيسًا لوكالة شين بيت عام ١٩٨١، بدلاً من أفراهام أحيتوف.

في صيف ١٩٨٢، اتّخذت وحدات الجيش الإسرائيلي مواقع دفاعيّة حول بيروت، وسيطر سلاح الطيران الإسرائيليّ على الأجواء لمنع أيّ محاولات للتدخّل من جانب الطائرات الحربيّة والصواريخ السوريّة. وبدأت شين بيت في إنشاء أنظمة للقانون

والنظام في جنـوب لبنـان. فـي الوقت نفسـه، بـدأت معركـة بيروقراطيّـة عندمـا التقـى عملاء شين بيت بإسرائيليّ منافس هو رافي إيتان الذي كـان يقـود سيّارة فـي المنطقـة ويقوم بالتفتيش على عملهم بوصفه مستشارًا لرئيس الـوزراء لمكافحـة الإرهـاب. وقد كان إيتان هناك جزئيًّا لأنّ شارون اعتمد عليه كصديق مخلص في مراقبة شين بيت.

في هذه الأثناء، كان بشير الجميّل رئيس الميليشيا المسيحيّة فـي لبنـان قد انتُخب رئيسًا للجمهوريّة اللبنانيّة خلفًا للرئيس الياس سركيس، وقد تـمّ الانتخـاب بشبه إجمـاع مجلس النوّاب اللبنانيّ. إلاّ أنّ خطط شارون تجـاه لبنـان تحطّمـت إلـى شظايا فـي ١٤ أيلول ـ سبتمبر عندما تلقّى جهاز اللاسلكي في سيّارة وزير الدفاع رسالة عاجلة تطلـب منه الاتّصال علـى وجـه السـرعة مـع رئيس الموسـاد. كـان شـارون فـي هـذه الأثنـاء متوجّهًا إلى مزرعته في جنوب إسرائيل، وطلب من سائقه التوجّـه إلـى قـاعدة للجيش حتّى يمكنه الاتّصال هاتفيًّا بتلّ أبيب، حيث كان إسحق حوفي لا يزال في مكتبـه خـلال مدّة انتقال رئاسة الموساد إلى عدموني. فأبلغ حوفي شارون ببرود أنّ بشير الجميّل قـد قُتل بفعل انفجار قنبلة شديدة المفعول في مقرّ فرعيّ لحزب الكتائب في بيروت.

كان ذلك حدثًا مربكًا ومحبطًا بالنسبة إلى حوفي الذي كان في طريقه للتقـاعد عـن العمل في مؤسّسة المخـابرات وسط جـوّ مـن الحيرة والغمـوض بـدلاً مـن الانتصـار، وبالطبع كانت الأنباء مروّعة بالنسبة إلى شارون. ذلـك أنّ العمليّـة التـي اعتمـد وزيـر الدفاع عليها، كانت تقضي بإقامة علاقات عاديّة بين إسـرائيل ولبنـان، يمكـن أن تـبرّر الحرب المثيرة للجدل. أمّا الآن، فـإنّ الأمـور وصلـت إلـى نهايـة متفجّـرة. فقد اغتيل الجميّل قبل بضعة أيّام فقط من الموعد المقرّر لأدائه اليمين الدستوريّة كرئيس للبنان.

في صباح اليوم التالي، ١٥ أيلول ـ سبتمبر، انتقل شارون بواسطة طائرة مروحيّة لتقديم العـزاء لأسـرة الجميّـل، وبرفقتـه ثلّـة مـن الشـخصيّات البـاهرة فـي المخــابرات

الإسرائيليّة: الجنرال ساغاي قائد أمان، وأفراهام شالوم رئيس شين بيت، ومناحيم نافوت نائب مدير الموساد. وفي ذلك اليوم، أفلتوا جميعًا بحياتهم بأعجوبة. لم يكن الرجل الذي هدّد حياة جميع قادة دفاع إسرائيل تقريبًا بالخطر سوى كولونيل في أمان، وهو الذي استقبلهم لدى هبوطهم من المروحيّة، وقادهم في سيّارة إلى مقرّ أسرة الجميّل، لكنّه ضلّ الطريق ومعه في السيّارة شارون وساغاي وشالوم ونافوت، وقادهم مباشرة صوب مواقع منظّمة التحرير الفلسطينيّة في بيروت الغربيّة التي يسيطر عليها المسلمون والفلسطينيّون. إلاّ أنّ شرطيًّا لبنانيًّا قد أشار إليهم ليعودوا أدراجهم، ونصحهم بالابتعاد من هناك. ويعيد شارون ذلك إلى الأذهان قائلاً:

"لا أعرف من كان رجل البوليس، لكن ليس لديّ أدنى شكّ في أنّه أنقذ حياتي وحياة أولئك المسؤولين الكبار من المخابرات والأمن بما في ذلك الكولونيل الذي فكّر في تلك الطريق المختصرة".

ولدى وصوله بأمان إلى مقرّ أسرة الجميّل، أعرب شارون عن تعازيه لوالد بشير الشيخ بيار الجميّل. وقام نافوت بدور مسجّل وقائع المحادثة التي اتّخذت طابعًا رسميًّا مثيرًا للدهشة. ويختصر باحثون تقييم ذلك الاجتماع بأنّه كان هامًّا بل وحيويًّا بالنسبة للمجرى التالي للأحداث. وتمّ حفظ وقائع الاجتماع، التي كتبها نافوت بخطّ يده في أرشيف الموساد بالغ السريّة. وقد أصبحت تلك الوقائع في ما بعد العامل الرئيسيّ في محاكمة كبيرة في نيو يورك، عندما قاضى شارون مجلّة "تايم" الأميركيّة لنشرها تقريرًا كاذبًا مفاده أنّ شارون اقترح على أسرة الجميّل الانتقام من الفلسطينيّين المتبقّين في بيروت. وربح شارون القضيّة.

وفي اليوم التالي الواقع فيه السادس عشر من أيلول ـ سبتمبر ١٩٨٢، انشغل النوّاب اللبنانيّون في اختيار رئيس جديد للبلاد بدلاً من بشير الجميّل، وقرّروا في

النهاية اختيار أمين شقيق بشير مرشّحًا للرئاسة. في هذه الأثناء حصلت مذبحة مخيّمي صبرا وشاتيلا للاجئين الفلسطينيّين قرب بيروت، التي كثر اللغط وتبادل الاتّهامات حول مرتكبيها. ويقول باحثون[1] إنّ قائد الوحدات التي دخلت المخيّم كان رئيس جهاز الاستخبارات في الميليشيا المسيحيّة "إيلي حبيقة"، وهو لم يكن غريبًا بالنسبة للإسرائيليّين، وإنّ أعضاء الميليشيا المدجّجين بالسلاح قد مرّوا ببساطة أمام وحدات الجيش الإسرائيليّ التي تحاصر المخيّمَين، وكان هدف حبيقة في الأصل القضاء على الفدائيّين الفلسطينيّين، إلاّ أن مقاتلي منظّمة التحرير الفلسطسنيّة كانوا قد هربوا بالفعل. ويقول هؤلاء الباحثون إنّ المهاجمين قد قاموا بالثأر لمقتل بشير الجميّل في شكل هيستيريّ، وقد جرى كلّ ذلك تحت سمع وبصر الجنود والضبّاط الإسرائيليّين الذين يديرون مواقع مراقبة خارج المخيّمين مباشرة، لكن لم يبد عليهم الاهتمام بما كان يجري. إلاّ أن مصادر أخرى تقول بأنّ الذين ارتكبوا المجزرة كانوا من جماعة "جيش لبنان الجنوبيّ" بتسهيل من الإسرائيليّين. ورأى العالم مذابح صبرا وشاتيلا بوصفها الكلمة الأخيرة تجاه غزو إسرائيل للبنان وكانت كارثة. وقد حاول بيغن أن يقول إنّ المذبحة كانت قضيّة عرب يقتلون عربًا، ولا علاقة لإسرائيل بها. لكنّ الأجانب لم يقبلوا ذلك ولا ألوف الإسرائيليّين الذين احتجّوا على تصرّفات حكومتهم في لبنان. ووافق بيغن على تشكيل لجنة خاصّة للتحقيق برئاسة "إسحق كاهان" رئيس محكمة العدل العليا السابق، لتقصّي ما إذا كان لإسرائيل دخل بفظائع صبرا وشاتيلا.

في الثامن من شباط ـ فبراير ١٩٨٣، قرّر القاضي كاهان أنّه يتعيّن على إسرائيل أن تتحمّل مسؤوليّة غير مباشرة في ما يتعلّق بمذبحة مخيّمي صبرا وشاتيلا، وأوصى

---

١ ـ رافيف دان، وميلمان يوسي، أمراء الموساد، ص ٣٩٣ ـ ٤٠٣.

تقريره بالتحديد باستبعاد إرييل شارون من منصب وزير الدفاع. وفي الرابع عشر من شباط ـ فبراير قدّم شارون استقالته من منصبه على مضض.

ويقول باحثون استراتيجيّون مستقلّون إنّ غزو لبنان، الذي تمّ شنّه في حزيران ـ يونيو ١٩٨٢، يعتبره الإسرائيليّون أمرًا مؤسفًا على أفضل تقدير، وكان خطأ مروّعًا في عيون الكثيرين. فقد أدّت الحرب التي شنّها الإسرائيليّون، في بلد يعيش بالفعل في جوّ من العنف، إلى مقتل ألوف اللبنانيّين والفلسطينيّين من المدنيّين والمقاتلين على حدّ سواء، فضلاً عن أنّ الخسائر الإسرائيليّة كانت أكبر ممّا توقّع الجيش، حيث قتل أكثر من ٦٠٠ جندي وجرح الآلاف. ولم تتحقّق أهداف عمليّة "السلام من أجل الجليل"، فلم يتمّ إخراج السوريّين من لبنان، ولم يوقّع لبنان معاهدة سلام مع إسرائيل، وما زالت منظّمة التحرير الفلسطينيّة قائمة وعلى ما يرام، على الرغم من إخراجها من بيروت وجنوب لبنان. وعلى الرغم من تمنّيات بيغن، فإنّ الفلسطينيّين في الضفّة الغربيّة وغزّة واصلوا التزامهم بتأييد ياسر عرفات، في الوقت الذي حاولت فيه إسرائيل دون جدوى أن تتعهّد قيادة عربيّة بديلة في الأراضي المحتلّة.

ويقول باحثون إنّ الرأي داخل مؤسّسة الدفاع الإسرائيليّة كان مفاده أنّ مؤسّسة المخابرات قد أدّت عملاً بالغ السوء، فقد أخفق الموساد في أهمّ وظائفه الأساسيّة وهي التقييم عندما راهن على فوائد التحالف مع الميليشيات المسيحيّة التي لم تمنح ولاءها لإسرائيل. وتسرّبت أيضًا أنباء عن أنّ الموساد وأمان لم يتمكّنا من تقديم تفاصيل محدّدة عن تحرّكات عرفات، على الرغم من أنّ بيغن وشارون طالبا الوكالتين بذلك مرارًا. وكانت المحاولات العديدة من جانب القوّات الإسرائيليّة لقتل زعيم منظّمة التحرير الفلسطينيّة، خلال الحرب، قد أودت بأرواح كثيرين آخرين دون أن تناله هو. فقد أخطأت السيّارات المفخّخة والغارات الجويّة الدقيقة عرفات، وهو الرجل الذي

وصفه بيغن بأنّه "وحش يمشـي علـى قدميـن". وعندمـا أتيحـت الفرصـة أخيرًا لقنّـاص إسرائيليّ أن يطلق النار على الزعيم الفلسطينيّ خلال مراسم مغادرته بـيروت، بـدا أنّ إطلاق النار عليه لا يتّسم بالحكمة من الناحية السياسيّة حيـث أنّـه تعـرّض للمهانـة مـن جرّاء هزيمة بادية. كما أنّ اغتيال رئيس منظّمة التحرير الفلسطينيّة أمام الدبلوماسـيّين الأميركيّين وغيرهم الذين أشرفوا على عمليّة الانسحاب وأمـام أطقـم المصوّريـن مـن أنحاء العالم، كان من شأنه أن يبدو عملاً شديد الغباء، لذلك امتنع القنّـاص عـن إطـلاق الرصاص.

وفي أكتوبر ١٩٨٣، بعد ثمانية شهور من رحيل شارون مـن وزارة الدفـاع، فاجـأ بيغن رئيس الوزراء مجلس وزرائه بقوله: لم يعد لي مزيد من القـوّة"، وقـدّم استقالته. ومن الواضح أنّ وفاة زوجته "عليزا" قد أصابته بالإكتئاب. كمـا أنّ يقظـة المتظـاهرين الإسسرائيليّين المناهضين للحرب أمام مقرّ إقامته الرسميّ، يبدو أنّها دفعت بيغـن إلـى أن يغرق في صمت متأمّل. وأصبـح وزيـر الخارجيّـة إسـحق شـامير رئيـس الـوزراء الجديد في الوقت الذي انسحب فيه بيغـن إلـى حالـة مـن العزلـة شبه الكاملـة فـي بيتـه المتواضع في شارع "زيماش" في القدس.

يروي باحثون أنّه على الرغم من كون مناحيم بيغن واحدًا من أعظـم الشـخصيّات التاريخيّة في إسرائيل، إلاّ أنّه رفض أن يوضح دوافعه سواء للحرب أو للسلام. وقـال المقرّبون منه، وهم قلّة، إنّه تعذّب من إحساسه بـأنّ شـارون ورئيـس الأركـان "رافـول إيتان" قد ضلّلاه، وبدلاً من أن يحتفل بالنصر الموعود لم يجد سوى مـوت المئـات مـن الإسرائيليّين الشباب في لبنان الذي يثقل ضميره.

وبعد تسـعة شـهور مـن غيـاب بيغـن الدرامـاتيكيّ عـن السـاحة السياسيّة، تشـكّلت حكومـة إسـرائيليّة جديـدة نتيجـة للإنتخابـات العامّـة التـي أحدثـت انقسـامًا عميقًـا فــي

إسرائيل. وبعد شهور من المشاحنات بين ليكود والعمل في صيف ١٩٨٤، وافق زعيما الحزبين شامير وبيريز على اقتسام السلطة في إطار حكومة فريدة للوحدة الوطنيّة. وتشكّل مجلس وزراء من كلّ من الكتلتين السياسيّتين الرئيسيّتين في البلاد، وبعد أن شغل بيريز منصب رئيس الوزراء خلال الخمسة وعشرين شهرًا، سلّم المنصب إلى شامير بطريقة دوريّة لم يسبق لها مثيل، ليشغله على مدى النصف الثاني من ولاية الحكومة.

وانسحبت القوّات الإسرائيليّة من كلّ لبنان تقريبًا، وقامت بدوريّات فقط في "الحزام الأمنيّ" قرب الحدود إلى جانب أتباعها في "جيش لبنان الجنوبي" الذي ساهمت في إنشائه[١].

---

١ ـ رافيف دان، وميلمان يوسي، أمراء الموساد، ص٣٨٩ ـ ٣٩١، ٣٩٣ ـ ٣٩٧، ٤٠١ ـ ٤٠٣، ٤٠٧ ـ ٤٠٨.

لائحة المراجع

أوستروفسكي فيكتور، الوجه الآخر للخداع، ترجمة زينة كفروني ومحمد ناصر، منشورات بيسان (بيروت،١٩٩٥)

أوستروفسكي فيكتور، عن طريق الخداع، المؤسّسة العربيّة للدراسات (بيروت،١٩٩٥)

جريدة "الحياة" اللبنانيّة.

جريدة "السفير" اللبنانيّة.

جريدة "النهار" اللبنانيّة".

جريدة "جيروزالم بوست" الإسرائيليّة.

جريدة "نداء الوطن" اللبنانيّة.

جريدة "هآريتس" الإسرائيليّة.

الجزائري سعيد، ملفّ التسعينات عن أعمال المخابرات، ج١، دار الجيل (بيروت،١٩٩٧)

جنبلاط كمال، هذه وصيّتي، مؤسّسة الوطن العربي (باريس،١٩٧٨)

رافيف دان، وميلمان يوسي، أمراء الموساد، كلّ جاسوس أمير، تعريب ممدوح لطفي، دار الكتاب العربي (دمشق،١٩٩١)

زهر الدين د. صالح، الموساد بين الإخفاق والاختراق، المركز الثقافي اللبناني (بيروت،٢٠٠٣)

زهر الدين د. صالح، الوطن العربي والموساد، المركز الثقافي اللبناني (بيروت،٢٠٠٣)

زهر الدين د. صالح، ملف الاستخبارات الإسرائيليّة، المركز الثقافي اللبناني (بيروت،٢٠٠٣)

صارجي د. بشارة، مجلّة "الحوادث"، العدد ١١٦٩، الجمعة ١٩٧٩/٣/٣٠.

صالح محمود عابدين، المخابرات والأمن والجاسوسيّة مكتبة مدبولي (القاهرة،٢٠٠٣)

طوماس غوردون، إنحطاط الموساد، إغتيالات وأكاذيب وارتزاق، ترجمة د. محمّد معتوق، دار بيسان (بيروت،٢٠٠٠)

عقل فاضل سعيد، الجبيلي أنطون جرجي، الحرب في لبنان (بيروت،لا.ت.)

عمّار نزار، الاستخبارات الإسرائيليّة، المؤسّسة العربيّة للدراسات والنشر (بيروت،١٩٧٦)

الفالوجي فريد، جواسيس الموساد العرب، مكتبة مدبولي (القاهرة،٢٠٠٣)

فخّ العبّاس، أسرار وحقائق عمليّة انصاريه، دار الندى (بيروت، ١٩٩٨)

الفغالي بدرا باخوس، باريس، صحيفة "الديار" اللبنانيّة، عدد ٢٠ كانون الأوّل - ديسمبر ٢٠٠٣،

كاتس شموئيل، إسرائيل في مواجهة جبريل، حرب الثلاثين عامًا ضدّ أخطر قائد فلسطينيّ، ترجمة تحسين حلبي، تقديم ومراجعة اسماعيل دبج، دار بيسان (بيروت،١٩٩٧)

مجلّة "الحوادث"، العدد ١٠١٥ الجمعة ١٩٧٦/٤/٢٣.

مفرّج طوني، حرب الردّة، دار الجريدة (بيروت،١٩٧٩)

ميخائيلوف فلاديمير، إرهابيّو الموساد، دار التقدّم (موسكو،١٩٨٧)

النمر مروان توفيق، ورشيد ربيع سليمان، الموساد والإخفاقات الأخيرة، دار الفارابي (بيروت،١٩٩٨)

هيرش سيمور م.، خيَار شمشوم، الترجمة العربيّة، مكتبة بيسان (بيروت،١٩٩٢)

وكالة أ.ف.ب.

وكالة رويترز.

الفهرس

الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة


Bibliotheca Alexandrina
0586426